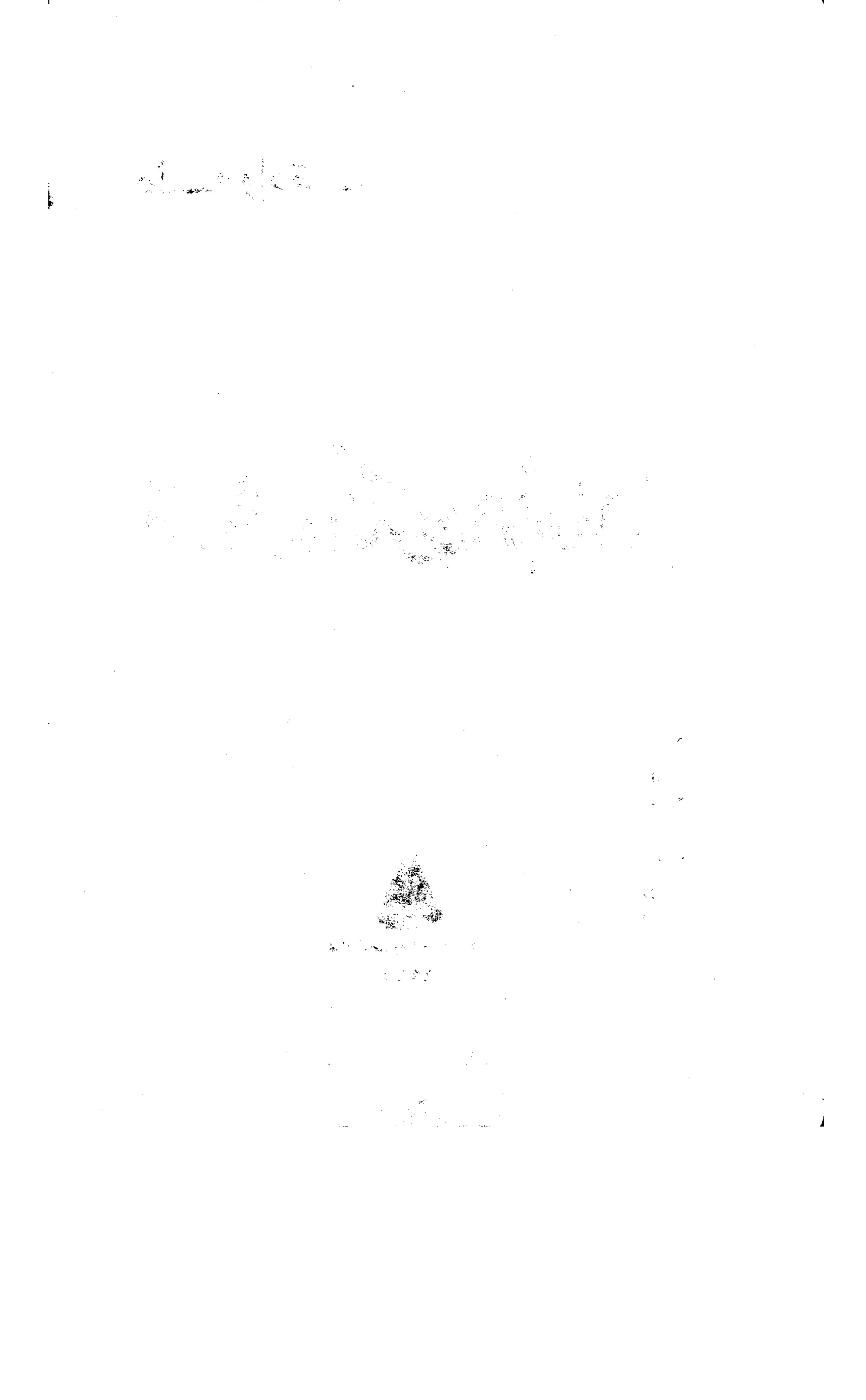
طـــه وادى

فى البدء تكون الأحلام



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٥



اهـــــداء

الى ...

الشـــمس المضـــيئة
والــروح البريئـــة
والنســـمة الرقيقة
ذكرى .. وتحـــية .

طه وادى

مقدمـــة فى :
اوجـاع القــلب

الحياة بغير أحلام جميلة كابوس مخيف ، والانســـــان اذا استسلم لاحباطات الواقع ، التى تفرض كآبتها صباح مساء ، ما كان ثمة أمل أو رجاء فى غد مشرق ومستقبل افضـــل . ان كل الانتصارات العظيمة على مســــتوى الأمم والأفراد ، بدأت بحلم شاحب فى أفق بعيد ، لأن الاصرار والايمان يحققان المســـتحيل ويصنعان المعجزات ، فى زمن اختلطت فيه كثير من القيم والمبادىء. لكن سوف تظل هناك قيمة نبيلة ، اذا فقدها المرء فقد توازنه ومغزى حياته .. هى أن تؤمن بأنك « **انسان ذو ارادة وكرامة** » . بالارادة يلين لك الحديد .. وبالكرامة تحقق ما تريد . ان بعض الناس طغاة لأننا نركع لهم ، ونحنى الجباه لغير الاله . الارادة مهرها الدماء .. الكرامة صرخة رفض واباء ، وتحدى المريد لحياة العبيد .. !!

ان الله فى سمائه لم يخلقنا على أرضه ، لكى نخضع لغيره

أو نركع . ان الذى خلقنا ، هو الذى وهبنا الحياة . ولن يقبض الروح الا من خلقها . فما أتعس من يبيع العز بالذل ، والحب بالعذاب ، ويشترى الخبز بالجبن ، والأمل بالألم !! فيارفيقى — عدوا كنت أم صديقى :

لا تسـقنى ماء الحيـاة بذلة
بل فاسـقنى بالعز كأس الحنظل
مـاء الحيـاة بذلة كجهنم
وجهنم بالعـز اطيـب منزل

***

حين فكرت فى نشر هذه المجموعة من« **الخواطر الأدبية** » دارت فى مخيلتى فكرة العلاقة بين : الحلم .. والكلمة .. والفعل، واى هذه المعانى يسبق بعضه بعضا الى الوجود ، وبعد حوار — مع النفس .. والمحبوب — أدركت أن اى عمل عظيم ، يبدأ خاطرة عابرة فى رحم الخيال ، ثم يتحـول الحلم البعيد بالوعى والايمان — الى كلمة طيبة .. وفعل واقع ، لذلك آثرت أن يكون العنوان هو « فى البدء تكون الأحلام » .. أملا فى أن تحرك هذه الخـواطر — لدى القارىء العزيز — المياه السـاكنة والآمال المحبوسة .

وهذه الخواطر نشرت معظمها من قبل فى جريدة « العرب » القطرية .. وبعض المجلات العربية والمصرية . وقد آثرت أن اعيد نشرها ، **لأنها تمثل صورة من اوجه نشاطى فى مجال كتابة المقال الأدبى** — الذى لم امارسه كثيرا من قبل .

والله أسأل أن يريحنا من أوجاع القلب .. ويوفقنا الى طريق الكرامة والحب .. !!

الجمعة ١٩٩٤/٦/٢٤

طه وادى

في البـــدء
تـــكون الكلمـــة

اقسم بالواحد الأحد

وبكل خير فى البلد

ان نعيد بناء الحياة

بالكلمة .. !!

بهذا القسم افتتحت احد فصول روايتى « الأفق البعيد » ، مشيرا الى دور « الكلمة » الخطير فى حياتنا ، فالكلمة الصادقة فى حقيقتها فعل .. وانت اذ تتكلم فاعل ــ صاحب ارادة . انطلاقا من هذا الوعى بأهمية « الكلمة » فى حياة البشر ، عزمت على أن التقى مع القراء الأعزاء .. معبرا عما يدور فى خلدى من خواطر وافكار ، أملا فى اللقاء على كلمة سواء ، تفتح القلب وتنير الوعى من أجل غد افضـــــل للانسان العربى ، الذى ينوء كاهله المتعب

بهموم ثقال . ولست أدرى لماذا نعانى — نحن العرب — اكثر مما يعانى مثل غيرنا ، ولا لم تشغلنا أعراض المواقف عو جواهرها ؟!

الذى لا ريب فيه أن كثيراً من مشكلاتنا .. بل ربما مصائبنا ، تعود الى اهدار دور الكلمة ومسخ دلالتها فى حياتنا . ونحن مع «الكلمة» نمارس اكثر من ازدواجية : فنتكلم بلغة ، ونكتب بأخرى ، كما اننا نتحدث مع الآخرين بلغة ، ومع الذات بلغة غيرها ، بصفة عامة لا نكاد نؤمن بأن الكلمة الصادقة اقصر طريق بين نقطتين مختلفتين من مواقف الحياة وجدل الأحياء .

لذلك أتمنى أن تعود للكلمة « هيبتها » فى عالمنا العربى ، وأن نؤمن بأن طريق الكلمة هو السبيل الى توحيد صفوف الأمة ، لأن الايمان بدور « الكلمة » — فى جوهره — ايمان بوحدة الهدف ، وأن الحوار أفضل طريق للتفاهم والاقناع .

أيها السادة .. كفى صراخا ، ودعونا نتكلم بقلب مفتوح وبلغة واحدة ، حتى نتدارك بعض اخطائنا .. ونلتمس الحل لكثير من مصائبنا ، لأن الكلمة الصادقة أسمى عمل من أعمال الحرية يمارسه انسان .

اننى ادعو الله — مخلصا — ان نؤمن بالكلمة الطيبة سبيلا للحوار البناء .. مع الأنصار والأعداء ، حتى نعيد الحياة الى قاموس حوارنا المضطرب ، فقد سئمنا أن تنطق العيون ، بما تعجز عن قوله الأفواه .. !!

الكلمــة ..
شــرف وأمانــة

لم يكن حافظ ابراهيم (١٨٧٠ ـــ ١٩٣٢) شاعرا فحسب ، وانما كان واحدا من ظرفاء عصره ، و «سميرا» له فى مجالس السمر تراث طريف ، لكنه ـــ مثل حصاد كثير من مجالس السمر والمنادمة ـــ لم يجمع .. ولم يدون . ومن نوادره الطريفة ان الشاعر الغنائى احمد رامى (١٨٩٢ ـــ ١٩٨١) ذهب اليه فى بدء حياته الأدبية ، وأسمعه احدى قصائده . وبعد ان أنشد الشاعر الشاب قصيدته انصت الى الشاعر الشيخ منتظرا سماع رايه ، فقال حافظ بسخريته اللاذعة :

ـــ « قصيدتك دى زى السلام عليكم .. كل واحد يقدر يقولها .. !! »

تذكرت هذه النادرة المضــحكة ـــ البكية ، وأنا أقرأ كتابا جذبني عنوانه ، وبعد سفحات معدودات ، أدركت أنه عديم القيمة ،

ولا يخلو من كثير من الأخطاء والمغالطات ، التى لم يحاول المؤلف التثبت منها . العن من هذا كله ، أن الكاتب يكاد لا يقيم بناء العبارة. ولغته مثل لغة بعض المستعربين تعوزها أحيانا الصحة والسلامة ، وتخلو فى كثير من الأحايين من ومضـــــــة بلاغية . .أو بصـــمة اســــــلوبية .

للحق أقول . . ان المثل القائل « **اللى استحوا . . ماتوا . .** » لانكاد نجد مجالا ينطبق عليه اكثر من مجال (الكتابة) . . !!

وليت الكارثة اقتصــــــرت على ميدان دون غيره . . وانما استشرى الفساد فى معظم المجالات تقريبا — لا سيما فى مجال المعارف النظرية مثل : الأدب والنقد والصحافة والسياسة والتاريخ وعلوم الاجتماع . بل ان الأمر تجاوز ذلك الى مجال الفلســـــفة والكتابة الدينية . والأدهى من ذلك ان أمر الخراب تعدى مجال الكتابة (العامة) الى الكتابة المتخصـــــصة ، سواء فى بعض الدراسات التى يؤلفها متخصصون يعلمون ما لا يعلمون . . ! وفى بعض الرسائل الجامعية أيضا . . بدات تستشرى عوامل العفن والخراب . وكم من كتب ومقالات لا تساوى — من حيث القيمة — وزن الحبر ، الذى سطرت به . لأن كاتبها لم يفعل شيئا سوى أنه (سود) صفحات كان ينبغى أن تبقى بيضاء . فما اضعف شأن من يمسك القلم دون أن تكون لديه فكرة مبتكرة . . او راى خاص . وما أعجز من يؤلف كما لو كان يخرف ، وما أسخف من يعيد ويزيد دون أن يقول شيئا . . !!

ينبغى على من لا يجدون شيئا له جدوى يقولونه ، أن يكسرَوا أقلامهم . . كما يجب على القراء أن يفضــــــحوا — أو على الأقل يقاطعوا — « الكتبة » ، الذين يكتبون مالا يفقهون ، لأن الكلمة — ابداعا ونقدا — شرف وأمانة . . !!

من أين تشرق الشمس .. ؟!

التقيت ذات مرة بصحفى من اليابان ، كان يريد اجراء حديث معى حول الأدب العربى المعاصـــــر ، وأخذت أحدث الرجل فى الموضوع ، وهو يصغى الى بأدب شديد .. ويحرص على تدوين كل ما اقول .. وانتهى الحديث .. ومرت عليه سنوات الى أن التقيت مرة اخرى بصحفى عربى ، يجرى معى حديثا حول الموضوع ذاته ، لكنه بدلا من أن يستمع ويسجل ، كان يريد توجيه الحوار وجهة خاصة ، تثير من الخلافات والخصومات أكثر مما توضح من الحقائق والسمات . من ذلك انه سألنى من يكون أمير الشعراء اليوم .. ومن افضل روائى عربى .. ومن أعظم كاتب مسرحى . ؟! الى غير ذلك من الاسئلة التى تقوم كلها على توظيف (أفعل) التفضيل .. !!

قلت له بهدوء انك واحد من الذين يتابعون مسيرة الأدب والثقافة مثلى ، وان ما تسأل عنه .. ليس عصى الاجابة ، لكنه

يحتاج الى درس موضوعى .. ويحتاج الى أن تعترف الأمة كلها بالفضل والسبق لمن استطاع أن يعبر عن آمالها وآلامها . كما أتمنى أن يأتى اليوم الذى نتحاور فيه ، ونحن على قدر من الاتفاق حول بعض الحقائق الأولية ، حتى لا نختلف كثيرا .. وحتى لا تقوم أحاديثنا على بالونات جوفاء سرعان ما تطير فى الهواء .

اسوق هذه الحادثة ــ آسفا ــ كى أوضح أننا قد نتحاور فى مواقف كثيرة من مواقف الحياة المعقدة .. غير أننا لا نقدر ــ أحيانا ــ أوليات أدب الحوار فى موضوع من الموضوعات . وأول أدبيات الحوار فى تقديرى ، هو أن نتفق على المبادىء العامة والقواعد الأولية .. حتى نستطيع أن نتكلم لغة (مفهومة) ، ونصل ــ فى النهاية ــ الى رأى مشترك ، وحتى لو لم نصل الى رأى موحد ، لا يخسر أحدنا الآخر ، مؤمنين بأن : اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية .. !!

أيها المتحاورون ، عندما تختلفون .. اسألوا أنفسكم سؤالا واحدا : من أين تشرق الشمس .. ؟!

شــجرة المحبــة

عندما زرت ايطاليا — فى رحلة سياحية — شد انتباهى منظر جميل متكرر فى كل مكان ، حيث رأيت اهتماما لافتا للنظر بالأشجار والأزهار ، فقد حبا الله الايطاليين طبيعة خلابة ، لكنهم لم يكتفوا بذلك فحسب ، وانما تجد معظم الناس .. قد حولوا شرفات مساكنهم الى حدائق بديعة ، فيها نباتات زينة متنوعة .. وازهار ملونة مختلفة .

وهكذا لم يكتف الايطاليون بجمال الطبيعة الطبيعى ، وانما عملوا على تجميل كل مكان يتواجدون فيه ، بحيث تكون المسافة بين العمل والبيت كافية ، لكى تنسى متاعب العمل ، وتعود الى البيت كأنك قادم من اجازة .. !!

وعندما رأيت جمال الطبيعة ونظافة الأماكن وانتظام الشوارع وانضباط حركة المرور ، تذكرت حالة بلادنا العربية ، وانعدام

اللمسة الجمالية فى كثير من المدن والعواصم . أن الصحراء تمثل ثلاثة أرباع الوطن العربى تقريبا ، والربع الباقى هو الذى يتمتع بنعمة الماء والخضرة . ولكن أولئك وهؤلاء ، لا يحرصون كثيرا على مظاهر الجمال .. ومناظر الخضرة .. ودواعى البهجة .. وكم احس بالحزن وانا أمشى فى شوارع القاهرة .. وأتحسر على ما أصابها من فوضى ، واغتيال لمظاهر الجمال والنظام . بل ان الاحساس بالهم والأسى لا يفارق الانسان حين يمشى على شاطىء النيل ، أو يزور بعض المناطق السياحية .. فى الشمال أو الجنوب .. وحتى فى القاهرة ذاتها .. !!

حدث الى نفسى غضبان آسفا ، فنحن لا نتوسع فى التشجير والزراعة الجمالية ، بل لا نكاد نحافظ على ما هو موجود من ازهار واشجار .

ولاشك أن غياب الخضرة من الميادين والشوارع والبيوت ، فى حقيقته اغتيال للجمال الروحى ، واختلاس للهدوء النفسى ، وتقليص لحجم الاوكسجين فى الهواء الطبيعى .. وصدق من قال :

« ثلاثة يذهبن الحزن .. الماء .. والخضرة .. والوجه الحسن » !!

ان الحاجة ماسة جدا من اجل تجميل بلادنا ، والعمل على زيادة مساحة الخضرة فيها ، لذلك أوجه دعوة لكل مواطن كى يغرس فى الشارع .. أو فى مقر العمل .. أو فى البيت .. أو حتى فى شرفة البيت .. شجرة يسميها « شجرة المحبة » ، تعبيرا عن حبه لبلده .. أملا فى أن تعم الخضرة ، وأن ننشر البهجة .. ونخفف من عوامل التلوث .. ونعلى من مظاهر الجمال .. فى كل مكان .. !!

أنـت حـــر ..
ما لــم تضــر .. !!

وقع أحد الزملاء فى خطأ ، وجاء يشكو الى . وبعد أن تحدثنا فيما فعل ، واظهرت له وجهة نظرى فيما اخطأ ، عز عليه أن يعترف بخطئه . وانهى الحوار بغضب قائلا : أنا حر .. !!

وكلمة « أنا حر » فى قاموس حياتنا شائعة بدرجة معينة ، لا يساويها — أحيانا — فى كثرة الاستعمال سوى كلمة « أنا مالى » . وتعجبت لمفهوم « الحرية » ، الذى يستخدمه كل واحد بطريقته الخاصة ، ويوظفه بشكل مستمر ، لتبرير بعض أخطائه وتصرفاته . ان « الحرية » كلمة عظيمة .. ومفهوم سام ، يمثل اقصى مكسب حضارى وديموقراطى ، حققه الانسان فى حياته . بل أن الشعوب جميعا تحارب من أجل هذه الحرية ، سواء على المستوى الوطنى أو الفردى . غير ان ما يحتاج الى توضيح وتحديد صارم ، هو الوعى بأن الحرية ليست صورة من صور «الفوضى» ، وانما الحرية

لها ضوابط وقيود ، وأسمى هذه الضوابط هى ألا تسىء الى نفسك .. أو الى الآخرين .. !

من هنا فان القانون يحجر على السفيه والمجنون والقاصر ، حتى لا يؤذى واحد منهم نفسه ، ولا يسىء الى غيره . كذلك فان « الحرية » لا تبيح لأى امرىء أن يسير فى الطريق عاريا .. أو أن يتفوه بأى كلام يشبه « كلام المجانين » .

ياصديقى اعلم أنك حر .. اذا لم تضر نفسك أو سواك . « الحرية » .. أن يكون لك رأى متزن .. وشخصية مرضى عنها .. وسمعة لا غبار عليها .. لذلك ليس عبثا أن تحرص المصالح العامة على أن يكون من يوظف فيها حسن السيرة محمود الخلق .

أما « الحرية » التى تبيح لصاحبها .. أن يفعل أى شىء .. أو أن يقول أى شىء ، فهذه فوضى وعبث !!

ان الحرية « عقد اجتماعى » بين المواطن والانسانية جمعاء ، حتى تتحرر النفوس وتتقدم المجتمعات ، ويتحقق « الأمان » لكل البشر .

واذا لم نفهم الحرية على أنها « التزام نبيل » بحريتك وحرية الآخرين فى آن واحد ، فان هذه الحرية يصدق عليها ما قاله الفيلسوف الفرنسى « فولتير » :

« ايتها الحرية ..

كم من الجرائم ترتكب ، باسمك .. !! »

الاشاعة

كادت الاشاعة أن تكون من الوجبات اليومية ، التى يتغذى عليها بعض الناس ، ويظل جسمه — لا عقله — يتعود عليها ، الى أن يصير شحمه ورما ، وفكره وهما . ومن العجيب أن الاشاعة تسير بين الناس بسرعة أكبر مما تسير عليها الأخبار الصحيحة . وهى اذ تنتقل من مروج الى آخر تتسع لكثير من الاضـــــافات والتفاصيل ، وتظل تنمو وتترهل لدرجة انها لو ردت الى المذيع الأول لها ، لما صدق أنه هو الذى اخترعها وألفها .. من الألف الى الياء .. !!

ومن عجب أيضا أننا قد لا نقطع دابر الاشاعة فى مهدها ، ولا نستنكر قول من يتقول بها ، لأننا تعودنا — أحيانا — على أكل لحم البشر حيا . وصرنا نستلذ بما يقع على غيرنا من مصائب وآلام ، ونسينا — أو تناسينا — ماذا يكون الحال لو أن الاشاعة

تتصل بأمر من أمورنا نحن ؟! ومعنى هذا أننا لا نحب لغيرنا ما نحبه لأنفسنا .. وربما كان الأمر — فى حقيقته — أننا نحـــلل لأنفسنا ، مانحرمه على غيرنا .. !!

ليتنا ندرك أن من يستطيع اختراع الاشاعة والكلام الأجوف ، لا يطيق الجد ولا يعرف الصدق ، فهو مثل المنبت ، لا يعمل ولا يريد للآخرين أن يعملوا . ان الاشاعة طلقة طائشة : تطعن الأبرياء ، وتشوه الحقائق ، وتغرس بذور العداوة والبغضاء ، وتدمر وحدة الصف ، وتعرقل مسيرة الحياة .

وقد آن لنا أن ندرك أن من يسىء الى غيرنا اليوم ، فسوف يأتى يوم يسىء فيه الينا ، لأننا منذ البدء قد سمحنا له بنشـــر الأكاذيب ، غير مدركين أن الكلام اذا كان من فضة ، فالسكوت من ذهب .. !!

ان أيام المرء فى الحياة معدودة ، ومتطلباته من اغراضـــها محدودة . فلم اذن نســـمح بنشر أحاديث الافك ونشـــر بذور الشـــك .. ؟!

أيها السادة اقتلعوا كل الأعشاب الضارة ، حتى لا تسىء الى أزهار الحديقة .. !!

الخطأ .. والخطيئة

طريق الحياة — مثل طريق الجنة — محفوف بالمخاطر والمكاره ، لأن دور الانسان فى الحياة دور مركب ، فهو : فرد فى أسرة ، وعامل يشغل وظيفة ، ووحدة فى سياق مجتمع .. كما أنه — أى الانسان — كائن معقد ، له عقل وقلب وبطن ، أى له فكر وعاطفة ورغبة ، من هنا فانه حين يتصدى للقيام بدوره وتحقيق مطالبه ، يواجه كثيرا من المصاعب والتحديات ، التى قد ينجح فى حلها ، وقد يفشل . فالانسان اذن عندما يسعى فى درب الحياة معرض بالضرورة الى أن يصيب مرة ، ويخطىء أخرى . وربما كان أكثر البشر عرضة للخطأ ، هم الذين يحرصون على الحياة ، ويحبون أنفسهم أكثر مما يحبون الحق والحقيقة .. والمصلحة العامة .

كما ان وقوع الضالين فى الخطأ ، لا يعنى أن بعض المخلصين

بمنجى منه . فكل ابن « حواء » خطاء . والخطأ اذا وقع فيه الانسان ــ دون قصد أو هوى ــ ليس عيبا أو عارا ، لكنه يصبح كذلك اذا ما تبينه المرء وســـــكت عنه ، لأنه يصــير ــ فى تلك الحالة ــ شيطانا أخرس .

ولايزال المرء يخطىء ، حتى يعرف بأنه « خطاء » .. مخرب يسىء الى نفسه .. والى جماعته فى آن واحد .. !!

لكن الانسان الحق هو الذى لا يحول خطاه الى « خطيئة » ، فيصبح مثل المرض المعدى سريع الضرر والانتشار ، يصيب المجتمع بخراب لا حد له . وبهذا يتحول المرء من عامل بناء وتقدم ومحبة ، الى معول هدم وفساد فى صرح المجتمع .

ان الخطأ مرض اجتماعى خطير ، بيد أن أضراره قد تخف أو تنحسر ، اذا عمل صاحبه ــ طوعا أو كرها ــ على تصحيحه قبل ان يتحول الى خطيئة مخربة ، تفسد العلاقات البشرية ، وتهدم القيم النبيلة .. وتؤذن بطوفان ، لا يبقى ولا يذر .. !!

ان الخطأ مرض خطير .. واخطر منه الا نحاول تصحيحه .. واخطر من هذا وذاك ، الا يأتى ذلك التصــــحيح فى اللحظــــة المناســــبة .. !!

في بيتنـــا ..
مجلس وطني ديموقراطي

أردت منذ وقت مبكر في حياة أسرتنا السعيدة ، أن أدربهم على أسلوب الديموقراطية وتقاليد الحوار ، لاسيما في الأحداث التاريخية ، التي يواجهها المجلس الوطني للأسرة الكريمة ، في ظل حكم حضـــــرتنا المجيد . وهذا المجلس يمارس ارادته الحرة في الحديث أو الصمت .. وفي الحضور أو عدمه . المهم أن تسبق عقد المجلس — بفترة كافية — دعوة صريحة للحضـــور ، حتى لا يتعارض عقد الجلسة مع مواعيد اللعب أو الزيارات أو غير ذلك من مبررات لعب العيال . وفي الغالب أنتهز فرصة سانحة يكون كل الأعضاء فيها حاضرين، حتى يتم أخذ الأصوات بالأغلبية المطلقة. وقد ثبت أن أفضل موعد لعقد « المجلس الموقر » هو اليوم ، الذي يتحدد أن يكون الغذاء فيه « لحما على طريقة الهبر » .. وثريدا على طريقة « الفتة .. أم خل وثوم » .. والحلو طبق « أم علي »

أو « الأرز مع اللبن » — وكلاهما بالطبع من فصيلة واحدة — وبعد تناول الشاى « المضبوط » نعقد الجلسة المباركة .

وبالطبع — باعتبارى رب الأسرة ، وحامل اللواء فى السراء والضراء — فأنا رئيس المجلس بعد استفتاء حر ، كانت نتيجته ١٠٠٪ ، لانه لم يتخلف أحد. وتجلس بجوارى فى صدر المجلس السيدة « أم العيال » حرمنا المصون وزيرة الشئون الداخلية ووزيرة المالية (بعد ان اثبتت حكمة في الصرف والتدبير .. وعدم التبذير ، حتى تستطيع شراء ما تريده من ادوات زينة أو مصوغات ذهبية) . وهناك ايضا اعضاء المجلس وهم الولد الكبير محمد .. والصغير مؤنس ، والأبنة الحبيبة منى ، وعلى هذا يكون مجلس بيتنا الموقر ، جامعا لكل فئات الشعب ومعبرا عن ضمير عائلة آل وادى ، على عادة اعرق الأسر الديموقراطية فى عالمنا المتحضر .. !!

والمناسبة .. أو الحدث التاريخي ، الذى تقرر عقد المجلس من اجله هو حصول الولد الكبير علي بكالوريوس الهندسة . وعندما اخذ الكلمة ، بدأ يعبر عن حقه فى أن تكون له « سيارة » خاصة ، ومصروفا معتبرا ، يليق بمقام « باشمهندس » .

وقبل أن ينتهى من حديثه .. طلبت منى الكلمة ، وصرحت بأن القوانين الحديثة تكفل حق المساواة بين البنات والبنين ، وبالتالى فان من حقها هي الأخرى شراء عربية ، او اخذ حصتها « نقدا » ، تكون وديعة فى البنك الي ان تنال بكالوريوس الطب ، وتحصل علي ما حصل عليه اخوها .. وهنا صاح الولد الصغير مؤنس ، ممثل الأقلية ، وزعيم جبهة الرفض وقائد جناح المعارضة ، واوضح أن الكل فى ظل الديموقراطية يجب أن يكونوا سواسية كأسنان المشط ، ، وينبغى أن تسوى بينهم المنح والمكافآت ، كما يطلب منهم النجاح فى الامتحانات واداء الواجبات .

صدقت الزوجة على كلام الأولاد ، وأيدت طلب مؤنس ــ آخر العنقود ــ فى ضرورة المساواة بين أفراد « الشـــــعب » ، رغم اختلاف السن والجنس والمستوى الثقافى ، ثم وجهت اللوم الى السيد رئيس المجلس ، الذى يهتم بمطالب الأولاد ، ونسى أنها طلبت منه ــ منذ أكثر من سنة ــ شراء غسالة « فول أوتوماتيك » بعد أن هدت الغسالة العادية حيلها .

كان طلب الزوجة مطلبا مشـــروعا ، ويجب أن تكون له الأولوية المطلقة . ولكن الأمر يحتاج الى تدبير « عملة صعبة » ، غير متوفرة فى خزانة الأسرة ، لأن شركة « أيديال » ــ سامحها الله ــ لا تبيعها الا بالدولار الامريكى ، مع أننا فى بلد عربى مسلم موحد بالله .

وفى النهاية . .قرر رئيس المجلس أن يدبر أمر العملة الصعبة بمعرفته الخاصة ــ حتى لو أدى الأمر الى الاستعانة بالبنك الدولى، وأمر بحفظ الطلبات المقدمة من أعضاء المجلس لحين ميسرة ، وعدم ادراجها مرة أخرى فى جلسات المجلس الوطنى الديمقراطى الا بموافقة صريحة من السيد رئيس المجلس الموقر ــ حفظه الله ــ وبعد أمر كتابى من وزيرة المالية السيدة « أم العيال » .. بعد أن تسمح بنود « الموازنة » العامة . !!

وحتى لا يصاب أعضاء المجلس بحسرة فى هذا اليوم التاريخى الخالد ، بالاضافة الى الجهد الكبير الذى بذلوه فى الدراســـة والمناقشة والتمسك بآداب الحوار ومبادىء الديموقراطية .. بناء

على كل هذا ، قرر العبد لله ـــ رئيس المجلس ـــ صرف علاوة فورية قدرها عشرون جنيها لكل واحد من أعضاء المجلس ، مع اضافة علاوة استثنائية للباشمهندس محمد بمناسبة نجاحه ، على ألا تزيد قيمة العلاوة الاستثنائية عن آخر منحة حصل عليها .

وحرصا على دعم مسيرة الديموقراطية ، قرر ممثل المعارضة دعوة المجلس الموقر للانعقاد بعد العودة من الاجازة الصيفية ، على أن تقوم السيدة وزيرة الشئون الداخلية والمالية بتنفيذ المطلوب ، من اجل مواصلة المسيرة الديموقراطية ، وتدعيم برنامج أسرتنا الوحدوية ، تحت قيادة رئيس المجلس الوطنى ـــ حفظه الله .. !!

ضربـة جـزاء ..!!

يوم اذاعة مباراة كرة قدم .. يتحول الملعب — بقدرة قادر — من الاستاد الى بيتنا العامر ، ويصـــاب البيت خلال فترة اذاعة المباراة بـــ « عطل فنى » لا أمل فى اصلاحه . فولداى — ولاسيما الصغير منهما — يتمسكان بمشاهدة المباراة من البداية الى النهاية بحرص شديد جدا ، لا الحظه عليهما أبدا خلال فترة المذاكرة ، ولا حتى أيام الامتحانات النهائية .

ويحدث — أحيانا — أن تكون المباراة مسجلة ، وليســت مذاعة على الهواء ، فيصادف عرضها موعد التمثيلية المسلسلة ، التى تحب مشاهدتها زوجتى وابنتى . وهنا يتحول أهل البيت الى فريقين ، كل منهما يريد أن يشاهد القناة — التى تعرض ما يريد . عندئذ — رغم أنى لست مع أولئك أو هؤلاء — يتعين على أن أحول دون أى تنازع أو اشـــــتباك ، حتى تنتهى فترة اذاعة المباراة بســـــلام .. !

وذات يوم تحول البيت الى ملعب حقيقى ، وامتلأت الصالة بالمتفرجين ، فقد اتفق الولدان على دعوة اصدقائهما لمشاهدة المباراة النهائية فى الدورى . بالطبع لا فائدة من النصيحة او الزجر .. فانا لا افعل ذلك عندما نكون وحدنا فى البيت ، فكيف افعله هذه المرة امام اصدقاء الولدين ، اللذين يفتخران بأن اباهما « اب ديمقراطى ».

فوضت أمرى الى الله ، وقررت ترك البيت والذهاب لزيارة صديق لم اره منذ مدة . تجشمت الكثير حين خرجت اليه عصرا ، والشمس لما تزل حارة ، ولم امارس عادتى اليومية ، وهى النوم بعد الغداء . عندما وصلت الى منزله ادركت أن بيته قد تحول الى «ملعب» ايضا . غير أن «سعدا» صديقى ، ليس افضل من «سعيد» الذى هو انا . فقد اكتشفت أن صديقى هو الآخر ، قد صار من « مدمنى » مشاهدة الكرة — وتلك خصلة جديدة ، لم اكن اعرفها فيه ، اكثر من ذلك دهشة أنه نقل العدوى الى زوجته وبناته .. !!

لم اتحمل الموقف ، واستاذنته فاذن لي — على غير العادة — لأنه كان مشدودا الى مشاهدة المباراة ، ومندمجا فى التعليق عليها مع اسرته .. !

خرجت دون أن ادرى كيف يمكن أن اقضى هذه الفترة !؟ اخذت اسير دون هدف فى الشوارع . انظر هنا وهناك .. كأنى كائن « غريب » عن المدينة .. !!

اخذت اتأمل ما انا فيه من حيرة ودهشة ، وبدات اشفق على

نفسى — وليس على أولادى ، لأنهم قد توافقوا مع نسيج الواقع .. وتكيفوا مع منطق الحياة . أما انا — الأب « التقليدى » ، الذى نشأ فى عصر الجد والعمل ، وتربى فى أحضان القراءة والتأمل — فلا أريد .. ولا أستطيع مشاهدة « لعب الكرة » ، الذى صار « وباء » ضمن أوبئة اجتماعية كثيرة ، أصيبت بها حياتنا المعاصرة .. !!

ومع أنى ادرك خطورة الموقف ، فأننى لســـــت قادرا على حماية أولادى من مشاهدة اللعب وتضييع الوقت . كما أنى عاجز — فى الوقت نفسه — عن ايجاد بديل مناسب ، يغنيهم عنه .. !!

المجـالس .. مـدارس

من فضل الله على اننى تزوجت فى سن مبكرة — نسبيا — عن كثير من زملائى .. وقد أنعم الله على بذرية صالحة ، حيث رزقت بولدين وابنة ، وعما قريب — باذن الله — سأكون « جدا » . وقد رزقت بالولدين الكبيرين المهندس محمد ، والدكتورة منى فى مرحلة كنت فيها شديد الحرص عليهما .. والحزم فى تأديبهما . ثم جاء الولد الأخير « مؤنس » فى مرحلة اعداد الدكتوراه وكثرة المشاغل .. فارخيت له الحبل هونا — ما .. لاسيما وأنه آخر العنقود .. وله فى اخويه أسوة ، ولكن آخر العنقود كان ولدا شقيا الى حد ما، وميالا الى اللعب كثيرا .. والى مشاهدة السينما .. ومباريات الكرة . وقد حاولت أن أرشد هواياته هذه — التى أصبح كثير من أبناء هذا الزمان يرونها حقا مشروعا ، سواء فى أيام الدراسة أو فى فترة العطلة الصيفية .. !

ولكن الأمر الذى أثار ثائرتى عليه ـــ ذات يوم ، هو أنى اكتشفت أن له « شلة » من الزملاء والأصدقاء ، يقضى معهم فترات طويلة خارج البيت . جلست معه أناقشه فى الأمر فذكر لى أن من يذهب اليهم ، ويقعد معهم ، هم بعض زملائه فى المدرسة . قلت : لابأس .. ولكن لابد أن أراهم ـــ وأن أطمئن اليهم . وقد صدقت ظنونى حين رأيتهم ، حيث وجدت بعضهم أقرب الى الاستهتار والعبث .. وأميل الى اللهو واللعب ، فطلبت منه أن يقطع صلته بهم فورا . لكن الولد الشقى فاجأنى بقوله :

ـــ ان لك أصدقاء كثيرين .. وليس صديقا واحدا أو اثنين أو ثلاثة . فلم لا تريدنى أن افعل مثل ما تفعل ؟!

لم انفعل أو أغضب .. فآباء اليوم يجب أن يكونوا على قدر كبير من الصبر وسعة الصدر .. والديموقراطية فى التعامل ، فقد جاءوا فى عصر الديموقراطية ، ومن حقهم وحق الديموقراطية علينا .. أن نحاورهم بالتى هى أحسن .

حاولت أن افهمه أن الصغير يجب أن يستفيد من حكمة الكبير ، وأعلمته أن الانسان الفاسد يفسد الصالح بسهولة ويسر ، بينما يعجز أو يصعب على الصالح أن يصلح الفاسد . بل ان تفاحة فاسدة واحدة ، قد تعطب « سلة » كاملة . ثم قلت له .. كى أودبه .. وأعلمه ما لم يكن يعلم :

أى بنى انى معلمك كلمات فافهمها واستوعبها :

أن الانسان لا يستطيع ـــ بل ربما لا يقدر ـــ أن يستغنى عن الصداقة والأصدقاء . فالانسان كائن اجتماعى ـــ بالضرورة ؛

ولا يتحقق وجودة الاجتماعى الا مع الناس . ولكن الانسان لابد أن يدقق كثيرا فى اختيار أصدقائه ، لأنه سيكون محسوبا عليهم ، كما سيكونون هم ايضا .. مجسوبين عليه . لذلك قالوا : المرء على دين خليله . كما قالوا : خذ الصديق قبل الطريق .

وقديما قال شاعر عربى :

عن المرء لا تسل ولكن سل عن صديقه
فان القـــرين بالمقـــارن ينســـب

وانا اقول لك ايضا : **قل لى من صديقك اقل لك من أنت .. !!**

اى بنى .. اعلم أن المجالس مدارس ، فاختر الى أية مدرسة تريد أن تنتسب : هل تريد أن تنتسب الى مدرسة الحكمة والخير والبر والعقل والأدب والعمل على ما فيه صالحك وصالح الآخرين ، فالذى ينفع نفسه ينفع غيره بالضرورة .. أم هل تريد أن تنتسب الى مدرسة الجهل والحمق والطيش والشر والعمل على ما فيه ضررك وضرر الآخرين ، لأن من يضر نفسه ، لن يتورع عن ضرر الآخرين . ؟!

ان الصداقة مدرسة تقوم على الاختيار الحر ، فان أحسن المرء اختيار أصدقائه ، كانت مجالسه معهم نفعا لهم وللجميع ، وان أساء الاختيار ، فقد افسد حياته وحياة من يعاشرهم .. ويجب أن تعلم يابنى أن شفاء الجسد من أية علة ممكن ، ولكن شفاء النفس وطهارة الروح .. أمر صعب وعزيز المنال .. !!

اى بنى .. ان المجالس مدارس ، فاختر لنفسك المدرسة التى تريد أن تنتسب اليها . ولكن أعلم — يابنى — ان الصالح بفيد نفسه والآخرين .. اما الطالح فسوف يعكر حياة نفسه قبل أن

يعكر حياة الآخرين .. واعلم ان عاقبة الخير خير ، وان عاقبة الشر شر مثله .

وصدق رسول الله حين قال فى حديث ما معناه :

« مثل الجليس الصـــالح والجليس السوء ، كبائع المسك ونافخ الكير ، فبائع المسك اما ان تشترى منه ، او تشم رائحة طيبة ، ونافخ الكير اما ان يحرق بدنك او ثوبك ، او تشم منه رائحة خبيثة .. !! »

الخنفشـــار .. ؟ !

قال الراوى :

يا سادة يا كرام ، صلوا على طه خير الأنام .. وبعد فان هذه طرفة من الطرائف ، رواها أحد المدرسين الذين تلقيت العلم على أيديهم — أيام كان المدرسون لديهم أشياء وأشياء ليقولوها لتلاميذهم ، لأنهم لم يكونوا يوما مشغولين بالدروس الخصوصية ، وغيرها من الشئون التجارية .

حدثنا هذا المدرس فقال انه كان هناك — فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان — معلم خفيف الظل ، أتاه الله بسطة فى الجسم وطول اللسان وحسن التصرف . وقد بهر تلاميذه ، لأنهم كانوا كلما سألوه سؤالا ، أجاب فى التو واللحظة اجابة تبدو لهم وافية شافية . لكنهم تعجبوا من علم ذلك المعلم ، فأرادوا أن يختبروا مدى صدقه فيما يقول لهم . فاتفقوا — فيما بينهم — أن يختار كل

واحد منهم حرفا ، ويشكلوا من هذه الحروف كلمة ، ثم يسألونه عن معناها . وكانت الكلمة التى اخترعوها هى كلمة « الخنفشار ».

وعندما دخل عليهم المعلم ، وقف أحدهم ســــائلا عن دلالة الكلمة ، فرد عليه مبتسما :

ــ هذا سؤال وجيه يا بنى ، وسوف تكون الاجابة عليه باذن الله اوجه . اعلم يا فتى أن هذه الكلمة من صحيح ما ورد ذكره فى معاجم اللغة وأحاديث الثقات ، وقد ذكروا فيما ذكروا عنها انها كانت شائعة فى القديم ، ثم قل استعمالها فى الحديث ، لأنها مرتبطة باسم نبات ، لم يعد موجودا بكثرة فى ايامنا ، ومن المعروف يا بنى أن التسمية مرتبطة بالمسمى . أما « الخنفشار » .. فهو نبات طيب الرائحة ، له ورق يهتز كأنه يضحك ، وثمر حلو طيب ، أطول قليلا من الخيار ، واقصر قليلا من القثاء . يكاد يجمع بين خصــائص الخضر والفاكهة ، كأنه التفاح الأخضر ، أو التمر الأزهر . وقد ورد ذكره فى شعر بعض الشعراء ، ولله در من قال :

قبل ان « يؤلف » المعلم بيت الشعر ارتجالا على السليقة ، انفجر التلاميذ ضاحكين ، ولم يستطيعوا أن يخفوا ضحكهم ، أو أن يخفضوا صوتهم . ومن العجيب أن المعلم فهم سر ضحكهم ، لكنه لم يغير من عادته معهم . !!

كلما تذكرت هذه الطرفة ، تذكرت « صنفا » من البشر ، على شاكلة ذلك المعلم « الفشار » . وهذا الصنف نجده كثيرا فى الجلسات الأخوية والأسرية ، وقد يشـــيع جوا من الاستئناس والبهجة ، بما يحكى من قصص ونوادر حقيقية أو مؤلفة .

ولكن الأمر يدعو الى الأسى والأسف ــ أحيانا ــ حين يحاول

امثال هذا « الصنف » من البشر ، أن يتخذوا من الكذب « اسلوبا » مطروا فى التعـــامل مع الناس .. وما يزال يكذب .. وينمق الكذب .. حتى يعرف عند الناس بانه « كذاب » . ومأســـــاة « الكذاب » أن سقطته المدمرة لهيبته — فى نظرى — تأتى من أنه يكذب ويتكلم ، ويحاول أن يلفق الأخبار والأحاديث ، وينسى أن للناس عقولا تقيس بها كل ما تسمع ، وتفكر بها فى كل ما يقال .

يا صديقى .. ان الكلام نطق .. والنطق لابد ان يكون له « منطق » .. واذا كان المتكلم مجنونا ، فينبغى أن يكون المستمع عاقلا .. عاقلا .. عاقلا .. !!

وهنا أدرك الراوى الصباح .. فسكت عن الكلام المباح .. !!

كل بلاء النـاس .. !!

الحياة .. لا تتحقق .. ولا تسير ، الا بالعـلاقات الطيبة والمعاشرة الحسنة . وخير الناس وأفضلهم الموطئون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون .. كما أن شر الناس وأسوأهم ، الذين لا يحبون الناس ، ولا يحبهم الناس ، لأن حب الناس سر من أسرار ملك الناس .. اله الناس ، ولا يعطيه لكل الناس .

وقد أسعدنى الله بصفوة من الاصدقاء والمعارف ، استأنس بهم ، واسعى الى لقائهم ، كلما وجدت عندى أو عندهم فرصـة للقاء . وعندما نلتقى نتطهر سويا من كل ما فعلته الايام فينا ، ونخرج فى فرح ، كأننا خلقنا من جديد .. أنقياء .. مقبلين على الحياة بقلب مفتوح وذهن يقظ . الحياة بلا رفقة صالحة ، جحيم لا يطاق .. !!

ومن لوازمى فى شروط الصداقة وحسن العلاقة ، أننى لا

اقبل ما بين الأبيض والأسود من الوان خافتة باهتة .. تماما حب ومودة .. واما بعد وهجر . وقد انست حينا من الدهر الى واحد من الاصدقاء ، كنا نلتقى عنده مرة كل فترة ، نتحدث — مثل كل المثقفين — فى الشئون العامة والخاصة للوطن والأمة ، ونبحث عن طريق للخلاص من كل ما نعانى منه . بالمعاشرة اصبحنا صفوة مختارة ، ، يعرف كل منا الآخر ، ويقدر وجهة نظره فى الفكر والحياة . وصار مجلسنا وجبة انسانية وثقافية دسمة ، نحرص عليها كلما جاء الموعد .

ونجأة تعكر صـــــفو هذا المجلس الجليل . وقاطعت ذلك الصديق العزيز ، لأن واحدا من اعضاء المجلس احضر احد معارفه ذات مرة .. ثم تكررت المرة تلو المرة . ولا بأس ان يضيف الانسان الى معارفه اسما جديدا ، اذا كان المسمى جديرا ، تأملت ذلك الوافد المتطفل ، فرأيت الله قد أعطاه بسطة فى الجسم — كأنما الله جلت قدرته اراد ان يخلقه ثورا ، ثم عدل عن ذلك فجاء المخلوق فى منزلة بين المنزلتين ، وان كان اصحاب كلتا المنزلتين يستنكرونه فى آن واحد . ثم تأملت بعد ذلك وجهه ، فتذكرت نادرة «الجاحظ» ، حين طلبت منه امراة ان يتبعها الى السوق ، ثم وقفت عند صانع خواتم وقالت له مثل هذا .. ثم انصرفت . فسأل الجاحظ الصانع عن أمر تلك المراة . فقال له انها طلبت منه أن يصنع لها خاتما على هيئة الشيطان . فذكر لها انه لم ير الشيطان ، بحيث يستطيع أن يصوره . فقالت لى انتظر ، وسوف أجيئك به . !!

كان هذا الطفيلى يثرثر فيما يعرف ولا يعرف ، لأنه كثير الادعاء عظيم الغرور ، ويصر على أن يفتى فى كل الأمور — وهو اجهل من دابة واعجز من نملة . واذا تكلم هيىء لسامعه انه بلع ضفدعة .. لكنها وقفت عند بلعومه ، تسح ماء ونقيقا ، لم يسمع

من قبل لبشر . واخص خصائصه والزم لوازمه الغيبة والنميمة ، وبذر الاشاعات .. خاصة اذا كان من يتحدث عنه غير موجود . قلت ياسبحان الله .. ان هذا المخلوق المنتفخ حقدا .. وشرا ، يؤكد قوة العلاقة بين المضمون والشكل !!

حاولت بعد ذلك أن التقى بالصديق الذى نتقابل عنده ، وحذرته من امر ذلك الطفيلى المتطفل . وقلت له ان للمجالس آدابا — لا يحسنها الا من هو مؤهل لها . وهذا الرجل سوف يفسد صفو مجلسنا ، ويقطع روابط علاقاتنا . لأن شخصا واحدا فاسدا يعكر المحيط الهادى كله .. !! لكنه بسماحته المعهودة — ومن السماحة ما يفقع المرارة !! — لم يهتم بالأمر . فقررت أن اقاطعه فى هدوء . الصداقة اختيار ..!!

مضت على تلك الحادثة عدة شهور ، التقيت بعدها بصديق مشترك ، فسألنى عن سر مقاطعتى لصديقنا فقلت له :

— لا اقعد فى مجلس ، يؤكل فيه لحم الأحياء ، وتطلق فيه قذائف الاشاعات على الأبرياء ..

فرد على : وما ذنب صديقنا فى هذا ؟!

فأجبته مستنكرا : كيف تعفيه من المسؤولية ، وهو الذى سمح لذلك الطفيلى المنتفخ ، ان يعكر صفو ملجسنا الكريم ، الذى كنا نتحدث فيه فى أمور جادة بأسلوب راق ولسان عفيف . ينبغى أن تعلم ياصديقى أن من يتحدث اليوم امامك عن غيرك ، سوف يأتى عليك الدور غدا أو بعد غد .. ويتقول عليك مثل ما تقول على غيرك . فمن نقل اليك ، نقل عنك .. !!

من اجل هذا كله قاطعت صديقنا ، لأنه المسؤول عن فساد

مجلسنا وتفرق شملنا ، حين سمح لذلك الشخص الغريب ان يوجد بيننا .. وما اذكره اليوم تعبير عن حكمة نطق بها شاعر عربى قديم ، حين قال :

ومن يربط الكلب العقور ببابه
فكل بلاء الناس من رابط الكلب

ايها السادة :

لا تلوموا الكلاب المسعورة حين تنبح بغير سبب ، أو تعض دون ذنب ، وانما اللوم كل اللوم على من يربط الكلب بباب داره ، ويتركه ــ مسعورا ــ يعتدى على خلق الله .. !!

صناعة النجوم ..
وتحطيم الأقمار

ظهر فى بعض البلاد المتقدمة تكنولوجيا وحضاريا ضرب جديد من ضروب المعرفة الانسانية اسمه «فن صناعة النجوم» . فالنجم (Star) ــ الذى قد نفاجأ به فى مجال السياسة أو العلم أو الفن أو الرياضة أو السينما ــ يظهر فى لحظة موقوتة .. ومحددة علميا ، فيشد الانتباه ويبهر الأنظار .

ولكن هذا النجم الباهر ــ المبهر ، لم يظهر هكذا فجأة ، كما قد يتراءى للبعض ، لكنه أخذ فترة تكوين وتدريب طويلة .. شاقة ، خضع خلالها للدراسة والاعداد حتى استوى عوده ، وحقق كل المهارات المطلوبة للمجال الذى سوف يمارس نشاطه فيه .

فمثلا نجوم الرياضة عندهم يبدأ اعداهم فى سن الخامسة ، ويظل الطفل المختار خاضعا للتدريب الى سن العشرين تقريبا .

ففى رياض الاطفال .. والمدارس الابتدائية والاعدادية — وما فى مستواها — يقيمون وزنا كبيرا لحصص الهوايات والرسم والاشغال والموسيقى ، حتى يكتشفوا فى سن باكرة أصحاب المواهب ، ويتعهدوهم بالرعاية والعناية ، لانهم يكتشفون « القدرات الخاصة » لدى الطفل — وهو لما يزل فى السن صبيا ، لذلك يبدأ صاحب الموهبة الخاصة — منذ الصغر — فى الاعداد لما هو ميسر له ، حتى اذا جاء موعد نضجه ، ظهر امام الناس فجاة نضرا مشرقا .. متمكنا .. عارفا .. واعيا بدوره .

وقل نفس الشىء لمن تظهر لديه ملامح النبوغ فى العلم أو السياسة او الفن . هكذا صار اعداد البشر « صناعة » من الصناعات ، أو « فنا » من الفنون .. أو « حرفة » ، تقوم على الدراسة والتاهيل والتدريب ، فالعبقرية اذن تقوم على قدر من « الموهبة » الفطرية ، التى يودعها الله — سبحانه وتعالى — فؤاد من يصطفى من عباده . بيد أن جزءا كبيرا .. ومهما من هذه العبقرية الانسانية ، أصبح يعتمد على الوسط الاجتماعى والبيئة التربوية التى ينشأ فيها . وقد وصل الأمر الى درجة ان من يريد أن يصبح مرشحا لمنصب سياسى مهم وخطير مثل رئاسة حزب .. أو قيادة دولة ، أن يكون لديه جهاز فنى اختصاصى .. وآخر اعلامى — يساعدانه على الوصول الى ما يريد . ونفس الشىء أيضا يحدث مع نجوم الفن والرياضة .. !!

هكذا تتم صناعة (النجم) المشهور فى البلاد المتقدمة ، لأنهم يؤمنون أن الفرد العبقرى يضيف رصيدا حضاريا الى بلده وامته ، لهذا يقدمون الكثير والجليل من اجل زيادة رصيدهم فى مجالات العلم

والمعرفة والنشاط الانسانى ، من أجل أن تحافظ بلادهم على دورها الحضارى المتقدم .. !!

هذا هو — باختصار — قدر مما يحدث فى بعض البـــلاد المتقدمة ، واذا ما نظرنا الى بلادنا العربية والى كثير من الدول النامية ، التى تقع فى دائرتها المحكمة — شئنا أم أبينا .. ؟! — نجد الصورة قاتمة والوضع مختلا .. أو مختلفا على الأقل .. فأساليب التربية والتعليم ومؤثرات البيئة وظروف الواقع ، تكاد لا تساعد — البتة — على اكتشاف أية موهبة لدى الفرد ، بل تكاد تطمس ما قد يوجد لدى الصبى أو الشاب من مواهب . كما نجد ان الأسرة والمدرسة كلتيهما تنظران شذرا الى التلميذ الذى يمارس هواية ، مثل الرياضة أو الرسم أو الموسيقى أو الكتابة الأدبية .. أو حتى القراءة الحرة ، وتريانه ولدا (خائبا) مقطوع الرجاء ، يضيع وقته فيما لا يفيد ولا يجدى .. !!

يؤكد ذلك اننا لم نسمع ذات مرة عن ولى أمر أعطى ولده درسا خاصا — رغم كثرة الدروس الخصوصية فى بلادنا — فى الرسم أو الموسيقى أو الكتابة الأدبية . أو شجعه فى مجال الابتكار العلمى ، أو اشترى له بعض اللعب — التى تفتح ذهنه وتفتق مجال نبوغه ، أو أحضر له آلة موسيقية يحبها .. أو شجعه على الغناء أو الرياضة .

كل ذلك معناه أن العظيم .. أو الناجح .. أو .. العبقرى أو النابه — فى بلادنا — يعتمد على (نفسه) فقط لا غير ، ويظل يحفر فى صخر الواقع وصحراء الحياة الى أن يعد نفسه ويكون ذاته . وعندما يكتشف هذه الذات ، قد لا يلقى أية مساعدة ، ولا يحظى بأى تشجيع ، بل ربما وضع الكثيرون فى الطريق — أمامه — العقبات والصعوبات — ان لم يصل الأمر الى الحرب والهجوم

والتشكيك فى القدرات — أحيانا . ومعنى هذا كله أن العبقرى فى بلادنا قد تخطى الكثير والكثير الى أن يعترف به ، ويلفت النظر الى مجال تفوقه .

ومن العجيب أيضا أننا لا نهاجم العباقرة فى حياتهم فحسب ، وانما نظل نطاردهم — فى بعض الأحيــــان — باللعنة والنكران والجحود ، حتى بعد وفاتهم بآلاف أو مئات .. أو عشرات من السنين ، لا نرعي فيهم الى ولا ذمة . ومن الغريب أيضا أننا نتجرأ على عظمائنا السابقين واللاحقين فى كافة المجالات تقريبا ، أى أننا نطلق الرصاص — أحيانا — دون وعى مسؤول على أعلام ماضينا .. وحاضرنا .. كأنما نستكثر على عظمائنا عظمتهم أو على أمتنا ثرائها ورجالها ، وبدلا من الاحتفاء بهم ننبش قبورهم ، ونمزق أكفانهم موتى .. وبدلا من تكريمهم وتبجيلهم أحياء يرزقون .. نفتش لهم عن عيوب أو نقائص بالحق أو بالباطل . المهم أن نخفض (المرفوع) .. عوضا عن عجز محاولة الارتفاع مع الشهب المنيرة .

يا عباد الله .. اتقوا الله .. فى خلق الله ، واحترموا عظماءكم .. وقدروا نجومكم .. واعلموا أن قدر العظيم ثابت مثل صخرة ، لا تؤثر فيها قرون تيس .. !!

لحظــة ألمـا بين .. ؟!

ايها القارىء السعيد .. ذو الراى الرشيد :

كل عام وانت بخير فاليوم بدء العام الميلادى الجديد ، وحين جلســـت أكتب خواطرى فى تلك اللحظة ، هيىء لى انى أحس احساسا غريبا .. عجيبا .. انه احساس لحظة « ألما بين » .. لحظة ما بين الماضى والمستقبل .. وما بين الحزن والفرح .. وما بين الشباب والهرم .. وما بين الرغبة والرهبة .. وما بين التمسك بما فات ، والتطلع الى ما هو آت .. !! انها ــ بلا شك ــ لحظة رهيبة رغيبة فى آن واحد .. عندما نشعر اننا نودع عاما مضى وانقضى . ونستقبل عاما جديدا يظهر ويأتى . وقد يحس المرء بقدر من الفزع عندما يتأمل دلالة لحظة المابين بالحساب والارقام ، ثم بالوعى والمنطق !!

اما من حيث تأمل الدلالة بالحساب والأرقام :

فسوف نكتشف أننا قضينا من رصيد العمر ثلاثمائة وخمسة وستين يوما بالتمام والكمال . فى تلك الأيام السالفة رأى الانسان فصول السنة الأربعة ، وزوابع المطر ، وعواصف الريح ، ورقة النسمة ، وقسوة الرطوبة . كما مارس اعباء الوظيفة ، واسترخاء الاجازة وسعد بالمعارف والأصدقاء . وشقى بالخصوم والأعداء . على الجملة والاجمال عاش الحياة بكل ما فيها .. فالحياة مسرح كبير .. أو سيرك شهير .. لاتكاد تعرف فيه المتفرج من المهرج !!

ورغم زخم الأحداث .. وزحمة الأعباء فى أثناء مسيرة عام مضى .. فاننا نشعر ليلة الختام ، أن العام قد مضى سريعا ، وان فترة من العمر قد ولت .. ولن تعود أبدا .. !!

وعندما نتأمل الدلالة بالوعى والمنطق :

فسوف نكتشف أن مشاعرنا نحو ذاك العام المنصرم ، قد تبدو جد متناقضة . فقد نحزن لأننا ندرك ـــ واعين ـــ أننا مضينا « خطوة » فى سبيل أجل موقوت ، علمه عند عالم الغيب ، الذى لا يعلم سواه بأى أرض نموت !! وقد نحس الأسى والحسرة ، لأننا خضنا بعض معارك خاسرة ، أو شغلنا ببعض القضايا العبثية ، أو اننا لم نحسن الاستفادة بالزمان .. ولم نحقق شيئا ذا جدوى خلال عام طويل .. عريض .. عميق .. !!

وقد نشعر فى تلك اللحظة « ذاتها » ـــ بالفرحة والنصر ، لاننا حققنا بعض المكاسب .. أو انجزنا بعض الاعمال .. أو فعلنا شيئا ما ـــ أسعدنا .. أو أسعدنا من يلوذ بنا من قريب أو بعيد . !!

انها الحياة يا صديقى :

لهو وجد ، وسرور وحزن ، ولقاء وفراق ، وميلاد وموت . !!

فالحياة عملية رياضية معقدة : فيها جمع وطرح وضرب وقسمة مطولة . لكن المهم هو .. المحصلة النهائية لكل هذه الرحلة المركبة .. والنتيجة النهائية ماذا عسى أن تكون .. ؟! بمعنى آخر (+ — × = ؟!) .. أى ما النتيجة التى صارت تساوى (=) عاما فى عمرك ؟!

بالطبع لا يعنينى — ولا اظنه يعنيك ايضا — ان تكون النتيجة التى نبحث عنها هى : المكسب المادى، أو تحقيق نصر زائف بأسلوب غير شريف .. !! لكن النتيجة التى تهمنى — واظنها ايضا تهمك — هى راحة الضمير .. !!

ولا ريب أن راحة الضمير تتحقق — ياصديقى — حين تقعد أنت وحدك ، وتحاول أن تختلى بنفسك — خاصة فى ليلة فارقة بين عامين .. ولحظة عاصفة بمشاعر الما بين — وتشهد الله على عملك وكيف أديته ، ومن سلوكك وكيف شكلته ، وعما ائتمنت عليه ، وماذا فعلت فيه ؟ هذه الاسئلة وأمثالها اذا ما سألها الانسان لنفسه . وأدرك عند الاجابة عنها انه كان فى كل ما فعل مراقبا ربه .. وطاهرا قلبه .. فانه عندئذ .. وعندئذ فقط ، يحس معنى راحة الضمير . !!

ولاشك ان راحة الضمير — ان تحققت — هى التى تعطى الانسان وردة تفاؤل وبسمة رضى ودفعة امل .. فى بدء عام جديد !!

واذا ما أحس امرؤ انه لم يحقق لنفسه راحة الضمير ، فليبك على خطيئته ، ويندم على ما فاته ، ويحاول أن يصحح مسيرته فى العام القادم .. فكل ابن آدم خطاء .. وخير الخطائين التوابون،

الذين يعاهدون الله العليم الخبير ، وينوون توبة نصوحا ، على ما فرطوا فى حق الله ..وحق الناس .. وحق النفس !!

بهذا وحده ـــ ياصديقى ـــ يكون عامنا القادم افضل من عامنا الماضى .. وبهذا وحده ـــ نحقق لمجتمعنا العدل والسيادة .. ولأنفسنا الخير والسعادة .. ولاخواننا الفضل وزيادة .. !!

ايها القارىء السعيد .. ذو الراى الرشيد :

مرة اخرى .. كل عام وانت بخير .. ودعاء الى الله سبحانه وتعالى : ان يجعل اليوم افضل من الأمس ، والغد أسعد من اليوم ، وان يوفقنا الى طريق الحق ، والعدل ، والخير ، والرشاد .. وإن يجنبنا مشاعر لحظة رهيبة رغيبة ، لحظة المابين ، حين يدرك المرء انه بين مخافتين : بين اجل قد مضى .. لا يدرى ما الله فاعل به ،و عمر قد بقى .. لا يعلم ما الله صانع فيه . !!

يا صــــاح ..
ما هــــذا الخبر .. ؟ !

قراءة الجرائد والمجلات اصبحت اليوم « عادة حضارية » ، لا يستغنى عنها انسان مثقف . ولكن القراءة بقدر ما هى ضرورة فكرية ، الا أنها تسبب للانسان بعض مشـــــاعر الحزن والألم ــ بنفس القدر ايضا .. وربما أكثر أحيانا . ولا شك أن المواطن العربى من أشد البشر تعرضا لهذه المشاعر الحزينة ، اذ نفاجأ فى كل حين بكثير من الاخبار المؤلمة .. أو المؤسفة .. على كافة المســـتويات . والعجيب أن منطقتنا العربية على نحو خاص تبدو «مستهدفة » ــ أو مخترقة ــ بشكل .. أو بآخر . فالاعداء كثيرون .. وحيلهم ماكرة .. وأساليبهم خبيثة .. ووسائلهم علمية ــ حديثة الصنع . والأعجب من كل هذا هو أننا ــ أحيانا ــ لا نجيد الربط بين ما تقع فيه كل بلد من بلادنا ، وننسى .. أو نتاسنى .. أن « عدونا » واحد ، مهما اختلفت أسماؤه ، وتعددت أساليبه .

وليت الأمر اقتصر على مصائب الأعداء فحسب بالنسبة لنا ،

ولكن الطبيعة نفسها تصيبنا — أحيانا — ببعض الكوارث غير المتوقعة مثل التصحر والجفاف .. أو الفيضانات والسيول .. أو الزلازل .. أو بعض الامراض المعدية .. أو بوار بعض المحاصيل الاســـاسية . وآخر ما ابتلينا به هو « غزو الجراد » ، لبعض البلاد العربية فى افريقيا وآسيا على حد سواء . وقد انتشر هذا البلاء فى كثير من بلادنا العربية بدرجة خطيرة ، ووردت أنباء عن اسراب ضخمة من هذه الحشرات ، التى تلتهم المحاصيل الزراعية فى المغرب ، وفى اجزاء من الجزائر وليبيا ، والسودان .. ثم عبرت البحر الأحمر ، لتصل الى المملكة العربية الســـعودية ، وسلطنة عمان ، والامارات العربية والكويت .

وقد تأكدت هذه الاخبار المؤســـفة عن طريق « التنبؤات الجوية » ، التى ينقلها القمر الصناعى .. !!

وقد حزنت كثيرا لهذا النبأ المؤلم .. ودعوت الله من كل قلبى : ان يحمى هذه الأمة الصابرة الصامدة من كل أذى وشر . !!

وقد ذكرتنى هذه الأنباء المحزنة بقصيدة حول هذا الموضوع نفسه ، درستها .. وحفظتها فى مرحلة الدراسة الثانوية . وهذه القصيدة ، التى تعد من شعر « المناسبات » الاجتماعية .. يصور فيها الشاعر ويسجل كارثة غزو الجراد لمصر فى اثناء حكم محمد علي (سنة ١٢٥٩ هـ) . اما الشاعر الذى كتب هذه القصيدة فهو الشاعر « على الدرويش المصرى » (١٧٩٥ — ١٨٥٣) .. وهو شاعر مطبوع ، تعلم فى الأزهر الشريف . وكان كما يقول عنه أحد تلاميذه « مقدما بين جهابذة مصره ، محترما بين اساتذة عصره » ويبدو انه أدرى منذ شبابه أن « صناعة الشعر لا تطعم خبزا » !! فترك القاهرة ، ورحل الى محافظة « الشرقية » للعمل بالزراعة . كما يبدو — من ديوانه — انه عمل ايضا فترة فى التجارة ، وتنقل بين الوجه البحرى ، والوجه القبلى « الصعيد » .

وقد جمع أحد تلاميذه ما بقى شعر أستاذه ، وقدم له قائلاً :
« هذا جزء صغير ، وشىء يسير ، حصلت عليه ، ووصلت اليه ، من صناعة وحيد دهره ، وبراعة فريد عصره .. جمعته تحفة لكل أريب ، وجعلته ذكرى حبيب . وقد رتبت بديع صنعه ، وهذبت سريع جمعه ، وسميته بتاريخه الاشعار بحميد الأشعار . »
(يلاحظ ان عنوان الديوان بتاريخ الجمل ، يساوى سنة وفاة الشاعر وهى (١٢٧٠ هـ) .

وأما القصيدة التى صور فيها على الدرويش غزو الجراد ، فهى موجودة فى ديوانه سالف الذكر (ص ١٧٢) ، ونكتفى هنا بمطلعها الذى يقول فيه :

يا صاح : ما هذا الخبر ؟
قال : الجراد هنا انتشر
قلت : الجراد ، فقال : اى
تدرى الجراد ، اذا ابتدر
قلت : استعذ بالله قا
ل : وهل من المقضى مفر
ما كان قط بخاطر
فى خاطرى هذا الخبر

ونعود مرة أخرى الى ما بدأنا به لنردد مع الشاعر انه ... « ما كان قط بخاطر ، فى خاطرى هذا الخبر » ، ونأمل أن تتدارك الجهات المسؤولة هذه الكارثة ، وتعد العدة للقضاء عليها . كما أننا ندعو الله مخلصين .. قائلين :

اللهم قنا من البلاء ما نعلم .. ومالا نعلم .. وما أنت به اعلم .. انك انت الأعز الأكرم .. !!

احـــزان «ابـــو الهـــول»

ما أحلى طعم العشق .. حين يتحول الى قيمة خاصة بك انت وحدك .. وما انا عاشق له ، ومغرم به ، هو التراث الحضارى للبشرية ، حالة كونه ممثلا ـ على نحو خاص ـ فى الآثار المعمارية، التى تؤكد عظمة الانسان على مر العصور .. !!

وفى احدى جولات العشق وحالات الصبابة ، قادتنى قدماى الى منطقة الاهرام ، التى احب كثيرا أن اشاهد فيها لحظة شروق الشمس او غروبها ــ تلك اللحظة الرغيبة/الرهيبة ، حيث قرص الشمس الذهبى ينشر اضواءه الحانية على الكون ، ويحتضـــــن الاشياء والأحياء فى مودة ، بينما عصافير النهار تصارع صقور الليل . انها لحظة للموت والميلاد فى آن واحد ، وما أسمى أن تدرك دلالة الحيـــــاة والفناء فى تلك اللحظة . عندئذ قد ندرك بعض اســـــرار الحكمة ، ومن يؤت الحكمة ، فقد أوتى فهما ، لا يدركه احد .. !!

فى لحظة العشق عند الشفق ، أحب ـ دائما ـ أن أكون وحدى .. أحدث نفسى .. او اكلم مظاهر الطبيعة من حولى ، حتى اطهر الروح من كل ما قد أكون فيه من قلق أو ضيق . وعند « أبى الهول » ـ على وجه التحديد ـ يحلو لى المقام جلوسا ، فأنظر معه الى الأفق القريب البعيد ، وأستمد من شـــموخه بعض معانى الكبرياء ، واستلهم من صمته دلالة الخوف والرجاء ، فيما يشغل النفس من أمور الحياة والأحياء .

ذهبت اليه بفرحة صديق قديم ، تربطه بصـــديقه مواقف تاريخية لا تنسى ، وأقبلت عليه ـ كعادتى معه ـ أكلمه .. وأسمع منه ، فخير الكلام ما كان صمتا ، واصـــدق الحديث ما تبوح به العيون ،و تعبر عنه قسمات الوجوه . اقتربت منه وكلى شوق اليه. لم أعبأ بحركة السواح والزائرين ، ولم أبال بما يدور حوله من حركة المتجولين ، فأنا أعرف ـ دوما ـ طريقى . وصلت الى صخرة الملتقى ، وشرعت اتأمل صديقى فى مودة ، بعد أن طالت أيام البعد والفراق . تعانقنا على الوجد . وتعاتبنا على البعد . وحين هدأت المشاعر ، واستقرت الخواطر ، نظرت اليه مستنكرا ماحدث له . فى عصر سابق كان رابضا شامخا مثل الغضنفر يتحدى الزمن ، لكنه اليوم قد ظهرت عليه أعراض الألم وآثار الهرم .

ياسبحان الله ماذا حدث لك يا صديقى ؟!! اقتربت أكثر .. فأكثر .. فأزعجنى مشهد عملية الترميم ، التى تجرى لاعادة الحجر، الذى سقط الى مكانه فى الكتف . بلغة عصرنا هيىء لى أن أبا الهول فى « غرفة الانعاش » .

ـ آلافا مؤلفة من السنين مرت عليك ـ ياصديقى ـ وأنت صامد شامخ ، فما الذى جعلك تضعف وتنهار فى هذه الأيام ؟!

اشار لى بلفتة سريعة ، طالبا أن أدنو منه ، حتى لا يسمع أحد ما يدور من حوار بينى وبينه ، واقسم انه لولا « العشرة » الطيبة التى بيننا ما صرح بشىء على الاطلاق . سعدت بهذه الميزة، التى حبانى بها دون كل أصدقائه — وهم كثيرون بلا ريب !! عندما اقتربت منه رأيت الحزن فى عينيه أنهارا ، والقلق فى صفحتى وجهه أشجارا . قلت مازحا — كى أنسيه ، بعض ما هو فيه :

— لم أنت حزين يا صـــديقى ، وقد فتح الله عليك فتوح العارفين .. وتلك مواسم السياحة تكاد لا تنتهى صيفا أو شتاء من بلاد الغرب واقطار الشرق ؟! لا ريب انك قد كونت ثروة لابأس بها تعينك على أن تستعيد بعض مظاهر شبابك ، أو على الأقل تساعدك على أن تقضى شيخوخة مريحة دون ازعاج . !!

قهقه أبو الهول ساخرا من قولى ، بدرجة حسبت فيها أن ضحكه يصل الى منطقة الخليج وبلاد النهرين ، ويسمع عند كل أبناء الوجهين . وقال : لن تصدقنى ..

— لماذا .. ؟!!

— لقد استطعت — بحمد الله — ان اجمع ثروة لابأس بها من السائحين ، الذين يفدون من كل فج عميق . وقد سعيت بواسطة بعض المعارف المخلصين — الذين أخلصوا فى النصح بقدر ما قدمت لهم من هدايا — الى تحويل ما حصلته من عملات سهلة وصعبة الى نقد أمريكى ، لأنى أعرف مكانة « الدولار » فى بلادنا ، ومكانة الأمريكان عند أهل زماننا !!

— وماذا بعد ؟

— قلت لنفسى : لابد أن أســـتثمر هذه الأموال استثمارا عصريا — يتلاءم مع حالة « المودرنزم » (Modernism) ، فقد ولى

عصر السلطان عبد الله شحاتة ، الذى كان الناس فيه يضعون الأموال « تحت البلاطة » !!

ـــ فكرة صائبة .. فى اى بنك وضعتها اذن ؟

ـــ لا بنك ولا يحزنون يا رجل ، لقد وضعتها فى احدى شركات توظيف الأموال . وقد جاءتنى بعد الايداع مباشرة « شهادة » مزخرفة ، بحبر مثل ماء الذهب مزركشة ، تثبت حقى فيما جمعت ، وتحصى ارباحى فيما استودعت ، وتخيرنى بالنسبة لحصتى فى الربح : اما أن تضاف الى راس المال ، أو الاستلام نقدا ، أو شراء أشياء « عينية » من السلع المعمرة او الاستهلاكية التى تنتجها الشركة .

ـــ عظيم .. لقد خيرت .. فما عساك اخترت ؟!

ـــ اغرانى الطمع بان أطلب اليهم اضافة الربح الى راس المال .. ليكون ربح « البركة » !!

ـــ اذن .. فأنت « غنى سياحة » !!

ـــ لا .. لم تتم الفرحة يا صديقى . فقد أعلنت الشركة افلاسها ، حتى الرجل الطيب صاحب اللحية البيضاء والمسبحة الصفراء مفتى الشركة ومستشارها الاعلامى ـــ الذى دلنى عليها فى البداية ـــ قال لى حين شكوت اليه : أنت رجل مؤمن ، والمؤمن لا يقبل العوض من مخلوق ، وانما من الخالق سبحانه ، وأعلم أن ما عندك ينفد ، وما عند الله باق .. !!

لم استطع أن اتبين ـــ فى ظلام ليل مقبل ـــ مدى عظم احزانه .. وقسوة آلامه . تملكنى الغيظ .. واستبدت بى الأشجان والأحزان ، لكن ماذا افعل لك .. وللبائسين امثالك يا صديقى ؟!

اخذت امعن النظر اليه .. وانعم البصر فيه . لست أدرى ماذا اقول له على وجه التحديد : هل اعزيه فى حسن نواياه وشـــدة طيبته ، ام الومه على غفلته وفرط سذاجته ؟! يقولون يا صديقى : « ان القانون لا يحمى المغفلين » !! ولكن القانون نفسه هو الذى سمح لأولئك الأفاكين أن يؤسسوا شركات « وهمية » تأكل أموال الناس بالباطل !!

حاولت ان ابتلع ريقى الجاف .. وأحسست أنى كالمستغيث من الرمضاء بالنار . لقد جئت أشكو اليك ياصديقى بعض ما بى ، فاذا ما عندك من هموم تنوء بحملها الجبال الراوسى . لا فائدة ترجى من كلام .. أو لوم .. او حسرة ، لأن السهم قد نفذ .. والصبر قد نفد !!

افــواه .. بلا رصــيد

قرأت — حديثا — خبرا غريبا من مئات الأخبار الغريبة ، التى تنشرها صحافتنا العربية دون أن نقيم لها وزنا كبيرا . هذا الخبر الغريب — رغم انى أدرك فحواه — نزل على نزول الصاعقة . ولست أدرى كيف يمر أمثال ذلك الخبر ، دون أن نعلن ناقوس الخطر ، ونصيح : أيها الناس اما أن تنتجوا .. أو تموتوا جوعا !!

ذلكم الخبر الغريب هو أن دراسة صادرة عن قسم الدراسات والتوثيق بمنظمة اليونسكو بباريس تحت عنوان : « المنطقة العربية على مشارف عام ٢٠٠٠ » ، تذكر أن « فاتورة » الاستيراد الغذائى فى العالم العربى ازدادت عشرة أضعاف فى عشر سنوات بين ١٩٧١ و ١٩٨١ ، وتتراوح قيمتها بين عشرين الى اثنين وعشرين مليار دولار . وهذا يعنى أن العالم العربى كله ، من المحيط الى الخليج ، فى موقف لا يحسد عليه فى مجال الزراعة والغذاء .

ومما يلفت النظر بأسى وحسرة فى هذا التقرير ، أن بعض الدول العربية التى تعتمد على الزراعة مثل مصر والسودان ، تأتى فى مقدمة هذه‌الدول المستوردة للغذاء . ومما يزيد الجرح نزيفا ، أن أن هذه الدراســـــة تتوقع أن تطرد قيمة الفاتورة ، ويزيد حجم الاستيراد ، بسبب زيادة عدد السكان فى بعض البلاد ، ولاسيما مصر ، التى يزداد عدد السكان فيها سنويا بحوالى مليون وثلث المليون نسمة تقريبا .. !!

هذا هو الخبر الغريب ، الذى أدمى قلبى ، وشرخ فكرى ، وهز كيانى من الاعماق !! ان المنطقة العربية كلها ، رغم وفرة مافيها من : ثراء مالى ، ووفرة فى الأيدى العاملة ، واتساع مساحة الأرض الصالحة للزراعة ، لدرجة ان أرض السودان وحدها لو توفرت لها الامكانات المطلوبة ، لسدت حاجة الوطن العربى كله من القمح .

هكذا وصل بنا سوء الحال الى درجة أصبحنا فيها عاجزين ، حتى عن توفير الغذاء لأهلنا وذوينا !! يالسخرية القدر ، حتى الغذاء نحن فيه عالة على غيرنا . لقد تسامحنا فى استيراد السلاح وأدوات التكنولوجيا المختلفة ، ونظم التعليم ووسائل الثقافة !! اما ان نتســـامح فى اســــتيراد الخبز واللحم والجبن والمعلبات المختلفة ، فهذه ــ كما كان يقول أسلافنا ــ « ثالثة الأثافى » !!

ان الاستقلال « الغذائى » يشكل حرف (الالف) فى «أبجدية» كل أنواع الاستقلال الأخرى . وفى نهاية هذه الصيحة انبه الى ما اكدته دراسة « اليونسكو » بالنسبة لأهمية تشجيع التعاون

الزراعى بين البلدان العربية ، باعتباره ركيزة أساسية لمواجهة « تحديات المستقبل » . وما أكثر التحديات ، التى سوف يفجأنا بها المستقبل القريب والبعيد !!

انتبهوا أيها السادة ، وأبدءوا من الآن فى الاعداد لمشروع مستقبلى أخضر ، يحقق الاكتفاء الذاتى للمنطقة العربية كلها ، ويكافح غزو الصحراء .. واغتيال الأرض الخضراء .. ويسد بطون الفقراء .. واهم من هذا وذاك ، يحمينا من « العوز » المستمر للغرباء .. !!

* * *

أيتهـا الدول الناميـة ..
عليـك رحمـة الله .. !!

عقد منذ فترة بمدينة « رشيد » التابعة لمحافظة الاسكندرية مؤتمر علمى ، أسهم فيه بعض المتخصصين فى الطب وعلم الاجتماع لدراسة « سن الشيخوخة » .. متى يصل اليه الانسان ؟ وهل عندما يصل المرء الى سن الشيخوخة الافتراضى (٦٠) يظل قادرا على العطاء أم لا ؟ وهل يجوز أن يحال الموظفون والعاملون الى المعاش .. أم يواصلون العمل والعطاء ؟ .. الخ ..

وقد انتهى بعض المشاركين فى المؤتمر الى نتيجة مهمة ، هى : ان سن التقاعد فى العالم ليس هو سن الشيخوخة بيولوجيا ، وتطبيقا لذلك فأن بعض دول العالم مثل الولايات المتحدة الامريكية قامت بالغاء سن التقاعد ، لأن تقرير سن محدد للتقاعد اجراء غير عادى ، لأن العبرة فى تحديد وقت التقاعد يخضع لعدم القدرة أو الرغبة أو كليهما ، وهذا أمر يحدده المسن نفسه — رجلا كان أو

امرأة ــ بحسب حالته الصحية والنفسية ، التى تحدد مدى قدرته على العمل والعطاء .

وانتقل بعد ذلك الى نقطة اخرى مهمة جدا فى أوراق هذا المؤتمر ، الذى يناقش قضايا الانسان بعد الستين .. أى بعد الوصول الى سن المعاش ، هذه النقطة هى أن الأبحاث العلمية تجمع على أن الانسان قد يصل الى سن متقدمة ، لكنه يظل فى تمام الصحة ، وقادرا على مواصلة العطاء والانتاج . وهنا يبدو الخطأ الذى نقع فيه حين نربط سن التقاعد بسن الشيخوخة .

ان الحقائق العلمية الثابتة تؤكد ان الانسان يمكن ان يبلغ عمره البيولوجى الحقيقى مائة وعشرين سنة .. اذا استطاع ان يتخلص من التلوث والأمراض ، وتهيأت له الظروف الاقتصادية والبيئية والاجتماعية المناسبة. كذلك يثبت التفاوت بين متوسط العمر فى الدول المتقدمة والنامية مدى صدق هذه الحقيقة ، حيث يبلغ متوسط عمر الانسان فى البلاد المتقدمة حاليا نحو (٧٦ سنة) ، بينما هو فى الدول النامية الفقيرة (٤٥ سنة) فقط لا غير .. بسبب الأمراض وسوء التغذية ، ومعنى هذا أن متوسط عمر الانسان فى البلاد المتقدمة يزيد عن الدول النامية بـ « ٣١ سنة » .. !!

حين ادركت هذه الحقيقة ، بقيت فترة طويلة مهموما مؤرقا ، لأن من عاداتى اليومية قراءة الجرائد والمجلات قبيل النوم. تحسرت وأسفت كثيرا على أحوالنا السيئة ، نحن ــ أبناء الدول النامية . فقد كنت اعلم أن الله ــ جلت قدرته ــ قد ابتلانا بمصائب كبيرة وكثيرة .. لكنى اضفت الى قائمة المصائب المعروفة مصيبة جديدة ، لم تكن معروفة ــ بالنسبة لى على الأقل ــ وهى مصيبة قصف

العمر .. والموت دون الخمسين .. أى فى ازهى مراحل الانتاج والعمل والعطاء .. !!

ولاشك أن هذه المصيبة الجديدة ــ يمكن أن تحل .. ويرتفع متوسط عمر الانسان عندنا ، لأن هناك علاقة طردية متوازية بين زيادة العمر والتقدم الاجتماعى والاقتصادى . ويكفى دلالة على ذلك أن نذكر ان متوسط عمر الانسان فى بعض الدول المتقدمة كان (٣٥ سنة) . وقد ارتفع الآن الى (٧٨ سنة) .. وهى زيادة مطردة وســــريعة نتيجة تطور بعض المجتمعات فى كل مجالات الحياة .

ان أخشى ما أخشاه ان يأتى يوم نفاجأ فيه باننا ازاء مجتمع بدون رجال .. فبلد ذو كثافة سكانية عالية مثل مصر ، نجد فيه أن نسبة من تجاوز الستين لا تزيد عن ٦٪ بينما نسبة الاطفال تبلغ ٤٠٪ . وهذا ليس حال مصر وحدها ، فمعظم الدول النامية تخضع للمعدل نفسه تقريبا .وهذا مازادنى غما على هم .. وهما على غم ، فأخذت أصيح :

أيها الأشقاء ــ الأعداء ــ البؤساء .. فى كل الدول النامية : البقاء فى حياتكم ، وليرحمنا ويرحمكم الله جميعا بواسع رحمته ، ويكشـــــف عنا من البلاء ما نعلم .. ومالا نعلم ، انه هو الأعز الأكرم .. !!

ويجمعنا اذا اختلفت بحـار ..!

حبى للطبيعة لا يعادله اى حب ، فأنا رجل كثير الأعمـــال والأشغال ، حتى عندما اكون خاليا ، وقد يحسب الناظر الى أننى ساكت صامت ، بينما خواطرى تبحثعن فكرة شاردة ، أو تتأمل قضية تتشكل فى مشروع جديد ، أو تخطط لعمل لم يولد بعد . وذات ليلة كنت متعبا .. مؤرقا .. فقلت فى نفسى : ليس سوى الكورنيش ونسيم النيل ، لكى يذهبا ما أنا فيه من تعب وملل . ان الطبيعة هى الأم الرؤوم ، لكل من ينشد الراحة فى عالم مزدحم، واخذت أمنى النفس برحلة ترويحية ونزهة خلوية ، لأننى أبحث عن مكان خال .. أو شبه خال .. بعيد .. حتى أكون وحدى وشاطىء النيل .. !!

أوقفت السيارة .. ونزلت قريبا من شط حلوان ، واخذت استنشق هواء بكرا بعيدا عن الزحام وغبار التلوث . نظرت على

الخضرة فى الشط الثانى ، وأنا أسبح بقدرة الله الذى خلق من الماء كل شىء حى . ازداد تعاطفى للفكر الرومانسى ، الذى احب الطبيعة خيالا وحقيقة . فنحن مع الطبيعة .. نستمتع دون أن ندفع .. ونتحاور دون أن ننطق .. ونتأمل بغير حدود .. ونسرح فى بحار بلا ضفاف .. !!

وبينما أنا هائم في استمتاعى بالطبيعة .. والهدوء .. ونسيم النيل .. وصمت الليل ، اذا بى اجد بقايا بطيخة ، اكل حلاوتها فى الهواء الطلق معجب ولهان ، لم يستطع أن يكبت هيامه بحمرة البطيخ وحلاوته .. فأكل واستمتع وترك القشر .. واللب .. وماتبعثر منه أذى وتنفيرا لعباد الله . تعجبت من حال ما يجرى عندنا فى الكورنيش والأماكن العامة ، حيث نمارس هوايات غريبة وعجيبة مثل : مص القصب وأكل الخس والبرتقال والموز . واخيرا اضيف البطيخ الى القائمة ، والبقية تاتى .. !!

وقد ذكرنى منظر قشر البطيخ على كورنيش حلوان ، بمنظر آخر على كورنيش الدوحة الجميل ، حيث وجدت وانا سائر عليه ذات مرة بقايا زجاجات فارغة شربها من شرب ، ثم ترك الزجاجات أذى وقذى لمن يأتى بعده .

لست ادرى لم نظن أن الأماكن العامة فى بلادنا العربية « قطاع عام » .. لكل فرد ان يعمل فيه ما يشاء ، حتى اكل البطيخ وترك القشر .. وشرب المياه الغازية ، وترك الزجات الفارغة . يا عباد الله لن نكون قوما متحضرين ، الا اذا اعتبرنا ان للأماكن العامة (حرمة) مثل حرمات بيوتنا الخاصة ، فنحافظ على هذه كما نحافظ على تلك . كما اتمنى أن اشهد يوما قريبا ، تكون العناية فيه بالأماكن العامة ، ليست مسؤولية الحكومة وحدها .. وانما

مسؤولية الأفراد والمؤسسات والشركات وأصحاب المحلات ، حيث يتطوع كل قادر على عمل شىء ما ، يجمل به المدينة التى يعيش فيها ، وينتسب اليها . فمن يأخذ عليه أن يعطى .. ومن يقدر عليه أن يمنح .. وافضل اشكال المنح أن تغرس زهرة .. أو تزرع شجرة .. أو تبنى مظلة .. أو تجمل ساحة . فمن تكن نفسه جميلة ، يتمن أن يرى كل شىء فى الوجود جميلا .. !!

عدت فى تلك الليلة حزينا مهموما ، وقد أجهضت فى نفسى مشاعر الفرحة والراحة . شىء واحد كان يلح على خاطرى .. منظر قشر البطيخ على شط حلوان ، والزجاجات الفارغة على كورنيش الدوحة . تمتمت دون أن أحرك شفة ، وانا أعود الى البيت :

ويجمعنا اذا اختلفت بحار ، كورنيش ذو طبيعة متقاربة .. وقوم أصحاب عادات متشابهة .. !!

الفـــرح أكـــلا .. !!

تربطنى ببعض العائلات والشـــخصيات القطرية صـــلة مودة وعلاقة صداقة ، حتى قبل أن أحضـــر للعمل ـــ أستاذا للأدب الحديث ـــ بجامعة قطر . وقد أدركت من خلال المشاركة فى كثير من المناسبات الاجتماعية ـــ فى قطر ـــ مدى وحدة الثقافة والمشاعر ، التى تربط بين البلاد العربية ـــ كافة ـــ برباط وثيق من الوحدة والاتفاق ، فى كثير من العادات والتقاليد والأعراف . وهذا التطابق المعرفى فى السلوك يعد من أهم ســمات العروة الوثقى ، التى توحد شمل العرب ، وتجعل منهم شعبا واحدا .. ظل محافظا على أواصر وحدته خمسة عشر قرنا ، ولم تستطع تقلبات الدهر .. ومصائب الدنيا .. أن تفك .. أو حتى تضعف من روابط هذه الوحدة .. !!

وقد حضرت منذ فترة قريبة ليلة عرس الصـــديق العزيز

(عبدالرحمن سلطان عبيدان) ، وقد وقفت ليلتها بجواره ، اتلقى معه ومع اقاربه تهنئات المهنئين ودعوات المباركين .

وبعد ذلك انتقل الجميع الى مأدبة العشاء الفاخرة ، التى اقيمت احتفالا بهذه المناسبة السعيدة . وحول (وليمة الطعام) الشـــهية ـ التى تتيه بما تحمل ـ من الوان الطعام والفاكهة والشراب ـ من كل ما لذ وطاب .. كنت احس أن فرح المهنئين بـ « الأكل » و « الكلام » ، لا يقل عن سعادتهم بـ « العرس » و « المعرس » .. !!

وبعد أن انتهت الليلة بخير .. وسرور ، ودخل الصـــديق العزيز (القفص الذهبى) ، عدت الى البيت ـ داعيا الله أن يوفقه فى حياته الجديدة .. مع أسرته السعيدة . وكانت مقاطع من (اغنية شعبية) تلح على ذاكرتى :

وعليك مبارك .. وعليك ســـعيد

ولكن الشىء الذى أرقنى فى تلك الليلة السعيدة هو اننا ـ نحن العرب قاطبة ـ نميل الى المبالغة فى الانفاق فى مثل تلك المناسبات ، فالطعام الذى قدم كان كثيرا جدا .. ولا احسب ان الموجودين اجمعين يأكلون نصفه ، أو ثلثه ، أو ربعه ، خاصة وأن الوقت مساء ، والوجبة عشاء .. !!

لست أدرى .. لم كل هذا الانفاق والبذخ والاســراف ؟! ولا شك أن هذه المظاهر تجعل (العرس) مطلبا عزيز المنال ، على كل شاب يرغب فى الزواج .. ويفكر فى اقامة أسرة .. وانشاء بيت . !!

وهذه المظاهر الاستعراضية بالنسبة للأفراح ، ليست قاصرة

على المجتمع القطرى فحسب ، وانما هى موجودة فى كل المجتمعات العـــربية تقريبا . ومما يدعو الى العجب اننا نعبر عن كثير من مشاعرنا فى بعض المناسبات بـ « الاكل » المسرف فى اعداده . فنحن فى الافراح نقيم الولائم .. وفى المآتم تعد الموائد طوال ايام العزاء . كما اننا نودع المسافر بـ « الاكل » .. ونستقبل القادم بـ « الأكل » ايضا . بل ان كثيرا من المناسبات الدينية مثل الأعياد وليالى شهر رمضان ، تتحول الى مسابقات فى الطعام والشراب ، وتظاهرات فى عمل مالا يعمل .. وطهو ما لم يكن يطهى . !!

ومن العجيب ايضا انه رغم حفاوتنا بالاكل واعداد الموائد ، فان هذه الموائد ـــ فى الغالب ـــ لا تعبأ بالأمور الصـــحية ، والنصائح الغذائية .. التى تدعو الى تنويع الطعام والاكثار من الخضروات والفاكهة الطازجة ، والبعد عن النشويات والدهنيات والحلويات .. وغيرها من قوائم (الممنوعات) من السفر الى مطار المعدة . !!

ان الكثير منا يدرك ـــ بلا ريب ـــ أن (حب الظهور يقسم الظهور) ، بيد اننا رغم ذلك (لا نقصر) ابدا فى أية مناسبة ، حتى لو اســتدان صـــاحب الشأن . ومنطقنا فى كثير من العادات الاجتماعية ، هو نفس منطق الشاعر البدوى القديم .. الذى كان يرى نفسه فردا فى قبيلة ، يدور حيث دارت ، ويتحرك أنى سارت .. وهو يقول :

وهل انا الا من غـــزية ان غـــوت
غويت ، وان ترشـــد غزية ارشد

أيها السادة .. أيها الفرحون أكلا .. أما آن لنا ، أن نغير بعض تقاليدنا .. التى قد تقف حائلا بين الشباب والزواج ـــ كما يقف سور الصين العظيم . !! واذا لم نستطع أن نغير تلك التقاليد المرهقة ، فاننا يجب ان نعدلها على الأقل بحيث تكون فى اطار معقول .. وحجم مقدور عليه .

ان كل شىء فى الحياة يتغير .. ويتطور . وينبغى أن نعدل كثيرا من مظاهر سلوكنا الاجتماعى .. خاصة ونحن على أبواب القرن الحادى والعشرين ، وشـــبابنا يعانى من أمور كثيرة .. ولا ينبغى أن تكون هذه المعاناة قائمة فى الليلة (الوحيدة) التى قد لا تكرر فى حياته .. !!

اللحمـــة ..
فقدت مصداقيتها .. !!

حكايتى مع اللحمة حكاية عجيبة .. ولكنها ليست غريبة على كثير من أمثالى .. ! فى صغرى كنت أترك الأهل ، وأعيش وحدى بعيدا عن القرية .. فى المدينة ، حيث المدارس والجامعة ، وقد استمرت رحلة الغربة والدراسة حوالى خمس عشرة سنة ، هى فترة الدراسة الابتدائية والثانوية والجامعة ومعهد التربية ، فى هذه المرحلة ـــ مرحلة الفقر والكفاح، والصبر والقراءة، كنا نتغذى على الطعام (العزابى) ـــ الذى يتكون فى الغالب من الفول والطعمية والجبن والحلوى الطحينية ، والخضروات مثل الجرجير والخس والخيار والطماطم . أما الفاكهة فكانت ترفا لا نعرفه .. ورفاهية لا تقدر عليها الميزانية المتواضعة . أما اللحمة فكانت حلما عزيز المنال ، لا نفكر فيها الا فى المناسبات السعيدة جدا ، وأسعد هذه المناسبات كانت أول كل شهر ، حين يصل الى كل منا ـــ نحن الطلبة الغرباء الفقراء ـــ مصروفة الشهرى .

يوم اكل اللحم — وما ادراك ما يوم اكل اللحم — كنا نقسم العمل .. مثل خلية النحل : هذا عليه شراء الاشياء من السوق ، وذاك عليه غسل الأواني والاطباق ، وآخر عليه اعداد المشتروات للطبخ، ورابع عليه عملية الطبخ نفسها. وبعد ذلك نلتقي — بفرحة — حول الطبيخ الساخن واللحم الجميل ، نأكل باشـــتهاء ولذة .. لا يهمنا أن يكون اللحم لهبر .. أو (ملبسا) يجمع بين الاحمر والأبيض .. أو أبيض .. أو يحتوى على قطعة عظم ، حتى العظم نفسه ، كنا نمصمصه حتى النخاع . يومها كانت للحمة فرحة لا تنسى .. ولذة لا تقدر .. ونشوة لا تزول .. !!

مرت الايام واصبحت اللحمة اكثر الفة في وجبات الغذاء بعد دخول (حضرتنا) عش الزوجية السعيد . وشيئا فشيئا بدأت الأمور تنفرج ، وازمات الفقر تتكشف .. ولكن اللحم الطازج .. والطيور البلدية ذهبت ، وانقرضت — أو كادت — عصورها الذهبية ، فقد غزت الاسواق اللحوم المجمدة والطيور البيضاء المثلجة .

عندئذ بدأت أمل (اللحمة) كثيرا ، وهي التي طالما اشتقت اليها .. وحلمت بها صغيرا .

وبدأت المعدة تعلن حالات الطوارىء والعصيان الهضمي بعد اكل اللحم ، فقلت في نفسي :

ما اعجب ظروف الحياة : عندما كنا لا نقدر على شراء اللحم، كانت المعدة تشتهيه ، والجسد يتطلبه ، والنفس ترغبه ، وعندما اصبحنا نقدر على شرائه صـــارت المعدة لا تقدر على تقبله أو هضمه .. وهكذا الدنيا .. !!

زادت الحالة تفاقمـــا بعد أن جئت الى مدينة (الدوحة) الطيبة ، فقد كنت في القاهرة اتعامل مع جزار بعينه ، اشترى منه

اللحم الطازج ، الذى تقدر معدتى على التعامل معه . ولكن معدتى فى الدوحة أصابها من اللحم والطيور المجمدة ما اصابها من كوارث سوء الهضم ، ونكبات سد النفس ، وتقلصات وجع الأمعاء .

اكثر من هذا الما أن ترى اللحوم .. ولا تمدن اليها يدك .. وتقول ما قال فريد الأطرش من قبل : **(قدام عنيى .. وبعيد على) .**

عدت الى نفسى .. وقررت أن أعود الى الخضـــــروات المســـــلوقة والطازجة ، والأكلات الخفيفة . وقبل هذا .. وبعده الاسماك الظريفة .. ولاسيما المشوى منها .. ونظرا لأن مأساتى مع اللحمة ، ليست ــ فيما أظن واعتقد ــ مأساة خاصة ، قررت أن أحذر عشيرتى الاقارب منهم والاباعد ، وأقول لهم : ان اللحمة فقدت مصــــــداقيتها ، ونظرا لان هذه اللحوم ــ فى الغالب ــ مستوردة ، فيجب أن نأخذ الأمر مأخذ الجد ، ونقاطع تلك اللحوم المستوردة ، وما يستتبعها من طيور وهامبورجر !! كما يجب أن نرفض ونشجب ونستنكر .. كل من يتعامل معها ، بعد هذا التحذير القومى .. الى أن تعود للحمة مصداقيتها فى الوطن العــربى من الخليج الى المحيط .. !!

قمــر هنــدى ..
يا عـــــرب .. !!

أعلن رئيس لجنة الفضاء فى دولة الهند ، أن بلاده أطلقت قمرا «هندى الصنع» الى الفضاء ، من قاعدة «جويانا» الفرنسية ، تحمله مركبة فضاء تدعى « اريانا ــ ٣ » ، الخاصة بوكالة الفضاء الأوروبية ، وانه يحمل شبكة ارســـال للتليفزيون والمواصـــــلات السلكية واللاسلكية والارصاد .

وقد أثار هذا الخبر شجونى القومية وهمومى العربية .. !! فالهند ــ كما نعرف ــ دولة صديقة منذ قديم الزمان ، لكنها فى النهاية دولة نامية فقيرة من دول العالم الثالث ، مثل معظم أقطار أمتنا العربية ، وهى أيضا من بلاد الشرق ، التى يصدق عليها قول أحمد شوقى : « **كلنا فى الهم شـــرق .. !!** » ولكن الهند رغم الارتفاع الرهيب لمعدل تعداد الســكان (سدس سكان العالم) ، والانخفاض الشديد فى دخل الفرد، والتعدد فى القوميات والديانات،

وكثرة الاضطرابات والفيضانات .. رغم كل هذا وغيره ، فان الهند استطاعت منذ اليوم أن تدخل عالم الفضاء ، واصبح لها مكان فى عداد الدول المتقدمة علميا وتكنولوجيا .

واعترف بانى لست خبيرا فى مجال السـياسة الدولية ، وبالتالى لا أعرف — على وجه التحـديد — الدوافع ، التى حدت بالهند الى القيام بهذه الخطوة — سواء على المجال السياسى او العسكرى .. أو حتى التكنولوجى .. ورغم كل ذلك فان الخبر أصابنى بدهشة كبيرة ، اذ كيف تستطيع هذه الدولة النامية — رغم كل مشاكلها وفقرها — أن تدخل مجال عالم الفضاء ، بينما نحن العرب جميعا ، لا نكاد نخطو خطوة جادة فى مجال التصنيع الثقيل أو الخفيف ، ناهيك عن الصناعات الاستهلاكية والغذائية ، بل ان القمح — مصدر رغيف الخبز — نحن بالنسبة له ، عالة على غيرنا ، حتى تلك الدول ، التى تدعى انها دول زراعية .. !!

لست أدرى .. حتى متى نفتخر بماضينا الذهبى ، ونتناسى حاضرنا الخشبى .. !!؟ اننا نملك — قادرين ان أردنا — معظم أسباب التقدم ، وكل عوامل الوحدة ، لكننا رغم كل ذلك — لا نعمل من أجل توفير احتياجاتنا من ادوات التصنيع ، ولوزام الحيـاة اليومية ، مع انه لدينا جامعات متقدمة ، وأيد مدربة ، وثروات طبيعية ، وإمكانيات مادية .. !!

وقد أحسست بصداع ازلى وهم ابدى ، حين تذكرت اننا — نحن العرب — لا نستطيع أن نقف على قدم المساواة مع الغرب

او الشرق .. او حتى مع دول العالم الثالث .. اذن اين نحن مما وصلت اليه كوريا وسنغافورة وتايوان وهونج كونج .. وغيرها من دول جنوب شرق آسيا .. ؟!

ان الكون حى يحب الحياة ، ويحترم الأحياء ، وليس هناك مكان تحت الشمس لمن يعيش عالة على غيره .. !! واخشى ان اقول على حالنا اليوم ما قاله شاعرنا القديم :

لقد اسـمعت لو ناديت حيـا

ولـكن لا حيـاة لمن تنـادى

الحيـــاة ..
فيـــلم هنـــدى

فى صغرى .. كنت من هواة مشاهدة السينما ، ولكن دور العرض المصرية فى ذاك الزمان البعيد ، لم تكن تهتم بعرض الأفلام الهندية ، ربما لأن صناعة السينما نفسها فى الهند ، لم تكن قد تقدمت بعد . ولكن الصداقة التى ربطت بين مصر (جمال عبدالناصر) والهند (جواهر لال نهرو) فى اطار كتلة عدم الانحياز ، فتحت الطريق لعلاقات عدة بينهما .. ومنها تبادل الافلام ، فى هذا الزمان الغض كنت فتى محبا للثقافة والفن والسياحة .. ومن أجل هذا كنت عاشقا للافلام الهندية ، واتذكر فيلمين شاهدتهما فى هذه المرحلة هما « سنجام » و « الأم » ، كان الأول يحكى قصة عاطفية مشبوبة .. والثانى يقدم قصة واقعية عن التمســـك بالأرض والأهل .. !!

فى مرحلة تالية من حياتى بدأت علاقتى بالافلام الهندية تقوى .. ولكنى وجدت قدرا من التكرار الممل فى أحداثها .. وفى الفلسفة

الفنية العامة التى تحكم قصصها ، لأن الفيلم الهندى يقدم قصة تقوم على «الكوكتيل» الشامل، فيها : حب وضرب ، ورقص وغناء ، وخيانة ووفاء ، بالاضافة الى لوحات رائعة لجمـــال الطبيعة ، باعتبارها خلفية للاحداث ، ولاسيما فى مشاهد الرقص والغناء .. أو فلنقل فى مشاهد الغناء الراقص ، خاصة وأن بطلات السينما الهندية معظمهن يجدن التمثيل والرقص والغنـــاء ، كما يبدو أنه لا علاقة لهن بما نسمع ونقرأ عن الهند من فقر وبؤس اقتصادى .

وفى احدى الامسيات الباردة جلست أمام شاشة البرنامج الثانى للتليفزيون القطرى ، لاشاهد فيلما هنديا جديدا ، لأن البرودة والوحدة حالتا دون القدرة على القيام بأى عمل آخر : أما الفيلم فكان اسمه **Insaaf Kavan Karega** .. وهو فيلم « مليودرامى » مشحون بالمواقف المتباينة والأعمال المتناقضة والمشكلات الفاقعة ذات الطابع « المليوتراجيدى » .

وتدور القصة ــ باختصار ــ حول أب مجرم ، تهجره زوجته وطفلاه بسبب سوء سلوكه ــ الى هنا والقصة معقولة ، ولكن اللامعقول يبدأ بعد فترة من الزمان ــ والزمان بالمناسبة فى الافلام الهندية لا وزن له ــ حيث تكبر ،بنته ، فيخطفها الأب نفسه ــ دون أن يدرى ــ ويبيعها لمجرم آخر ، فيضرها الى الرقص فى ملهى ليلى .. ولكن زعيم العصابة ، التى يعمل فيها الأب يطلب منه أن يساعده فى خطفها .. تمهيدا للغدر بها .. ويمضى الأب المستهتر فى طريق الشر مرة اخرى ، لكى يقود ابنته الى الوقوع فى الخطيئة . ولكن الاقدار تجعل من ابن هذا المجرم ضابط شرطة ، فيحاول أن ينقذها من عصـــابة الشر ــ دون أن يعرف بالطبع أنها اخته (هكذا .. ؟!)

وفى النهاية تنجو الفتاة البريئة من الشر والأذى .. وتتعرف على أخيها الضابط المنقذ لها ، كما يكتشف الأب أن الضابط ــ الذى

أراد قتله ، لكى لا يقف أمامه عند سرقة الفتاة ـــ ابنه . حينئذ يصحو ضميره الميت فجأة .. ويندم على ما فعل فى حق زوجته ووليده ، فيقرر الانتحار ، ليكفر عن شروره وآثامه .. بينما ينتصر الخير الممثل فى الشاب (الضابط) والفتاة (الراقصة) ، ويكتشفان ما بينهما من رابطة الدم ..!!

وبالطبع فان (المنطق) الفنى والانســـانى الذى تقوم عليه قصة الفيلم هنا ، لا يمكن أن يصدقها انسان ـــ ألبتة ـــ على ظهر هذه الأرض فى أى مكان فى الدنيا .. !! فهناك حقيقة ضرورية مهمة يجب أن تتوفر فى أى عمل قصصى .. وهى (محاكاة الواقع الانسانى) . والمحافظة على (منطق الحياة البشرية) .

وبعد أن انتهى فيلم السهرة .. أخذت أتأمل الحياة .. على ايقاع ذلك الفيلم الهندى ، فاكتشفت ـــ حزينا ـــ أن هناك فى واقعنا احداثا عجيبة ، لا تقل فى غرابتها عما يحـــــدث فى فيلم هندى ، وبدات مجتمعاتنا العربية المعاصرة تشهد أشكالا شاذة من الجرائم والاحداث ، لم نكد تعرفها من قبل ، بهذه الصورة من البشاعة والقسوة والعنف ، من أمثلة ذلك :

ـــ شاب فاسد متهور أدمن المكيفات الجديدة ، واعتاد عليها ولما لم يجد المال اللازم لشرائها ، طارد اباه الى أن قتله ، لأنه لم يعطه ما يريد من اجل الحصول على المكيفات أو المدمرات .. !!

ـــ رجل أو .. ذئب ، يخطف طفلة فى السادسة من عمرها ، وبعد ذلك يغتصبها ثم يقتلها .. !!

ـــ امرأة تخون زوجها .. ولكنها لا تكتفى بذلك ، وانما تتفق مع العشيق الوغد .. على قتل الزوج ، ثم تقطيع جثته أربا .. أربا ، والقائها فى الطريق العام .. !!

ـــ شركات وهمية تنشأ من اجل النصب والاحتيال واكل أموال الناس بالباطل .. تحت شعارات مضللة ، ودعايات مغرضة .!!

هذه الأحداث الخطيرة والمرعبة .. أليست اكثر غرابة وشناعة مما يحدث فيفيلم هندى .. ؟! ان اخبار الحوادث فى عالمنا المعاصر قد صارت أغرب من الخيال .. وأصعب من أن تصدق ، وكثرت مظاهر الانحراف واشكال التسيب .. كانما صبت اللعنة ، وانتشرت الفتنة ، بدرجة نسأل فيها الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ العفو والعافية، وأن يقينا من الشر والبلاء ، وان يحمينا من المنافقين والضالين والمفسدين .. !!

يا هـل المغنـى ..
دماغنـــا وجعنـــا

صدق من قال «ان القلب يعشق كل جميل .. !!» ومن الأمور التى اعشقها كثيرا الغناء ، اذ لاشك أن الصوت الحسن يذهب عن النفس كثيرا من أشكال الحزن . فالغناء فن من الفنون الجميلة ، التى اكتشفها الانسان منذ وقت مبكر من فجر حياته . ولا شك ان الغناء فن معقد ، لأنه يقوم على ثلاثة أركان تتفاعل من أجل الطرب واحداث النشوة فى قلب المستمع ، وهى قوة اداء الكلمة المعبرة ، وجمال الموسيقى المصاحبة ، وعذوبة الصوت المؤدى . من هذه الأركان الثلاثة .. وعنها مجتمعة تنشأ (اغنية جميلة) ، تخفف عن القلب أوجاعه ، وتجلو عن النفس صداها .. وتنشر البهجة، كما تنشر اشعة الشمس الضوء والدفء والحياة .

والغناء الذى الفته ــ أنا وجيلى ــ غناء جميل .. عظيم .. محترم ، يومها كان المطربون لا يبحثون عن سرعة الانتشار والرغبة فى جمع المال ، وانما كانوا مطربين ملتزمين ، يعملون بصبر وأناة

من أجل البحث ، عن قصيدة جميلة ، حتى لو فتشوا عنها فى الشعر القديم ، ويلجأون الى الملحنين الموهوبين ، ويشقون على انفسهم بالتدريب مثنى وثلاث ورباع .. الى أن تظهر الأغنية عطرة نضرة .. ولم يكن يعنيهم أن يستغرق زمان اعداد الأغنية سنة أو عدة سنوات ، بل ان بعض المطربين الكبار من الجيل الماضى مات ، وحصيلة تاريخهم الفنى كله خلال ربع قرن تقريبا ، ليس الا أغنيات معدودات . كما أن بعضهم توقف وهو فى قمة عطائه الفنى ، لأنه أحس أنه قدم غاية ما عنده .. وأن ما سوف يقوم به ، لن يضيف شيئا الى رصيده الفنى .

وقد استطاع الجيل السابق فى مجال الغناء العربى أن يحفر (جدولا) رقراقا فى مسيرة الفن ، وأصبحت أغانيه معالم على طريق الفن الجميل . يومها كانت الأغنية تجوب كل مجالات الحياة الرحبة ، فهناك الاغنية الدينية .. والنشيد الوطنى .. والتغنى بجمال الطبيعة والكون .. والموشحات .. والموال ، الذى يقدم من خلال مقطوعة قليلة الأبيات تجربة انسانية عميقة . كما نجد فى هذا الموال من شـــعر أحمد شـــوقى ، الذى غناه محمد عبد الوطاب :

كل اللى حب اتنصف ، وانا لوحدى شــكيت
حتى اللى رحت اشتكى له ، قال لى : ليه حبيت
لا شــكوى نفعت ، ولا قلب الحبيب رقيت
احــترت والله ، واحتــار دليلى يا ناس
يارب امرك ، وباللى كتبتــه ، انا رضــيت

وعلى هذا فقد ألفت أذناى ، وتربى وجدانى على ذلك (الطرب) الجميل ، الذى يعتمد على جمال الكلمة والموسيقى والصوت ، ولا أملك حين أهتز مع ايقاع المطرب الا أن أقول : الله .. الله .. !!

وليس شيء عندى فى الاصـــوات كلها يعـــدل : صـــوت عبد الوهاب .. وأم كلثوم .. وفيروز .. وعبد الحليم .. وبعض مطربى ذلك الزمان ، الذى كان المطربون فيه نابهين .. ونابغين .. محترمين ، يحترمون الفن .. ويحترمون الجمهور .. ويحترمون ـــ ايضا ـــ انفسهم . !!

تغير الحال .. وانتقلنا ـــ فى مجال الغناء ـــ من العصر (الذهبى) الى عصر (الالمونيوم)، وربما الى عصر (الصفيح) ، واصبحت الأغنية الجديدة اليوم ـــ الا ما ندر ـــ هما على القلب ، وبلاء على الأذن ، ونشازا فى كل شيء : الكلمات باردة وميتة المعنى وباهتة الدلالة ـــ والموسيقى زعيق وصخب وجاز وطبل وزمر راقص خشن ـــ والصوت عديم اللون والطعم والصدى ، وصار هم كل مطرب ناشىء .. أو ناشز ، هو أن يملأ (أو يعبى) شريطا ، كيفما اتفق ، وأن يشترك فى أكثر من حفل فى ليلة واحدة .. أو أن يؤدى فى ملهى .. أو أن يشارك فى الاعراس . فالهدف ليس الفن .. وانما البحث عن المال بأية وسيلة ، وعن اقرب طريق .

ومن العجيب أننا نجد اليوم مطربين اكثر نبوغا من « النابغة الذبيانى » نفسه ، لأنهم يؤلفون الكلمات ، ويلحنون الموسيقى ، ويؤدون الغناء ، ياسبحان الله .. كيف يمكن كل ذلك ؟! انه يمكن فقط عندما نتذكر القول المأثور : « **الذين استحوا .. ماتوا** » .. !!

أيها المطربون الجدد .. ان الفن صعب وطويل ســـــلمه ، ولا يمكن أن يصل الانسان الى فن عظيم الا اذا صعد السلم درجة درجة ، واتخذ من سيرة من سبقوه عظة وعبرة .

كما ينبغى أن تعلموا الأذن العربية لها (طريقة خاصة)

فى الطرب والغناء .. وأن هذه الموسيقى الزاعقة .. والرقصات المائعة .. لن تجعل منهم مطربين أو فنانين .. البتة ..!!

اننى ــ مثل كثيرين ــ احب الغناء .. وأعشق الفن الجميل ، لكن غناء اليوم يصـــــيبنى بالقهر والحزن .. فاغلق الراديو أو التليفزيون ، أو ابتعد عن مصــــــدر الصوت ، مرددا قول بيرم التونسى ــ رحمه الله :

ياهـــل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله
داحنا شبعنا كلامهالو معنى ياليل ياعين يا آه

التليفـزيون ..
و .. البعد المسـتباح

يحلو لى — كثيرا — ان اسمى التليفزيون «صندوق العجب» ، اشـــارة للربط بينه وبين ذلك الصـــندوق ، الذى كان يحمله « الحكواتى » على ظهره ، وينطلق فى الموالد والمواسم والأسواق العامة ، ليحكى لمشـــاهديه قصة مرتبطة بصـــورة عن « عزيزة ويونس » و « ابى زيد الهلالى » و « الزناتى خليفة » و « عبلة وعنترة » .. وغير ذلك من قصص الحب والكفاح المستمدة من التراث الشعبى . ولا يزال التليفزيون — حتى اليوم — فى عالمنا العربى يجمع — مثل صندوق العجب — بين الحقيقة والاسطورة ، بل ان بعض برامجه تتجاوز الاســطورة ، لتصـــبح فى منزلة الخرافة أو تتفوق عليها — أحيانا .

فالتليفزيون العربى فى حالة عشـــق دائم لافلام الرعب والجريمة ومباريات الكورة والمصارعة والبرامج الخاصـــة المملة ،

مثل ركن المرأة ــ المجلة الزراعية ــ التليفزيون التربوى ــ برامج الاطفال .. الخ .

كما انه ــ أى التليفزيون ــ فى حـــالة زواج كاثوليكى مع المسلسلات العربية والاجنبية .. المعقولة وغير المعقولة .. !!

والتليفزيون ــ رغم بعض ميزاته وكثير من عيوبه ــ جهاز لا يمكن تجاهله وعدم التعامل معه ، بل ان العكس هو الصحيح على الاطلاق ، فكل شـــرائح المجتمع تتعامل معه على نحو ما . ومعنى هذا ان كل شخصية تجد فيه ــ على الأقل ــ مساحة زمنية، تتصل ببرنامج أو مجموعة من البرامج تشد انتباهها ، فحتى رجال الدين انفسهم يتعاملون معه ارسالا واستماعا.

ويؤكد خطورة هذا الجهاز ــ الذى لا يكاد يفلت من تأثيره ، صغير أو كبير ، رجل أو امرأة ، عالم أو أمى ــ أن أصبح له مكان مقدس حتى فى حجرة النوم .

ولا أعتقد أن البلاد التى اخترعت هذا الجهاز ، أو تلك التى تصنعه ، تشاهده وتشغل به بالقدر الذى ننبهر به أمامه .. بحثا عن « ثقافة استهلاكية » ، رخيصة ، وسعيا نحو وسيلة « نقتل بها الوقت » ، الذى لا نقيم له كبير أهمية .

ومادام التليفزيون فى بلادنا قد أصبح قاسما مشتركا أعظم فى حياتنا الاجتماعية بصـــفة عامة ، فان من حق كل ذى شأن أن يسأل عن مدى تلبية هذا الجهاز للمجال ، الذى يشـــغل به ويهتم فيه . ومن فضل الله أن مجال اهتمامى ليس مجالا خاصا ، وانما هو مجال عام ، قد يتصـــل بمعظم فئات المجتمع تقريبا ، وذلكم المجال الذى أعنيه هو مجال (الثقافة) الرفيعة .. ونقصد به ،

مجال الثقافة حالة كونها متجلية فى الأنواع الأدبيـــة المختلفة ، والاتجاهات الفكرية والنقدية المعاصرة .

وانا أعنى هنا على وجه التحديد .. الثقافة (المدونة) فى كتاب أدبى أو فكرى ، وكيف نستطيع أن نترجم المادة المكتوبة الى مادة مسموعة ، خاصة وأن العصر ليس عصر قراءة — الى حد ما . ان المسئولية الأدبية تدفعنا الى ضرورة التنبيه الى العناية بالبرامج الثقافية ، التى اهدر دمها واستبيحت كرامتها .. واصبح حالها فى التليفزيون مثل حال « اليتيم على مائدة اللئيم » .

اننا اذ ندعو الى ضرورة العناية ببرامج الثقافة الرفيعة .. لا ننكر أنها موجودة بشكل ما ، ولكنه وجود منفر ، ســــواء من حيث الاعـــداد المتخلف او التقديم المتأخر ، لأن كثيرا من برامج الثقافة أشبه بحصة مطالعة فى مدرسة محو أمية ، لذلك تقصر هذه البرامج المرتجلة — ان وجدت — عن مواكبة الجديد فى مجال الأدب والفكر والفن ، ولا تقدم شـــخصيات ذات هيبة أو تأثير حقيقى فى الواقع الثقافى ، ولا تطرح قضية تشغل الناس أو تشد انتباههم ، أو تعرفهم بأديب شاب أو باتجاه جديد فى الأدب أو الفكر .

ان الثقافة تشكل رافدا من روافد الغذاء الروحى للشعوب ، وعدم الاهتمام بها قد لا يبدو تأثيره الســلبى فى المدى القريب ، لكنه على امتداد السنين سوف يترك تراكمات من الصـــدأ على المشاعر والقلوب ، حتى تصبح كالحجارة . ان الانسان جســد وروح فماذا يكون الحال .. لو صار الاهتمام قاصرا على العناية بالجسد ؟ ولا شك ان كثيرا من مظاهر الانحراف التى بدأت تطرأ على مجتمعنا ، ترجع بعض أسبابها الى غياب الدور الثقافى ، الذى يجب أن تقوم به الثقافة بالنســبة لتطهير المشـــاعر وصقل

الشخصية وتهذيب الفكر والارتقاء بالوعى وتربية الذوق السليم ، وقد صدق ابو تمام حين قال :

ولولا خلال سنها الشـــــعر مادرى
بناة العـــــلا ، من اين تؤتى المكارم

ومما يؤكد صدق هذه المقولة ــ مقولة اثر الثقافة فى نهضة الامة ــ اننى احيانا اقارن بين الجيل الذى انتمى اليه .. والجيل التالى ــ جيل ابنائنا وتلاميذنا ــ فأجدهم اســـعد حظا فى أمور كثيرة .. ولكنهم اتعس وعيا فى فهم الحياة .. واضعف عودا فى تحمل المســـــؤولية ، واميل الى العبث واللهو . واعود فأؤكد ان غياب الدور الثقافى فى حياة هؤلاء الشباب هو المسؤول الأكبر عن كثير مما صاروا فيه ، وتحولوا اليه ..

واتمنى أن يأتي ــ قريبا ــ اليوم الذى تأخذ فيه الثقافة دورها الحقيقى فى حياة المجتمع ، وأن يعلن جهاز « صندوق العجب » نية التوبة النصوح عما فرط فى حياة الثقافة الرفيعة والفكر الجاد ، أملا فى أن يكفر عن بعض ما ارتكب من اخطـــــاء وآثام فى حق الثقافة ، وتعطيل دورها الخطير على خريطة برامجه المتعددة .

الصعـــاليك

حدثنا حكيم الزمان .. المتوكل على الله ابو محمد بن عمران المنصورى ، فقال :

« فى ليالى من ليالى البرد والوحشة ، والفراغ والوحدة ، نظرت الى الراديو عن الشمال والتليفزيون عن اليمين ، وجعلت افكر .. وافكر ، ثم انظر واتدبر ، هل اقضى الوحدة مع الراديو المسكين ، الذى راحت عليه أوقات المسرات ، أم مع التليفزيون الملون متعدد القنوات ؟! وبالطبع الجديد دائما يكسب ويظفر ، لأن التليفزيون — أو كما يحلو لى دائما أن أسميه «صندوق العجب» — فاز بالضربة القاضية ، فقد أصبحنا جميعا « أســـــرى » لهذا الجهاز الخطير ، وملحقاته من أتارى .. وفيديو وغير ذلك .

وصارت برامجه مقررات يومية «مفروضة» بالحق أو بالباطل ، وعن رضا أو كره . فأينما تولى وجهك تجده أمامك ، بل إننا نجدد

أحيانا مواعيد الزيارة أو العمل أو القراءة وفقا للبرامج الخاصة ، التى تشد كلا منا — على اختلاف الأمزجة والميول .

ولست ادرى كيف سيكون الحال مع أولادنا .. واحفادنا ازاء هذا الجهاز الخطير جدا .. ؟!!

شعرت بقدر من الرضا حين علمت من الجريدة أن سهرة المساء عبارة عن فيلم عربى جديد هو « الصعاليك » . وزاد من احساسى بالرضا أن ممثليه من « النجوم » القدامى ، الذين يطمئن المشاهد الى أنهم يدققون فى اختيار أدوارهم — بحكم تاريخهم الفنى المرموق . وقلت فى نفسى .. ان وجود ممثل مثل نور الشريف .. أو محمود عبد العزيز كاف للاقتناع بجودة الفيلم ، فما بالك اذا اجتمع الاثنان مع الفنانة الواعدة .. الصاعدة « يسرا » .. ؟!

تناولت العشاء مبكرا ، واحتسيت كوب الشاى المضبوط .. وجلســـــت انتظر اللقاء المرتقب . كما ينتظر الأب عـــودة ابن مغترب .. !! وبدأت احاول أن اجمع نسيج احداث القصة — لأنى بحكم دراساتى النقدية وخبرتى القصصية — لا اتلقى أى عمـــل درامى دون أن يصحو الناقد .. والأديب .. (معا) فى داخلى . !! المهم ان القصة جد تافهة .. أو « هايفة » — كما نقول فى حديثنا اليومى ، ذلك أن صعلوكين مشردين جاهلين تربط بينهما صداقة متينة ، لدرجة أن احدهما حين يتزوج يصر على اقامة صديقه معه فى شقة واحدة . وحين يرتكب مخالفة نتيجة حادث سيارة ، يتمنى صديقه أن يسجن بدلا منه .. !!

الى هنا ياســـادة يا كرام والحكاية يمكن أن تكون مفهومة ومعقولة . ولكن الصديق الذى يسجن بعد أن يخرج من السجن ، يصر على أن يسرق .. أو يهرب مخدرات لمرة واحدة . وبعدها

يتوب ، ويعمل بشرف (عجبى . !!) وبعد حيل صعلوكية سينمائية يفتح الله عليهما فيسرقان ويصبحان من أثرى الأثرياء وأغنى الأغنياء ــ كأننا فى فيلم هندى !! ــ ويحدث أن يشترك معهما فى التجارة رجل (كبير) ذو منصب سياسى (اى كلام .. يا عبد السلام !!) ويفترى عليهما ، ويريد أن يستأثر بمعظم ارباح الشركة المساهمة بينهم ، ويخضع واحد منهما لمطالبه (نور) ، ولكن الآخر (محمود) يرفض .. ويصر على فضح ذلك المسؤول . ولكن صديقه ــ صديق العمر ــ يقتله ، لكى يأخذ منه حقيبة المســـــتندات . وهكذا فان « الفقر » أدى الى قوة الصداقة .. اما « المال » فقد حلت لعنته وقتل الصديق صديقه (ياحرام !!) . ومعنى هذا أيضا أن الفقر آخر « حلاوة وجدعنة » . والفقراء محافظون على القيم والمبادىء .. أما المال فهو آخر « غم ونكد » . كما أن الأغنياء غير محافظين على اى شىء الا المال ، ولكنهم لا ينجون من «لعنته» (ياسلام !!) . ومعنى ذلك ايضا : ايها الفقراء .. ان الفقر شىء عظيم بل عظيم جدا ، فتمسكوا بالفقر ، واياكم أن تفكروا فى المال ، لأنه لا يأتى بطريق شـــريف . كما انه يجعـــــل المرء يتغاضى عن كثير من القيم والمبادىء .. !!

هذا هو (المضمون) الشاحب الباهت ، الذى أراد أن يؤكده فيلم (الصعاليك) . وقد اكتشفت فى البداية والنهاية أن مخرج الفيلم هو مؤلفه ايضا .. !!

وهذا ما يؤدى الى هذه « اللخبطة » غير المتجانسة . ماذا لو تركنا التأليف للمؤلفين والاخراج للمخرجين والتمثيل للممثلين . ؟!

ولكن « لعنة المال » التى أصابت المؤلف المخرج ــ قبل غيره ــ هى التى دفعته الى أن يقدم هذا الفيلم السىء .. وتلك القصة غير الأخلاقية . ان (السيناريو السينمائى) باعتباره فنا

راقيا ، يجب أن يسير وفق « فلسفة اخلاقية » واضحة ، تحافظ على القيم وترعى المبادىء ، وتجعل الأحداث تدور حسب «منطق معقول» و « مفهوم » !!

ولن يرتقى الفن فى بلادنا الا اذا أعطينا كل ذى حق حقه .. أو بعبارة أخرى « أعطينا الخبز للخباز » .. !!

اما أن يكون المنتج هو المؤلف .. أو الممثل .. أو المخرج .. فهذا أمر غير مفهوم ، وتلك هى النتيجة : فن هابط .. وسينما مسفة .. !!

يا من تنتسبون الى الفن : اعلموا أننا فى عصر « التخصص الدقيق » جدا ، لذلك ينبغى أن يحترم التخصص ، حتى نقدم (فنا محترما) .. يحافظ على القيم النبيلة والمبادىء السامية .. !!

وهنا ادرك ابو محمد بن عمران الصباح ، فسكت عن الكلام المباح . وبعد أن انفطر قلبه ، قال مناجيا ربه : اللهم ياذا الجلال والاكرام .. نجنا فى هذه الأيام من مصائب التليفزيون ومساوىء الإفلام .. !!

حـد السـيف ..
وحـر الصـيف

فى ليلة من ليالى الصيف الحارة ، انتظرت صديقا ، كى اذهب معه لقضـــاء مصلحة تخصه ، فالغيت كل اعمالى وارتباطاتى ، وجلست ــ قاعدا ــ فى انتظاره .

لحظات الانتظار دائما بطيئة ومملة وثقيلة على النفس .. فما بالك اذا اجتمع الانتظار والحر على انسان مرهق مثلى .. ؟! اقترب الموعد .. لكنه لم يأت ، فأخذت أتشاغل بقراءة الجريدة تارة ، ومشاهدة اى شىء يعرضه التليفزيون مع الأســـرة تارة اخرى ، حتى لا أشغل نفسى بمطالعة عقارب الساعة . لا فائدة .. جاء الموعد .. ومرت اكثر من ساعة ونصف دون أن يحضر ، أو يعتذر تليفونيا .

شغلت فى بادىء الأمر على غياب صديقى ، بسبب زحمة الطريق ، أو عطل مفاجىء قد يصيب السيارة .. وربما أى شىء

آخر ، فكل شيء فى هذه الأيام جائز . وعندما طالت المدة — اكثر من اللازم ، أيقنت أن شاغلا شغله .. أو ربما نسى الموعد ، الذى حدده هو . هكذا ألغى الصديق الموعد — من طرف واحد .. ولم يأت .. ولم يعتذر . دعوت الله فى سرى أن يحفظ الصديق ، وأن يسامحه على ما فعل معى . وحاولت أن أستعيد هدوئى ، وأن أبعد توترى وغضب مشاعرى .. لكنى لم أستطع . !!

تذكرت هذه الحادثة — فى مطلع الصيف — وأردت أن أوضح أننا — فى بعض الأحيان — لا نقيم وزنا كبيرا لاحترام المواعيد ، ولا نعرف للوقت قيمة ، ونهدر ذلك بالنسبة لأنفسنا وأصدقائنا ومعارفنا . وقد يكون الزمن عديم القيمة مهدور الفائدة بالنسبة لصاحبه ، لكن ما ذنب الآخرين ، الذين يسرق وقتهم ، ويخرب لحظات سعيدة من لحظات حياتهم .. ؟!

ان العمر قصير ، ولا ينبغى أن نزيد فى تقصيره باهدار قيمة وقت ، يمر علينا دون فائدة لنا أو للآخرين . وما أضيع الزمن الذى نسىء فيه الى أنفسنا .. والى الآخرين .

اننا نتعارف لكن نتآلف ، ونحاول — قدر الطاقة — أن ننزع شوكة ، ان لم نستطع غرس وردة فى حياة كل من نعرف . !!

ياصديقى : الزمن حد السيف ، وأنت فى هذه الدنيا ضيف ، فحاول الا تكون ليلة من ليالى الصيف .. !!

عـروس الشـيطان

التعامل مع المصالح الحكومية فى بلادنا العربية أمر متعب ومنهك .. ويقلق القلب ، ولكن ليس لنا عنه بد . وقد استعنت بصـبر أيوب وتوجهت الى البنك ، لدفع حصـتى فى التأمين والمعاشات . ومن المفروض الا تستغرق العملية أكثر من دقائق معدودات ، خاصة وقد قمت بأداء المهمة ذاتها فى هذا البنك نفسه من قبل . واستنادا على خبرتى السابقة صحبت زوجتى ، لكى اشترى لها بعض الأغراض ، لأنها تتهمنى بأنى مشغول دائما .. ولا اجد وقتا لشراء ما يلزمها أو يلزم الأولاد . وقلت فى نفسى هذه فرصة طيبة لاسعاد « أم العيال » .

دخلت البنك .. وسألت عن الموظف المختص ، الذى يأخذ خطاب الكلية ، ويحول المبلغ الموجود بالجنيه المصـرى الى ما يساويه بالدولار الامريكى . لكن الموظف كان غير موجود . اشعلت

سيجارة قتلا للوقت .. وسيجارة أخرى . اختلست النظر الى زوجتى ، فحمدت الله انها متشاغلة بقراءة مجلة . بعد اكثر من نصف ساعة فتح الباب .. ودخلت الموظفة « المحروسة » . انتظرت دورى حتى أصل . عندما وصلت ، وضعت الخطاب أمامها ، فاذا بها تقول :

— آسفة .. يادكتور ، النظام تغير .. !!

أخذت تشرح — وانا بين الحيرة والدهشة — وذكرت أن النظام قد تغير .. لكن تغير الى ماذا .. لا تدرى .. ولا تشير .. ولا تفيد ؟!

نظرت الى وجهها العبوس ، وهيئتها المدلهمة ، وملامحها النحاسية .. الاسمنتية ، ولا ادرى لم تذكرت « الجاحظ » ؟ فقد كان هو الآخر دميم الخلقة ، ساخرا اشد ما تكون السخرية . وأحيانا الساخرون لا يجدون ما يسخرون عليه ، فيسخرون على أنفسهم — كما فعـــل الخطيئة والجاحظ الذى روى انه كان يمشى فى « السوق » ، فقابلته امراة جميلة ، وقالت له : اتبعنى .

مشى الرجل الدميم خلف المراة الجميلة — دون أن يدرى لم اختارته هو دون بقية خلق الله . بعد مدة وصلا الى محل بائع جواهر ومصوغات ذهبية ، وقالت لصاحبه :

— مثل هذا .. !!

وتركت الجاحظ ومضت ، فسأل صـــاحب المحل عن الأمر ، فقال ان المراة طلبت منه أن يصنع لها خاتما من ذهب ، عليه صورة شيطان ، فقال انه لم يره ، فكيف يصوره ؟ ثم غابت وجاءت بك ، لتكون مثالا لصورة الشيطان ، التى طلبتها .

كانت هيئة تلك المراة مشابهة تماما لما تحدث به الجاحظ . وقلت فى نفسى :

ـ اذا كان الجاحظ يرى نفسه صورة للشيطان ، فان هذه الموظفة الدميمة اصلح عروس للشيطان .. !!

لست أدرى لم تختار الادارات الحكومية امثال هذه « العروس غير الفاتنة » ، لتكون كريهة المظهر والجوهر .. ولا تحل مشكلة ، ولا تساعد على حلها ، فينطبق عليها المثل القائل « لا ترحم ولا تترك رحمة الله تنزل » .. !!

بعد أخذ ورد مع اكثر من موظف ، علمت أن الدفع يجب أن يكون فى الفرع المركزى للبنك وسط البلد . صحبت زوجتى .. وكلى دهشة . ان الروتين الحكومى يطلع روحنا عندما نريد أن ندفع للحكومة اموالا .. فماذا يفعل فينا اذا أردنا أن نأخذ منها . !!

سألتنى زوجتى وأنا امشى سريعا ، كأنى أجرى : الى أين ؟
قلت دون تفكير : نهرب من عروس الشيطان .. !!

اللهـــم .. انى صـــائم

« شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه .. »

شهر رمضان .. شهر البر والاحسان .. شـــهر العبادة والغفران .. والقبول من الواحد الديان ، الذى يقول فى حديث قدسى — ما معناه : « كل عمل ابن آدم له الا الصوم ، فانه لى .. وانا اجزى به .. !! »

ولا شك أن هناك حكما بليغة ومواعظ جمة فى هذا القول الكريم ، لعل فى مقدمتها .. أن الناس قد يتساوون جميعا — فى اثناء الصيام — فى عدم تناول الطعام والشراب .. لكنهم يختلفون فى النوايا ، وما تخفى الصدور ، لأن الصيام الحق يعنى أن تصوم جميع الجوارح والحواس ، فالعين لا تنظر الى المحرمات ، والأذن

لا تسمع الغيبة والنميمة ، واللسان لا ينهش عورات الناس ، واليد لا تعمل الا فى الخير ، والرجل لا يسعى الا الى المعروف ، والقلب لا يشغل الا بذكر الله العلى القدير ..!!

ومعنى هذا ان الصيام ليس مقتصرا على المعدة والأمعاء .. وانما الصيام تربية روحية لكل الأعضاء ، حتى تتطهر وتتزكى .. وتتقرب الى الله سبحانه وتعالى ، لكى يقبل صومها ، ويضاعف أجرها ، ويهيىء لها من الأمر رشدا فى الدنيا والآخر . !!

عباد الله : من كان يفهم الصيام على انه كف عن الطعام والشراب فحسب ، فان الله سبحانه ليس فى حاجة الى صيامه . ولا شك أن هذا الصوم الظاهرى هو صوم « المفلس » .. الذى حدثنا عنه الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) قائلا :

« اتدرون من المفلس ... ؟

قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع .

فقال : ان المفلس من امتى .. من ياتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، وياتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ،واكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا .. فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته .. فان فنيت حسناته قبل ان يقضى ما عليه ، اخذ من خطاياهم ، فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار .. »

*** * ***

فيا الله .. يامن اليك يصعد

العمل الصالح ، والكلم الطيب .. !!

ربى .. يا اللهم :

يا مجرى السحاب

ومنزل الكتاب

ومهيىء الأسباب

ومجمع الأحباب

ومؤلف الأصحاب

وهازم الأحزاب

ومرشد اولى الألباب .. !!

يا الله .. ياخير من سئل

واكرم من اعطى واجاب

اشهدك انى صـــائم

صيام عبد المؤمن ، يرجو رحمتك

ويخشى يوم الحساب .

* * *

ربى يا اللهم ، اشهدك انى صائم :

بلسانى ان يقول زورا

وباذنى ان تسمع فجورا

وبيدى ان تجورا

وبقلبى ان يظل باسمك

العظيم ـــ متبتلا ذكورا .

* * *

اللهم انى صائم
عن التطلع الى ما متعت به غيرى
اللهم انى صائم عن الكبر والغرور
وعن الضعف والقصور
اللهم اليك وجهت قلبى
فاغفر ذنبى
واستر عيبى
ووفقنى الى ما تحب وترضى .

* * *

اللهم انى لك اصـــوم
وعلى رزقك افطر
ابوء لك بنعمتك على
وابوء بذنبى فاغفر لى
انه لا يغفر الذنوب الا انت .. يا الله .. !!
يا اكرم من سئل
وخير من اعطى
واجاب .. يارب .. !!

الحوار ..
بين الأديب والمتذوق

يروى ان الشاعر العربى الكبير ابا تمام الطائى ، كان ينشد قصيدة له ، مطلعها :

هن عوادى يوسف وصاحبه

فعزما ، فقدما ادرك النجح طالبه

فقال له بعض الحاضرين : يا أبا تمام ، لماذا لا تقول ما يفهم ؟ فرد سريعا : ولماذا لا تفهمون ما يقال ؟

ومنذ اثار ابو تمام هذه القضية النقدية فى القرن الثالث الهجرى .. اى منذ اكثر من الف سنة تقريبا ، والمسألة لا تزال قيد الجدل والنقاش . والقضية باختصار هى : هل ينبغى على الأديب ان يكتب أدبه بأسلوب سهل بسيط فيفهمه المتذوق العادى ، أو ان من واجبه ان يعمل على رفع مستوى ذلك المتذوق فكريا

وفنيا ؟ بعبارة أخرى : **هل ينبغى على الأديب أن يهبط الى مستوى القارىء العام .. او ان القارىء هو الذى ينبغى أن يرتفع الى حيث يحلق الأديب ؟**

ولا شك أن الاجابة لصـــالح الأديب أو المتذوق لها بعض مبرراتها المقبولة والمعقولة .. ثم هناك من يحبون الامساك بالعصا من المنتصف ، ويحبذون المصالحات الفكرية والأدبية ، ويجنحون نحو الحلول « التوفيقية » .. التى تضـــر — فى رأينا — كلا الفريقين .

وما نراه نحن فى هذه القضية .. وندعو اليه بصـــوت صريح وعال ، هو الانحياز الكامل لوجهة نظر الأديب ، الذى نرى أن من حقه ، بل من واجبه : أن يعمل على رفع مستوى المتذوق .. فكريا وثقافيا .. فالأديب داعية الى قيم انسانية ايجابية ، ومبشر بدعوات اصلاحية ، ومعلم لصياغات جديدة فى الواقع واللغـــة والفن .. لذلك فان من حقه أن يقول .. ومن واجب الجمهور أن يكد ويجتهد ، حتى يفهم ما قاله ، ويشرح ما كنى عنه ، ويفسر ما رمز اليه .

والانحياز الى صف الأديب ، ليس وليد اليوم فحسب ، بل ان الاقدمين انفسهم اجازوا للأديب مالا يجوز لغيره ، لدرجة أن قالوا « ليس على المطرب من معرب » .. !!

وعلى هذا فان الأديب الحق له من الرخص اللغوية والفنية والفكرية ما ليس لغيره .. لأن الأديب « النابه » ضمير أمته وحامى جماعته ، لذلك فان من حق الأديب أن يقول ما يشاء .. وكيف يشاء .. وعلى الجمهور أن يفهم .. أو لا يفهم ، فسوف يأتى اليوم ، الذى قد يصـــبح فيه أديب مجهول ، خير من الف كاتب معروف ..!!

من نــوادر المتنبــى

كثير منا لا يعرف الوجه الآخر للأديب حالة كونه انسانا ، لأننا فى الغالب لا نكون عنه صورة الا من خلال أدبه . ومن أولئك الأدباء ، الذين لا نعرف ــ نحن القراء ــ كثيرا عن سيرة حياتهم المتنبى ــ أحمد بن الحسين (٣٠٣ ــ ٣٥٣ هـ) ، ذلك الشاعر الطموح ، الذى ملأ سمع الدنيا وشغل الناس فى عصره وبعد عصره الى اليوم . كان المتنبى شاعرا عظيما ، لكنه فى الوقت نفسه كان انســـانا متمردا ، يرى أن لســـانه يجعله منتميا الى الشعراء ، أما عقله وذكاؤه فجديران بأن يجعـــلاه من الأمراء والحكام ، لذلك انتقل من بلدة الى بلدة بحثا عن هذه « الامارة » ، التى عاش عمره كله يحلم بها .

وقد انتهى به المطاف فى رحلاته الى مصر (٣٤٦ ــ ٣٥٠ هـ)، وكان حاكمها فى ذلك الوقت كافور الأخشيدى ، وقد ادرك بدهائه

رغبة المتنبى ، واستشعر بعض الخوف من طموحه وسلاطة لسانه، لذلك أهداه قصرا ، ليقيم فيه تكريما له . لكن ذلك القصر كان — فى حقيقته — تحديدا لاقامة الشاعر ، حتى يستطيع رجال الحاكم رصد تحركاته واتصالاته ، ومحاسبته — على ما يقول أو يفعل — ان استدعى الأمر ذلك .. !!

وقد سئل كافور ذات مرة : لم لم تعط المتنبى الضيعة ، التى كان يحلم بأن يكون حاكما لها !؟ (كانت بلدة قليوب الآن .. !!) ، فرد كافور موضحا سر تحفظه وتخوفه :

— ان من ادعى النبوة .. وأراد ان يشارك رسول الله فيها ، ليس بمستبعد ان يدعى الامارة ، ويشارك كافورا فى الحكم .. !!

ومنطق كافور فى التعامل مع المتنبى منطق سليم ، وينبغى أن نطبقه فى كثير من مواقف تعاملنا مع البشر ، الذين نتعامل معهم .. فمن يكذب مرة ، سوف يكذب أخرى ، ومن يدعى مرة سوف تكثر ادعاءاته . وفى المقابل فان من يصدق ينبغى أن يصدق ، ومن يظهر أنه أمين ينبغى أن يؤتمن . ومعنى هذا أيضا أننا يجب أن نعامل الناس بالقياس نفسه الذى يعاملونا به ، فنحسن الى المحسن ، ونسىء الى المسيىء ، أى أننا ينبغى أن نصدر للبشر ما نستقبله منهم ، لأننا نعطى بقدر ما نأخذ ، ونأخذ بقدر ما نستطيع أن نمنح .. !!

الجامعـــة ..
هل تراجع دورها الثقافى ؟ !

الحديث عن الدور الثقافى للجامعة ، يقودنى بالضرورة الى الحديث عن دور الاستاذ الجامعى داخل الجامعة وخارجها ، فهو حديث ذو شجون ، لأنه يفضى بالضرورة الى طرق أكثر من جانب اجتماعى وثقافى وتعليمى ، كما ان هذه القضية تعد أكثر حيوية وسخونة بعد أن اتسع نطاق الجامعات فى الاقاليم ، حتى أصبحت تشكل بالفعل ظاهرة اجتماعية خطيرة ، خاصة وان مصر من الدول التى تزيد فيها نسبة التعليم الجامعى زيادة واضحة بالنسبة لعدد المتعلمين ــ كما يزيد المشكلة اهمية أننا حين نتحدث عن دور أستاذ الجامعة ، نتذكر مسيرة أساتذة عظام قاموا بدور كبير فى الحيـــاة الجامعية والثقافية ، مثل طه حسين واحمد أمين وسهير القلماوى ومحمد مندور ورشاد رشدى وشوقى ضـــيف وعبد القادر القط وغيرهم الكثيرون .

هناك عقبات كثيرة تحول دون قيام الاستاذ الجامعى بدور مؤثر — يتناسب وخطورة المكانة التى يحتلها داخل الجـــامعة وخارجها — هناك **أولا** : المشـــكلة الاقتصادية ، ويجب أن نكون صرحاء ، فأستاذ الجامعة مدرس وباحث فى الوقت نفسه ، لذلك يجب أن يكون مكتفيا الى حد ما من حيث المستوى المعيشى الملائم ، واتمنى أن تقوم جهة بعمل احصاء لعدد الأســـــاتذة المعارين فى العشرين سنة الأخيرة . وسوف تبدو النسبة مخيفة جدا ، خاصة وأن معظم هؤلاء المعارين من الأساتذة الكبار ، الذين هربوا — فى تقديرى — بحثا عن خلاص فردى لحل المشكلة الاقتصادية ، ومن يبق أيضا من الأساتذة فى مصر يضطر اضطرارا لسد العجز فى دخله بالعمل فى أكثر من مكان .

ثانيا : زادت نسبة عدد الطلاب المقبولين فى الجامعة وخاصة فى الكليات النظرية زيادة رهيبة ، لا تتحملها حتى مدرجات الجامعة. وهذا الزحام يحول دون أن تتم العملية التعليمية بشكل جيد ، والنسبة تبدو مفزعة اذا عرفنا ان هناك استاذا لكل الف طالب على أحسن تقدير ، بل ان الأستاذ لو حاول أن يخلو الى طلبته ، فلن يجد المكان ، الذى يستقبلهم فيه بشكل انسانى .. !!

ثالثا : مكتبة الجامعة فقيرة ومتواضعة جدا بالنسبة للاستاذ والطالب ، وقد توقف التزويد فيها منذ مدة طويلة ، فمكتبة جامعة القاهرة ليست مشتركة فى دوريات أجنبية أو عربية بل حتى مصرية منذ سنوات طويلة ، كما أن الكتب الجديدة مفتقدة فيها الى حد ما . كما يضاف الى مشـــكلة المكتبة ضيق المســـــاحة المعدة للاطلاع والبحث .. !!

رابعا : بالنسبة لمستوى الطالب نفسه الذى تستقبله الجامعة الآن ، فهو متواضع جدا فكريا وثقافيا ، وغير حريص على التعمق

فى القراءة والبحث ، كما أن بعض الطلاب يدخلون كليات على غير رغبة منهم ، لأن مكتب التنسيق وزعهم بحسب المجموع ، وليس بحسب الميل أو الرغبة .

خامسا : اعتماد بعض الأساتذة على الكتاب المقرر أو على المذكرات المطبوعة محليا ، والتى تتداول بشكل سرى ، فهذا أيضا عامل من العوامل المساعدة على اضعاف الحياة التعليمية داخل الجامعة ، ولا يساعد على قيام الاستاذ بدوره الفكرى ، لأن الجامعة تهتم فى الأســـــاس بتعليم المنهج العلمى . وهناك بعض الأمثلة على هذا فى بعض الجامعات الأقليمية ، التى تفتقر افتقارا شديدا الى وجود حياة جامعية علمية متكاملة ، ويقوم المعيدون والمدرسون المساعدون بالعبء الأكبر بالتدريس فيها ..

سادسا : هناك توسع غير مبرر فى فتح الدراسات العليا فى الجامعات الاقليمية، فمعظم هذه الجامعات لايتجاوز عمرها الزمنى عشرين سنة ، ومع ذلك يتســـــرعون دون مبرر فى فتح أبواب الدراسات العليا ، على الرغم من عدم وجود أســـــاتذة يقومون بالاشراف والتوجيه ، من هنا قد نفاجأ على المســـــتوى البعيد بتخريج مجموعةكبيرة من الاساتذة غيرالمؤهلين تأهيلا علميا رصينا . واذا كان فاقد الشىء لا يعطيه ، فكيف نسمح بســـــهولة بفتح دراسات عليا دون اعداد ؟

سابعا : نتيجة للأسباب الســـــابقة وغيرها ، نجد أن دور استاذ الجامعة فى الحياة الفكرية والثقافية وغيرها ، قد تقلص بشـــــكل ما .. اننا عندما نتأمل خريطة التخصصات العلمية فى حياتنا ، نجدها تغطى كل نواحى الحياة الى حد كبير . ولكن الى اى حد تؤدى هذه التخصصات العلمية والاقتصادية والاجتماعية والادبية دورها الايجابى فى تصحيح مسار الحياة العامة وترشيد

سبل العمل والادارة فيها ؟ ولا شك أن غياب المنهج والتخطيط فى اى مجال من مجالات الحياة هو مسؤولية الجامعة بالدرجة الأولى ، فهل التقصير من الجامعة أم من المجتمع ، انها قضية تحتاج الى وقفة ودراسة ، وتأمل .. ؟!!

ان الجامعة هى عقل المجتمع وضميره ، وبقدر حرصنا على المجتمع يجىء نقدنا للجامعة ، حتى تقوم بدورها المنشود فى خدمة المجتمع وتطويره ، واذا كنت قد ركزت على بعض السلبيات ، فذلك يرجع الى الحرص الشديد على مستقبل المجتمع من خلال الجامعة ، لأننا نريد جامعة افضل من أجل مستقبل أفضل للانسان العربى فى مصر .. وفى البلاد العربية كافة .

الجامعـــة ..

من أين .. والى أين .. ؟!

مع موسم النتائج الدراسية .. ونهاية العام الجامعى تتطلع القلوب والأبصار نحو قبة الجامعة المهيبة ، لكى نقوم حصاد عام مضى ، ونعد العدة لعام قادم ، لأن الجـــامعة تمثل قمة الهرم التعليمى ، الذى يعد شباب الأمة لتحمل المسؤولية فى مجالات الحياة كافة . ومعنى هذا أن الجامعة من المجتمع بمثابة القلب من الجسد ، ومن هنا فان العناية بأمور الجامعة — هى فى حقيقة الأمر — عناية بالمجتمع الكبير .. الذى نطمح جميعا نحو تغييره وتطويره وتنويره .

وحين نتأمل مسيرة الجامعة فى السنوات الأخيرة ، نجد أنها قد شهدت حركة واسعة ، ودخلت عليها نظم لم تعهدها من قبل ، وفرضت عليها بعض القوانين ، التى لم تستشر الهيئة التدريسية فيها .. ويمكن أن نشير — فى ايجاز — الى اهم القضايا الطارئة التى أحدثت قدرا من الاضطراب فى حركة التعليم الجامعى وهى :

١ ــ الانتساب الموجه :

فلسفة نظام الانتساب الموجه ، تقوم على قبول طلاب لم يحصلوا الا على الحد الأدنى لدرجات النجاح فى الثانوية العامة فى بعض الكليات النظرية مثل الآداب ــ والتجارة ــ والحقوق ، ومعنى هذا أن يتساوى ــ فى المكان والمكانة ــ الطالب الذى حصل على حوالى ٧٥٪ ، والطالب الذى حصل على حوالى ٥٠٪ ــ والذى يجيز هذا هو أن يدفع طالب الانتساب الموجه حوالى الف جنيـــه سنويا . وقد ترتب على هذا ــ بعد أن انتزع هؤلاء الطلاب حقهم فى حضور المحاضرات ، والاقامة فى المدن الجامعية ، وتوحيد ورقة الامتحان ــ ارتباك واضح للعملية التعليمية فى معظم الكليات ، التى فرض عليها هذا النظام .

وعلى الرغم من بعض التحفظـــــات على التعليم الجامعى (الخاص) .. فان تحويل أمثال هؤلاء الطلاب اليه افضل للجامعة من ضمهم ــ أو فرضهم ــ على زملاء ، لا يتســـــاوون معهم فى الامكانات الفكرية والقدرات التعليمية . ليت السيد وزير التعليم وأعضـــاء المجلس الأعلى للجامعات يوقفون هذا النظـــام قبل أن تستفحل اضراره ، فأن تعد كلية الف طالب بشكل جيد ، افضل الف مرة من أن تخرج عشرة آلاف مبتسرين علميا وفكريا .. !!

٢ ــ نظام الفصلين الدراسيين :

فرض هذا النظام بشكل مفاجىء فى بداية العام الدراسى ١٩٩٢/١٩٩٣ ، وقد أدى تطبيقه السريع الى قدر من الاضطراب والفوضى فى العملية التعليمية فى معظم الكليات ، التى استجابت لتطبيقه . ومن العجيب أن بعض الجامعات قد اخذت به وبعضها رفضته ــ بل ان كلية واحدة داخل جامعة القاهرة رفضت تطبيقه

وهى كلية الحقوق . ولاشك أن هناك نظامين للتعليم : الاول يسمى النظام التقليدى ــ الذى تستمر الدراسة فيه من أول السنة الى نهايتها . . ويكون هناك امتحان واحد فى نهاية السنة الدراسية ، وفى تقديرى أن هذا النظام أكثر ملاءمة لجامعاتنا المصرية ــ جامعة الطلاب الكثيرين والأســـــاتذة القليلين جدا . . وقد تكون النسبة ــ عندنا ــ عضو هيئة تدريس فقط لا غير لكل الف طالب فى معظم الكليات النظرية . والثانى : نظام الفصلين ــ والذى يسمى أحيانا بالنظام الأمريكى Creadit Hours ، وهذا النظام يحتاج الى طلبة قليلين واساتذة كثيرين ، لأنه يعتمد على اختيار الطالب للمادة والأستاذ ، فالمادة الواحدة تطرح فى كل فصل . . وتقسم بين اكثر من أستاذ أو عضو هيئة تدريس .

نظام الفصلين اذن يحتاج الى مدرجات كثيرة ، واســــــاتذة متعددين ، حتى داخل التخصص الدقيق الواحد ، وطلاب قليلين . ولا شىء من هذه الأمور ينطبق على معظم جامعاتنا .

ان اى نظام ــ فى حد ذاته ــ ليس خيرا او شرا . . المهم هو التطبيق . . والتطبيق على قدر الامكانات والظــروف ، لذلك أعتقد أن نظام الفصلين لا يناسب جامعاتنا المصرية . . وظروفنا المناخية والاقتصادية ، لذلك أرجو مخلصا أو نعيد النظر فى هذا النظام ، الذى لا يتناسب وظروف جامعاتنا المصرية ــ فى الوقت الحالى على الأقل .

٣ ــ فرض بعض القوانين الجامعية بشكل مفاجىء ، ودون العودة الى الهيئات التدريسية :

فوجىء اعضاء هيئة التدرذس فى الشـــــهور الأخيرة بتعديل قانون الجامعة ، وجعل منصب العميد بالاختيار ــ وليس بالتعيين ــ

كما كان معمولا به . ثم تلى ذلك قرار الغاء مكافأة المحاضـــــرات الزائدة عن النصاب ، الذى عمل به لمدة سنة واحدة ـ كأنما كانت المكافأة رشوة من أجل تمرير نظام الفصلين ، فلما استقر النظام ـ رضا أوكرها ـ سحبت الرشوة . وبالمناســــبة فان المرتبات والمكافآت الهزيلة ، التي يحصـــــل عليها أعضاء هيئة التدريس الجامعية هى السبب فى انفتاح باب الاعارة على مصـــراعيه .. يستوى ذلك فى أمور الراتب الشهرى ومكافآت الاشــراف على الرسائل والمناقشات ولجان الترقيات وحضور المجالس العلمية .. ليت المسؤولين على كافة المستويات يعيدون النظر في كل هذه القرارات .. فى ظل قانون الضريبة الموحدة . !!

٤ ـ جامعيون فى الهواء الطلق :

ربما كانت الجامعة هى المؤسسة الوحيدة ، التى ليست لها نقابة مهنية ـ بل ان نوادى اعضاء هيئة التدريس الموجودة حاليا غير مسموح لها ـ بحكم قوانين انشائها ـ بأن تمارس دورا مهنيا أو سياسيا . لست أدرى كيف يؤتمن أساتذة الجامعة على التربية والتعليم ، وتشكيل الفكر وتوجيه الضمير ـ دون أن نكفل لهم الحق الأدنى للمواطنة .. وهو الحق النقابى الفئوى .

ان تاريخ الجامعات المصرية تاريخ مشرف ، خط مثله وقيمه أساتذة عظماء مثل : احمد لطفى السيد ، ومصطفى مشرفة ،و على عبد الرازق ، وطه حسين ، واحمد امين ، وســــليمان حزين ، وابراهيم بدران ، ومأمون سلامة ، ومفيد شهاب . بل ان دور كثير من أساتذة الجامعة يتخطى الاطار الجامعى الى الحياة العامة مثل شوقى ضـــيف ورشـــاد رشـــدى وسهير القلماوى وعبد العزيز الأهوانى ، ومحمـــــد مندور وعبد العظيم أنيس ولويس عـــوض وعبد القادر القط .. وغيرهم الكثيرون .

ولاشك أننا اذا كنا نريد جامعات محترمة ، ذات هيبة وفكر متقدم ، فلنعط الجامعة حريتها واستقلالها ، والا تحولت الجامعة الى ادارة من الادارات الروتينية ، يقوم العميد / العمدة فيهـــا بكل ما يملى عليه من هنا أو هناك .. ويصبح لسيادة الوزير — رغم احترامنا له وللقانون الذى يمارسه — الحق فى أن يفعل ما يشـاء دون أن يترك الرأى للمجالس العلمية : القســـــم — الكلية — الجامعة — المجلس الأعلى — لجان الترقية .

ايها السادة اذا أردتم جامعات حرة ، مستقلة ، مستقبلية ، تنويرية ، فاتركوا أمر الجامعة للجامعيين .. اللهم بلغت .. اللهم فاشهد . !!

الظواهر الفنية فى القصة المعاصرة من خـــلال تجربتى الذاتية

لست ازعم انى اقدم بحثا عن قضايا القصـــــة القصيرة المعاصرة ــ فى مصر ، بقدر ما هى محاولة للبحث عن رؤية خاصـــة لهذا الفن المزدهر فى ادبنا العربى من خلال تجربتى الذاتية ، بحكم كونى واحدا من الأدباء النقاد ، الذين لهم قدر من الاسهام فى كلا المجالين . ومثلما اؤكد ان هذه ليست سوى محاولة ، اعترف بأن الأديب ليس ــ بالضرورة ــ افضــــل من يتحدث عن تجربته .

١ ــ فى البدء كان الأدب :

علاقتى بفنون القص : استماعا وقراءة وكتابة ــ بدأت منذ فترة مبكرة من حياتى . ولا أود أن أكرر ــ هنا ــ بعض التفاصيل التى سبق أن ذكرتها فى أثناء الحديث عن سيرتى الذاتية (الليالى ــ

١٩٩٠) ، لكنى أريد أن أشير الى أننى عندما كنت فى السنة الأولى الثانوية (١٩٥٣) — كنت قد تجاوزت الخامسة عشرة بقليل — بدأت أكتب بعض المحاولات القصصية . وفى نهاية هذه السنة ذاتها كتبت ست روايات طويلة ، وطلبت من أسرتى أن تساعدنى ، لكى أذهب الى القاهرة ، لعرضها على بعض منتجى السينما .. (بالطبع كنت آمل أن أكون المؤلف .. والممثل أيضا لكل منها) . وفى نهاية المرحلة الثانوية انتهيت من كتابة أول مجموعة قصصية لى .. وفى الجامعة كتبت بعض المحاولات الروائية والقصصية ، وشاركت ببعض منها فى الجمعية الأدبية ، التى كانت موجودة فى الكلية ، ويشرف عليها بعض طلاب قسم اللغة العربية ، الذى أدرس فيه .. وقد ضاعت كثير من هذه المحاولات ، كما ضاعت كثير من أحلام الصبا والشباب .. !! وأتذكر — أيضا — أننى يوم قدمت رسالة الماجستير لأستاذتى د . سهير القلماوى قدمت معها مخطوطة رواية . وبالطبع كنت آمل أن تساعدنى على النشر ، لكنها لم تعرض المساعدة .. وبالتالى خجلت أن أطلب منها ذلك . وهكذا استمرت صلتى بفنون القص : قراءة وكتابة ، لكنى رغم كثرة محاولاتى لم أكن حريصا على النشر — لأنى لم أكن أعرف سبله ووسائله بحكم كونى من اقليم بعيد نسبيا عن القاهرة .. وهو المنصورة . وهكذا ظلت علاقتى بالقصة مستمرة .. ولم تكد تنقطع طوال الفترة من ١٩٥٣ الى ١٩٧٣ .. أى الى ما بعد حصولى على الدكتوراه .. وقد شكل العمل فى الجامعة عبئا آخر ، حال دون الحرص على النشر .. وآثرت أن أعطى العمل الأكاديمى — فى تلك المرحلة — كافة جهودى واهتماماتى .

أردت من خلال هذه الاطلالة — أو Flash Back — أن أحدد موقعى التاريخى على خريطة كتاب القصة فى مصر .. ذلك أنى واحد من كتاب « جيل الستينيات » — رغم أن أول قصة نشرت لى سنة ١٩٧٣ (فى مجلة « روزاليوسف » — العدد ٢٣٤٧

فى ٥ يونيو ١٩٧٣)(١) .. وبالطبع ليس مهما أن يكون الكاتب محسوبا على جيل ما ـــ بقدر ما تناط الأهمية بقيمة ما كتب .. كذلك أسجل هذه الحقيقة ، لأن البعض يظن أنى بدأت ناقدا ، ثم تحولت الى أديب .. فى حين ان الأدب هو الأصل .. وهو البدء وآمل أن يكون مسك الختام .. !!

وقد توالى انتاجى القصصى والروائى منذ سنة ١٩٧٦ .. ولم يكد يتوقف حتى اليوم : كتابة ونشرا . وقد كتبت خلال هذه المرحلةخمس مجموعات قصصية .. وثلاثروايات .. والجزء الأول من سيرتى الذاتية . وسوف يكون الحديث فى هذه المقالة مقتصرا على تجربتى فى مجال « القصة القصيرة » . لكنى بحكم مشاركتى الأدبية فى القصة والرواية أود أن أذكر حقيقة ـــ أرجو الا تكون صادمة .. أو على الأقل مفاجئة لمن يعيها أول مرة ـــ وهى انه منذ جيل الستينيات ، قد ظهر عندنا جيل جديد فى مجال الرواية ، يختلف كثيرا فى رؤاه وتكنيكه عن نجيب محفوظ .. اى أن هذا الجيل قد تجاوز « **الشكل المحفوظى** » ، وبقدر ما تأثر بهذا الكاتب العظيم .. فانه قد أعطى نفسه الحق فى أن يجدد فى أطر البناء وعناصر التشكيل . اننى وابناء جيلى قد استفدنا كثيرا من قواعد اللعبة الروائية ـــ كما قدمتها عبقرية نجيب محفوظ الخصبة ، خاصة وأن أعماله كانت تشكل « مؤسسة » مثل مؤسسات القطاع العام ـــ الذى حرصت حركة يوليو ١٩٥٢ على تثبيته وفرض هيمنته البطرياركية . ولكن هذا الجيل بقدر ما تأثر بمحفوظ ، فقد أثر فيه بشكل أو بآخر .. ولا سيما بعد مرحلة « الواقعية الفلسفية » ـــ التى تبدأ برواية « أولاد حارتنا » سنة ١٩٥٩ .. وما تلاها بعد ذلك من أعمال مثل : اللص والكلاب ـــ الشحاذ ـــ

---

(١) قصة « باب الخلق » فى مجموعة « عمار يا مصر » ص ١٥٣ .

ثرثرة فوق النيل ــ ميرامار .. وسـوف يبدو تأثر محفوظ بحركة جيلى ــ بشكل واع .. او غير واع ــ فيما سوف يظهر له من اعمال بعد ذلك .. هذه حقيقة مؤكدة .. ولكن الحـديث الآن ليس عن الرواية ، لذلك نثبت هذه القضية .. وقد نعود اليها فى مناسبة تالية ..!!

وكما سيطرت التجربة المحفوظية فى مجال الرواية ، فرضت نفسها أيضا « **الطريقة الادريسية** » فى مجال القصة القصيرة . واذا كان محفوظ قد استطاع أن يثبت دعائم الرواية الواقعية ، فان يوسف ادريس قد استطاع أيضا أن ينقل بناء القصة القصيرة نقلة كبيرة على مستوى التكنيك والرؤية ، حيث تحقق لها على يديه معنى « القصر » بالمفهوم الفنى ، حيث صارت تركز على لحظة خاطفة فى حياة انسان بسيط ، وتتفجر منها دلالات عميقة ، أى أن أهم ما يميز تجربة ادريس هو الحساسية عالية الدرجة باللحظة الانسانية المقتنصة ، لتكون محورا لبناء القصة ، واذا كانت تحكم روايات محفوظ رؤية سوداوية متشائمة للواقع ، فان ادريس كان يصدر فى قصصه عن رؤية اكثر تفاؤلا للواقع .. وأقوى ايمانا بانسانية البشر .

ونستطيع ان نلخص تجربة ادريس فى انه قد تمكن من أن يطهر بناء القصة من الثرثرة والحشو ، كما برع فى اختيار اللحظات التى تعبر عن موقف فى حياة انسان بسيط ، لم يفقد أمله فى الحياة ــ رغم شقائه بها . ومن ثم فان القصة عنده .. لدغة عقرب .. موجعة ومؤثرة .. وذات علاقة وثيقة بحياة كثير من الشخصيات المسحوقة فى المجتمع التى لم يسـتطع الفقر المادى والقهر الاجتماعى أن يمحوا ما فيها من بعد انسانى .

ولكن ادريس ــ رغم كل هذه الجوانب الايجابية ــ لم يهتم

كثيرا بتطوير عناصر البناء .. أو لغة القصة . وهذا ما حاوله — ونجح فيه الى حد ما — الجيل التالى له .. الذى أنتمى اليه .

وغاية ما أود التأكيد عليه هو أن الجيل التالى لادريس قد تأثر به .. لكنه ايضا ثار على النموذج الذى قدمه ، وحاول أن يطوره بدرجة فنية أعمق وأكثر شمولا .

***

٢ — حصاد العذاب .. الرؤية :

رغم كثرة الأعباء المهنية فى مجال العمل الأكاديمى : دراسة وتدريسا ، واشرافا ومناقشة لطلبة الدراسات العليا ، ورغم وطأة الأعباء الأسرية والعلاقات الاجتماعية والمشاركة فى الحركة الثقافية وبعض المؤتمرات الأدبية .. رغم كل ذلك فانى حريص — أشد ما يكون الحرص — على مواصلة الابداع والاستمرار فى الاستجابة لنداء الموهبة .

وقد نشر لى حتى الآن الأعمال التالية :

(أ) فى مجال السيرة الذاتية :

صدر الجزء الأول منها ، وعنوانه « الليالى » .. وقد ظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٩٠ .. والثانية سنة ١٩٩١ عن «مكتبة مصر» — بالفجالة — القاهرة ، التى تصدر عنها — الآن — كل أعمالى الابداعية .

(ب) فى مجال الرواية :

صدرت روايتان هما ، الأفق البعيد (١٩٨٤ — ١٩٩١)

و .. الممكن والمستحيل (١٩٨٧ — ١٩٩١) .. وهناك رواية ثالثة، وهى « الكهف السحرى » ، التى صدرت سنة ١٩٩٤ .

(جـ) فى مجــال القصــة القصــيرة :

صـــدرت خمس مجموعات هى : عمار يا مصر (١٩٨٠ — ١٩٩١) ، الدموع لا تمسح الأحزان (١٩٨٢ — ١٩٩١) ، حكاية الليل والطريق (١٩٨٥ — ١٩٩١ — ١٩٩٢) ، دائرة اللهب (١٩٩٠ — ١٩٩١) ، العشق والعطش (١٩٩٣) .

وهذه المجموعات تشتمل على **خمس وخمســين قصــة** (١١ + ١٥ + ٩ + ١٠ + ١٠ = ٥٥) .. « ولست أدرى ما الذى يدفعنى الى الكتابة بهذا الشكل المحموم .. كأنى موتور يطلب ثأرا ، أو محروم ، يعوض ما فقد من حرمان ، أو أسير طال سجنه ، وانفك عقاله صدفة ، فمضى ينشد حريته ، أو كأنى قد شل لسانى فترة طويلة ، وعادت اليه الروح فجأة فأنشأ يقول كلمته ، أو كأنى عين فنار ، تلمح من عل وعن بعد خطرا محدقا ، فتظــل تصـــيح .. وتصرخ .. ؟! »(٢) .

وهذه القصص تختلف من حيث الحجم بحسب طبيعة الموقف المعبر عنه ، وسوف يلحظ من ينعم النظر أن أطول هذه القصص يوجد فى مجموعة « عمار يا مصـــر » وهى قصة « فندق العالم الجديد » ، التى تقع فى احدى وأربعين صفحة .. وأقصر القصص يوجد فى مجموعة « الدموع لا تمسح الأحزان » وهى قصة « تغريبة ولد اسمه كرم » التى تقع فى خمس صفحات . بيد أن أغلب القصص — فى هذه المجموعات — يتراوح حجمه بين عشر وعشرين صفحة

---

(٢) الليالى .. ط مكتبة مصر ، القاهرة ، ص ٣٦٨ .

تقريبا . وهذا المقياس الكمى معيار تحكمى ، قد يشى باتساق عمل المخيلة فى حالة الابداع . ان الأدب لا يعرف « سرير بروست » ، وبالتالى فليس هناك مقياس تحكمى ، يفرض نفسه بشكل طاغ على مساحة التجربة الأدبية ، لأن كل عمل ابداعى رهين بظروف خاصة معقدة جدا .. واتساق الحجم قد يوحى بأن الأديب على وعى بمبادىء الفن وقـــواعد القص ، اذ ليس هناك فن بلا قانون .. الا فن المجانين .. !!

وهذا المعيار الكمى .. مهم جدا بالنسبة لتحقق فنية القصة القصيرة المعاصرة ، لأنه مضى حين من الزمان كان كتاب القصـــة القصيرة ، يقدمونها على أساس انها رواية مختصرة .. أو يزيدون فى حجمها دون وعى بالضوابط الفنية ، لدرجة أن بعض النقـــاد يحددون حجمها بالكلمة .. ويشترط بعضهم الآخر ان تقرأ فى جلسة واحدة(٣) .

وهذه القصص تصـــدر عن **رؤية واقعية متنوعة الدرجة** ، متفاوتة الملمح ، لكنها جميعا تتفق فى أنها تعبير عن رؤيا الانسان البسيط ــ فى القرية والمدينة .. فى مصر والعالم العربى .. بل قد تتجاوز ذلك الى الشرق الأقصى فى الصـــين والفلبين وفيتنام أحيانا ــ ذلك الانسان ، الذى يحلم بالعدل والحرية ، ويقاوم القهر والفقر ، ويبحث عن لحظة عشق ولقمة عيش . وقد نلمح أصداء ذلك فى هذا الجزء من الحوار بين ماى اين واحمد بطلى قصـــة « فندق العالم الجديد » :

ــ « على أرض فيتنام كانت طفولتى التعيسة . طلقات المدافع والقنابل مازالت ترعبنى حتى الآن .

---

(٣) الطاهر مكى : القصة القصيرة ، دار المعارف ، ١٩٩٢ ، ص ٩١ .

— فى قرية صغيرة على النيل رايت نور الحياة فى اسرة كثيرة العدد قليلة الرزق .

— قتل احد الجنود الامريكيين ابى . لم اكن اعرف لماذا جاءت امريكا الى بلادنا ؟ امى العاملة الفقيرة دمرت الحرب المصنع ، الذى كانت تعمل به ايضا . كنا — انا وامى — نعيش احيانا بلا ماء ولا طعام لعدة ايام .

— ولدت ايام الحرب العالمية الثانية .. كانت قريتنا تزرع القطن ولا تلبسه ، والقمح ولا تأكله .. كنا نحارب مع الانجليز ضد الالمان ، ولم تكن لنا مصلحة مع اى منهما .

— اكلت الحرب كل شىء فى بلادنا . .الرجال .. النساء .. الاطفال .. الزرع .. الحيوانات الاليفة والمتوحشة .. الطلقات كانت طائشة تحرق حتى الاحجار .

— انتهت الحرب .. واسودت الأيام اكثر .. اختلفت اسماء اللصوص من الداخل والخارج ، لكن قريتنا كانت رغم الخضرة فقيرة . كنت اسير بجلباب ممزق وآكل الخبز الأسمر مع الماء . كنا جميعا نجوع ، ونصلى .. والعمدة يأكل اللحم ويلبس الحرير ، ولا يصلى .

— حملتنى امى وسارت فى الليل .. تشققت قدماها وهى بعيدة عن النار ، كانت تعبر بى من نهر الى جبل الى مستنقع .. لكن دوى المدافع كان مسموعا . كنا نتغذى على الخوف ، ونحلم بالأمان المستحيل .

— كل اخوتى فلاحون .. لم اكن اذكاهم ولكنى الوحيد ، الذى دخل المدارس . بدات افهم الحياة .. واعرف اللصوص .

فى الجامعة شاركت فى السياسة .. هتفت للحرية والعدل ، وقلت الشعر أغنيات فى حب مصر »(٤) .

وفى كثير من قصصى تصارع الشخصيات من أجل الحرية بمعناها الشامل ، لذلك يقول الراوى على لسان عنتر بطل قصة « عندما ينزل المطر » ذلك العامل الفقير ، الذى شارك فى حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، وحين عاد وجد شيخ البلد قد خطب حبيبته فايزة لابنه — دون رضاها ، فأصر على أن يحارب مرة ثانية .. ولسان حاله يرى ان «الحب .. والحرب وجهان لعملة واحدة هى الحرية . اذا كنت تحب فحارب من أجل حبك .. واذا كنت تحارب ، فأحب ما تدافع عنه »(٥) .

ورغبة فى أن يتحول الحلم الى فعل ، ذكرت فى اهداء المجموعة الثالثة : « الى الأشقاء الغرباء .. أملا فى لقاء .. يفجر صمت الأشياء » .

***

ان الواقع فى كثير من قصصى يتحول الى صخرة عاتية ، يحركها اعداء الحياة وسارقو الأمل وخفافيش الظلام ، وهذا الواقع قد يدفع بالشخصيات الى الجنون والعبث .. أو الاغتراب والاكتئاب .. أو التحدى والمواجهة ، لأنها تؤمن مثل نورة بطلة قصة « حكاية الليل والطريق » .. أن « من يضع حبلا فى رقبته ، فسوف يجد ألفا يجرونه »(٦) .

والمجموعات الثلاث الأولى — (عمار يامصر — الدموع لا تمسح الأحزان — حكاية الليل والطريق) — يغلفها قبس من الايمان النبيل

---

(٤) راجع بقية الحوار فى : عمار يامصر ص ١٩٠ — ١٩٤ .
(٥) الدموع لا تمسح الأحزان ، ص ٥١ .
(٦) حكاية الليل والطريق ، ص ١٠٣ .

بقدر الانسان/بطل القصص — على الحركة الايجابية والتفاؤل المشرق رغم قسوة الواقع وعدوانية البشر .

ولكن الرؤية تزداد قتامة والقدرة على المواجهة تتحول الى عجز وعبث فى المجموعة الرابعة . **واذا كان الانسان عند (كافكا) يتحول الى كلب ، فانه فى بعض قصص هذه المجموعة يصبح (صرصارا)**. « تخيل ذلك الانسان ، الذى يتحرك طوال النهار فى المدرسة ، وقد أمسى صرصارا . لم تزعجه الوساوس ، فليست تلك هى المرة الأولى التى يحس فيها بالأرق والقلق والكبت . تحولت كل الأمنيات الطيبة الى وهم Illusion وعبث Abserd . طفق يتأمل صورة النجمة الجميلة . أحلام عبثية وحب من ورق . هذا الكون موبوء .. موبوء .. ليس هناك أمل .. اى أمل ، كانما أصابه السرطان .. أو الايدز ، حتى أمراض العصر أصبحت أمراضا خرافية ، لم يسمع بها من قبل »(٧) .

وهكذا يؤدى الاحساس بالعجز الى رؤية كابوسية للحياة ، حيث يصبح الانسان انسانا مع ايقاف التنفيذ ، لا يعرف الفرق بين اليقظة والنوم أو بين الصحو والسكر . وهنا تضرب أسوار الغربة والوحدة على الانسان ظلا من أوهام خرافية .. « وقفت حائرا ، بينما ناس يجدون فى الطين بحثا عن شىء عزيز مفتقد . فجأة تطاول كائن خرافى ، وشرع يصيح : أيها الضائعون من ذاكرة الوجودة ، عبثا تبحثون بين الأطلال الغارقة فى حداد الخريف عن غد مشرق ، لكن الدموع الحزينة لا تعيد خبز الفقراء الأسود ، والاستسلام العاجز لا يحرر من قيود العار . ان « ست » قد نشر ذراعيه القاهرتين على الكون .. و « أوزوريس » مات .. « أوزوريس » مات .. !!

(٧) دائرة اللهب ، ط مكتبة مصر ، ص ٥٣ .

أيها السـائرون جياعا : على الأرض الخراب ، وفى الناس المذلة »(٨) .

وفى المجموعة الخامسة تصبح الحقائق البسيطة أكثر اثارة للدهشة ، وعلى هذا تكون الواقعية فيها أقرب الى ما يمكن تسميته بالواقعية البدائية أو السحرية ، التى تقدم الموقف القصصى فى صورة قريبة جدا مما هى عليه فى الحياة .. دون روتوش أو مكياج أو تجميل ، حيث نرى لوحات قصصية تشدنا الى عالم بكر ، تحركه دوافع فطرية بسيطة دون حياء أو خجل . وهذه الطزاجة فى التصوير ، قد لا تخلو من دلالات رمزية مكثفة . ان تلك المجموعة تعزف بآلة حادة على أوتار من حرير ، وهنا موطن الخصوبة ومكمن الرمز ، حيث تتشكل البنية القصصية على قدر من التقابل والسخرية والمشترك اللفظى والتجانس الصوتى ، وهذا ما تثيره منذ الوهلة الأولى عناوين القصص . من هنا يمسى يوم الفرح ليلة المأتم فى قصة « أبوح يا أبوح » .. « وبدلا من أن يدخل حمدى الدار الجديدة حاملا عروسه الجميلة ، دخلها حاملا جثة أمه المسكينة . تذكر فى تلك اللحظة المدمرة .. أباه الذى مات وهو صغير .. فقير ، وشبابه الذى اغتالته ليالى الغربة ، وأحزان أمه — يوم سافر .. ويوم عاد .. ويوم بنى الدار الجديدة .. أمى .. يا أمى هل أنت التى أضعتنى ، أم أنا .. أنا الذى أضعتك ؟ لماذا تركت الوطن وسكنت الكفن ؟ ولم اخترت يوم الفرح موعدا للرحيل »(٩) .

ويعانى البشر فى هذه المجموعة من الرغبة والعجز فى آن واحد ، اذ يملكون الرغبة ، ويفقدون القدرة .. « العجز فى بعض المواقف أمر مقدور عليه . لكن هذا الصنف من العجز .. صعب ..

---

(٨) دائرة اللهب .. قصة « الأطلال » ، ص ١٤ .
(٩) العشق والعطش . ص ١٤ .

مدمر .. أنه عجـــز يجعلك أضـــعف من برغوث وأعجز من نملة .. !! »(١٠) .

وهكذا نحس من خلال قصص المجموعة أن العالم قد أصبح يتحرك بمنطق « حادىبادى » .. كما أن الكثيرين أصبحت حالتهم « سداح مداح » .. ولم يعودوا يدركون « ألف باء » الوجود ، فصاروا فى الحياة مثل « الغشيم والحريم » و .. « السبب .. راديو اليابان .. ودولار الأمريكان . من يصدق أن قرية كفر بدواى ، التى ليس لها مكان على الخارطة ، أصبح الدولار يباع فيها على عينك يا تاجر »(١١) .

وهكذا تقدم هذه المجموعة عالما مضطربا غريبا .. لذلك «احس يوسف أنه فأر مطارد .. تطارده الكلاب السوداء ، التى اعتدت على سحر . اللعنة على الكلاب .. واولاد الكلاب . هذا زمن مر .. لا يستطيع أن تفرق فيه بين البشر والكلاب .. أحيانا رؤوس الكلاب على أجساد البشر .. وأحيانا رؤوس البشر على أجساد الكلاب . لم يعد أحد يسمع أو يقول . لم يعد هناك خير .. أو حب أو تفاهم . الفقير يقتله الحياء .. والغنى يبتلع كل الأشياء »(١٢) .

ورغم قسوة العالم .. وانداح المعالم .. فى قصص المجموعة فان الشـــرفاء مازالوا يؤمنون بأن « هناك أمورا ، لا تباع .. ولا تشترى .. ولا تعوض .. !! »(١٣) .

وعلى هذا .. فقد كنت على حق حين ذكرت : « لاشك انى كاتب .. ملتزم ، صاحب قضية ، ولى رؤية أدبية خاصة ، تتجاوز

---

(١٠) العشق .. والعطش ، ص ١٠٢ .
(١١) العشق .. والعطش ، ص ٣٤ .
(١٢) العشق .. والعطش ، ص ٦٨ .
(١٣) العشق .. والعطش ، ص ١٩ .

هموم الانسان المصرى ــ احيانا ــ كى تتواصل مع هموم الانسان العربى . لكن لا تسألونى عن هوية تلك القضـــية .. فأنا معذب تحرقنى الكلمات ، ومستجير تهزه الصيحات ــ صيحات من يبحثون عن كسرة خبز فى أرض جدباء ، وينشدون لحن الحرية فى أذن صماء ..!! » (١٤) .

* * *

٣ ــ الظـــواهر الفنيـــة :

(أ) ــ لعل اهم القضايا التى تثيرها القصة القصيرة المعاصرة، هى قضية الظواهر الفنية ، التى تشكل عناصر بنيتها النوعية .. وهذه الظواهر الفنية الجديدة ، التى تميز القصة لدى معظم كتابنا المعاصرين يمكن اجمالها فى قضية كبرى واحدة ، هى : **البعد عن «الشكل التقليدى»** ، الذى كان يميز القصة فى مراحل أدبية سابقة. ان كثيرا من رواد القصة فى مصر ، قد تأثروا بالشكل الأوربى ، وتمسكوا بما يسمى « **الحبكة الموباسانية** » ، التى تلتزم بأن يكون لكل قصة .. مقدمة تمهيدية .. ووسط تتعقد فيه الأحداث وتتصارع الشخصيات .. ثم خاتمة مضيئة ، تحدد مصير الشخصيات ، وتضع نهاية مفهومة للحدث ، لذلك تقترن النهاية بما يسمى « لحظة التنوير » (Moment of Illumination)، وهى « النقطة التى تتجمع فيها وتنتهى اليها خيوط الحدث كلها ، فيكتسب الحدث معناه المحدد ، الذى يريد الكاتب الابانة عنه »(١٥) .

وقد ثار معظم كتاب القصة المعاصرين على هذا الشكل التقليدى الوافد ، المتأثر بالقصة الفرنسية والروسية الى حد كبير ، وأصبحوا

---

(١٤) الليالى ، ص ٣٦٩ .

(١٥) رشاد رشدى : فن القصة القصيرة ، ط دار العودة ، بيروت ، ص ٨٢ .

يميلون الى **التفتيت المقصود لمراحل تطور الحدث وعدم الحرص على تنسيق عناصره** . وهذا التفتيت (Atomization) المقصود للحدث القصصى ، يواكب استبدال الزمان النفسى الدائرى المتقطع بالزمان التاريخى التقليدى .

وهناك قصة عنوانها « اغراء اليأس » (١٩٧٧) فى مجموعة « عمار يامصر » .. وهى تتكون من عشرة مقاطع ، يتشكل الزمان فيها على النحو التالى :

ماض — ماض — حاضر ، ماض — حاضر — ماض — ماض — ماض — حاضر — حاضر — ماض — حاضر .

اى ان بنية القصة تتشكل من :

ثلاث فقرات : يدور الحدث فيها فى الزمان الماضى .

خمس فقرات : يدور الحدث فيها فى الزمان المضارع .

فقرة واحدة : تمزج بين الماضى القريب والماضى البعيد .

فقرة واحدة : تمزج بين الحاضر والماضى .

وهذا التضافر فى عناصر الزمان ، يعكس مزجا تركيبيا لأحداث القصة ، وبالتالى فانه يؤكد وحدة الموقف الانسانى المعبر عنه .

ولا اريد أن أطيل فى الكلام عن تجديد البناء القصصى بدرجة تقترب فيه بنية القص من حيوية الدراما وحركة التمثيل . وانما أرصدها ظاهرة عامة كبرى ، تستوعب كل ما يمكن أن يقال عن معالم التجديد فى بنية القصة المعاصرة .



(ب) ـ الــــــراوى .. والمنظـــــور :

الراوى .. هو الذي ينوب عن الروائى (أو القاص) فى رواية أو سرد أحداث النص. ووجود علاقة على مستوى الاشتقاق اللغوى بين هذه المفردات : روى ــ رواية ــ راوى ــ روائى .. يؤكد العلاقة القوية بين هذه الكلمات أو المصطلحات القصصية . وقد ظهرت شخصية الراوي فى فنون القص منذ النشأة ، ومع أن الراوى يبدو مختفيا وراء ما يروى .. فانه يمثل شخصية (اعتبارية) مهمة ، لأن هناك علاقة للراوي « بما يروى .. وبمن يروى . وبما يستخدمه من تقنيات تساعده على تجقيق روايته ، اي على اقامة تركيب لغوى فنى » (١٦) .

والراوى .. هو الذى يشكل العمل القصصى تشكيلا فنيا مقبولا .. أو غير مقبول ، كما أنه هو الذى يحدد المنظور ــ أو وجهة النظـــــر ، الذى يريد الروائى طرحها من خلال النص ، لأن « المادة القصصية لا تقدم مجردة أو فى صورة موضوعية تقريرية ، انما تخضـــــع لتنظيم خاص ، منبثق من المنظور ، الذى ترى من خلاله »(١٧) .

ومعنى هذا أن الراوى هو الذى يحدد أسلوب تقديم المادة القصصية وطريقة صياغتها .. وبالتالى فإنه قد يشكل معيارا لنجاح العمل القصصى أو فشله .

والقصة المعاصرة فى مصر توظف كثيرا شـــخصية الراوى ــ العليم بكل شىء فى الغالب ، والذى يروى الأحداث بضــــمير

---

(١٦) يمنى العيد : الراوى .. الموقع والشكل ، ط مؤسسة الأبحاث ، بيروت، ص ١٠ .

(١٧) سيزا قاسم : بناء الرواية ، الهيئة المصرية ، القاهرة ، ص ١٣٠ .

الغائب (هو) ، الذى يعد أنسب الضمائر لغويا للتعبير عن مواقف القص والحكى . والتغير الذى طرأ عندى .. وعند كثير من الكتاب المعاصرين فى توظيف هذه الشخصية ، هو تقديمها بطريقة غير مباشرة لا تشى بوجودها ، ولا تجعل القارئ يشك — لحظة — فى أنه موجود .. يعلق على ما يقص . لقد كان الراوى فيما قبل يظهر بصورة مباشرة .. ويؤكد فى بعض أجزاء العمل أنه يعرف أكثر مما تعرفه الشخصية التى يصورها ، بل قد يتطوع — أحيانا — ليحذر الشخصية من عاقبة عمل تنوى فعله . ولكن الراوى فى معظم القصص المعاصرة لا يبرز صوته .. ولا يحاول أن يظهر أنه يعرفه أكثر مما تعرفه الشخصية ، ومعنى هذا أن رؤية الراوى .. ومعرفة الشخصية متقاربتان — الى حد كبير — رغم أنه قد يرى بعين الشخصية ، ويقص ما حدث لها .

وخفوت صوت الراوى — فى القصة المعاصرة — يدل على قدر من الفنية .. والديمقراطية فى آن واحد ، لأن معنى ذلك ان الراوى يترك موقعه لشخصيات عالمه القصصى ، لتعبر عن نفسها فى حدود الادراك والوعى المنوط بها .

وهذا مشهد من بداية قصة « الأطلال » حيث ان الراوى هو بطل القصة .. أى أن البطل والراوى قد توحدا فى شخصية واحدة ، وهنا يمكن أن نقول : ان الراوى قد تنازل — طوعا — عن موقعه للشخصية الرئيسية فى القصة ، التى تروى الحدث من خلال ضمير المتكلم : « مشيت وشـــــاطئ البحر الكبير الى حيث تجرنى قدماى . متعة أن تسير بلا هدف . قطعت مائتى كيلو متر سعيا الى رأس البر ، بعيدا عن زحمة العاصمة .. وعن كل من أعرف . قضيت ليلة سعيدة . لا أدرى كم نمت ، يكفى أنى نمت حتى شبعت . فى النهار أكلت .. وقرأت الجرائد .. كل الجرائد ، حتى صفحة الوميات قرأتها . كنت حريصا على قراءة كل الأسماء

والترحم على الموتى ، الذين لا أعرفهم . الساعة تجاوزت العاشرة بقليل . الموج يشدنى الى حيث يلتقى البحر بالأفق المجهول . أحيانا أختلس نظرة الى المصطافين ليلا ، لكن ما ألبث أن أعود الى صوت الأمواج وحركتها المزبدة . املأت رئتاى بهواء نقى ، يجمع بين الطهارة والبكارة .. البكارة التى نفتقدها فى المدن الحجرية »(١٨) .

من خلال هذا الجزء نجد أن الكاتب قد أخفى صوت الراوى كلية ، وترك الشخصية تعبر عن نفسها بحرية وانطلاق . ان حركة الحياة لم تعد تحتمل علو الصوت .. أو الجهر به ، ومن هنا صار صوت الراوى هامسا .. أو غائبا .. ولم يعد يفسر أو يعلق على الأحداث أو المواقف .. وانما ترك للقارىء حرية اكتشاف المغزى ومعرفة الدلالة .

وعلى نقيض من ذلك **هناك مجموعة من القصص يبرز فيها صوت الراوى** .. ودوره بوضوح وجلاء بأسلوب مباشر ومقصود ، وهذا يحدث حين يمزج الكاتب بين أسلوبى القص الحديث والحكى الشعبى القديم .

ان هناك محاولات فنية كثيرة ، تبذل لربط القص المعاصر .. ببعض أشكال القص الفصيح القديم .. وببعض عناصر الحكاية الشعبية . أنها محاولة جادة للتأصيل .. تأصيل أسلوب القص ، بحيث يجمع بين سمات الجديد والقديم فى وحدة فنية متآلفة ، توحد بين القديم الموروث والجديد الوافد . وهذا موجود على سبيل المثال فى القصص التالية : حكاية شرخ فى الجدار — مواقف مجهولة من سيرة صالح أبو عيسى — حكاية معروف الخفير والراعى الفقير .. فى مجموعة « حكاية الليل والطريق » .. وقصة

---

(١٨) دائرة اللهب .. قصة « الأطلال » ، ص ٤ .

« البالونة » فى مجموعة « الدموع لا تمسح الأحزان » .. وقصة « القمر والقدر » فى مجموعة « العشق والعطش » .

وفى احدي القصص — التى تمزج بين اسلوب القصة والسيرة الشعبية — نجد صوت الراوى ووظيفته واضحتين منذ البداية : « يقول الراوى المغلوق فؤاده من فعل الأنذال ، ومن تغير الأحوال : يا سادة ياكرام ، صلوا على المصطفى خير الأنام . أروى لكم مواقف مجهولة من حياة راعى الأغنام الطيب صالح أبو عيسى .. الشهير بصالح أبو زعبوطين ، وصالح هذا يا سادة قد يكون أخى أو أخاك .. وقد يكون أنا أو أنت ، فسبحان علام الغيوب ، ومفرج الكروب »(١٩) .

فالراوى هنا يفصح عنه أسلوب القصة بشكل واضح .. كما يستخدم بعض اللوازم الفنية التى كان يوظفها راوى الحكاية الشعبية ، من : الصلاة على النبى — ذكر الهدف من الحكاية قبل ان تحكى — التعليق على بعض أجزاء الحدث — لوازم السجع — المزاوجة بين النثر والشعر — التأثر بالموروث الدينى .. وهذا كله متحقق فى القصص التى اشرت اليها سابقا .

وعلى هذا فان تطوير شخصية الراوى — باعتبارها عنصرا بنائيا مهما من عناصر بناء القصة المعاصرة — يعد أحد الظواهر الفنية الجديدة ، التى طرأت على بنية السرد القصصى .. وقد ذكرت أن هذا التطوير قد يكون : بالانكماش واخفاء دوره تماما .. أو التضخيم وابراز دوره بشكل مباشر ومقصود .



---

(١٩) حكاية الليل والطريق ، ص ٢٢ .. قصة « مواقف مجهولة .. » .

(ج) ـ التنـــــــاص (Textuality) :

كان بعض كتاب القصة يرون أن لغة الفن القصصى لا تحتاج الى ومضات بلاغية فى التعبير ، لأن بلاغة القص تتحقق بشكل آخر : فى مجال حبك تفاصيل الحدث .. واحكام نسج مكونات الشخصية ..والعناية برصد عناصر المكان وحالات الزمان .. ولكن بعض كتاب القصة المعاصرة ــ ونقادها ــ يرون ضرورة العناية بلغة الفن القصصى ، فالقصة فن من فنون القول .. وبناء على هذا يجب أن يولى الكتاب عناية بلغتها فى مجالى السـرد والحوار على حد سواء ، ولذلك أيضا يشترطون ضرورة أن تكون لغة الحوار بالفصحى المألوفة .

ولا ريب فى أن أى حديث عن ظواهر جديدة فى القصة ــ أو غيرها من الأنواع الأدبية ــ هو فى جوهره حديث عن (اللغة) .. فاللغة هى الرحم ، الذى ينمو فى داخله كل عناصر تشكيل العمل الأدبى . وحتى يثرى كتاب القصة لغتها لجئوا الى التضمين .. أو التناص .. من مجالات سابقة ، لأن العمل الأدبى يكتسب قوة دلالية بقدر قدرته على الاستفادة من النصوص السابقة عليه . وهذه النصوص المتضـــمنة تصبح جزءا من بنية النص الجديد ، وتحقق له وظيفة مزدوجة ، فهى من ناحية تمثل جزءاً من نسيج العمل الجديد .. ومن ناحية أخرى لاتزال تحمل قوة تعبيرية متجددة من سياقها المسبق .

ولاشك أن هذا النص المقتبس محكوم له سلفا بالجودة .. ومؤثر فى وجدان الجماعة ، من هنا فانه حين ينتقل الى سياق جديد ، يحمل معه كثيرا من ايحاءاته الفكرية والفنية فى آن واحد . **وهكذا تنتفى اغلوطة استقلالية النص الأدبى ، التى تتبناها بعض المدارس النقدية .**

يكفى هذا برهانا نقديا .. على أهمية توظيف التناص فى القصة المعاصرة ، ونأتى الى التطبيق . وهنا سوف نجد أن التناص فى أعمالى القصصية واسع ومتشعب الروافد .. فهناك تناص من الكتب المقدسة .. والشعر .. والأغنية .. والموال .. وأغانى الأطفال .. واستخدام بعض التعبيرات أو الكلمات الأجنبية . والأمثلة على ذلك فى قصصى واضحة جلية .. وليست فى حاجة الى استشهاد أو دليل ، لأنها تحتاج الى وقفة تطبيقية خاصة .

وهناك أمر حاورنى فيه أحد قرائى .. واعترض على تضمين **الشعر ، اذ كيف يجوز ان نمزج النثر بالشعر ،** فى حين أنهما أسلوبان مختلفان تمام الاختلاف . وقد ورد تضمين الشعر بشكل لافت فى قصة « حكاية معروف الخفير والراعى الفقير » ، كما نجد فى هذا الجزء من القصة :

.. « وأما محل إقامتى ياسيدى .. فلا مقام لى فى أى مكان ، لأن حياتى كلها حل وترحال ، ومنذ حددوا اقامتى ، وشوهوا هويتى ، فقدت كل شىء ، حتى الخاتم ، واسم الحبيبة ، لدرجة أنى فكرت فى الهجرة والرحيل ، متمثلا بالقول الذى قيل :

ونفسك فز بها ان خفت ضيما
وخل الدار تنعى من بناها

فانك واجد ارضا بارض
ونفسك لم تجد نفسا سواها

حتى هذا لم استطع أن افعله ياسيدى »(٢٠) .

---

(٢٠) حكاية الليل والطريق ، ص ٥٥ .

ولاشك أن الاعتراض يصبح فى غير محله اذا ما عرفنا أن الشعر يعد عنصرا بنائيا أساسيا من عناصر حكايات « الف ليلة وليلة «.. والسير الشعبية .. والمقامات .. والقصص التاريخى .. وغيرها . وهذا كله ان دل على شىء ، فانما يدل على أن بعض فنون القص فى تراثنا العربى : الفصيح والشعبى ، قد استعانت بنصوص شعرية ، وجعلتها تمثل جزءا أســاسيا من بنية النص القصصى . واذا كان بعض الكتاب المعاصرين يحاولون ربط القصة الحديثة بالتراث ، سعيا نحو نموذج يؤلف بين الجديد والقديم ، وبين الوافد والموروث .. فان توظيف التناص بعد عنصرا مهما فى هذا السبيل ، الذى يسعى — مخلصا — نحو تأصيل بنية خاصة للقص العربى .

* * *

(د) — التداخل بين الأنواع :

هناك سمة عامة تميز كافة الأنواع الأدبية المعاصرة ، وهى : الانفتاح بدرجات مختلفة بين كل نوع وغيره من الأنواع الأدبية . فالشعر مثلا قد تطور من الشكل العمودى الى شكل الحر . وأخيرا بدأ يظهر ما يسمى بقصدة النثر ، ولها متحمسون كثيرون حتى من الشعراء أنفسهم . وهناك من القصائد ما يمكن أن يوصف بأنه : قصيدة درامية .. أو ذات طابع ملحمى .. وهناك أيضا القصــة الشعرية . واذا كان الشعر — رغم ما قد يبدو له من قواعد صارمة — قد استعار هذه العناصــــر المختلفة من انواع ادبية أخرى .. فان فنون القص جميعا قد شاركت هى الأخرى فى مجال التأثير والتأثر بالأنواع الأدبية القديمة والحديثة على حد سواء . واذا كان من المعروف أن القصة تشترك مع المسرحية فى الحوار — فانها توسعت فيما هو أكثر من ذلك ، وهو انها حاولت أن تعطى

الحدث القصصى قدرا من الحركة والحيوية المطلوبة فى الحدث الدرامى . اكثر من هذا أنها اخذت من عالم المسرح خصائص بعض العناصر والمصطلحات التالية : الحدث ـ البطل ـ الصراع ـ الحبكة ـ العقدة .

كذلك اخذت فنون القص من مجال الشعر : التأنق فى الكتابة والحرص على جمال التعبير، والمحافظة على قدر من الايقاع والتناغم بين الجمل ، اى ان اسلوب التعبير القصصى يحاول أن يسترد بعض خصائص النثر الفنى فى التراث العربى ، لذلك يطمح بعض الكتاب المعاصرين الى تحقيق قدر من الشاعرية فى اسلوب القصة سردا .. وحوارا .

والقصة المعاصرة تحاول ـ أحيانا ـ أن تستعير بعض الوحدات الوظيفية ، التى كانت تستعين بها جدتها العجوز (الحكاية الشعبية) .. فى محاولة جادة لخلق نموذج قصصى معاصر ، لا يفقد صلاته بجذوره التراثية . كما نجد فى هذا الجزء الأخير من قصة « القمر والقدر » .. من مجموعة « العشق .. والعطش » :

« وضع قدميه على بداية الطريق . تمنى أن تعود أيام الفيضان ، وأن تغرق (ميت الغرقى) .. أو أن ينزل الله المطر . طوفان أو مطر .. طوفان أو مطر .. يا الله .. يا رب يوسف .. ورب كل المستضعفين . ذهبت أيام الطوفان .. ولكن الأمل مازال موجودا فى المطر . مطر .. مطر .. سوف ينزل المطر .. ويشرق

التمر .. ويورق الزهر .. وينبت الثمر .. وتعود سحر . سوف تطرح شجرة التوت العتيقة فى أرض والده .. توتة .. توتة .. وما فرغت الحدوتة ..

وصلوا على حضرة النبى

وكمان زيدوا النبى صلاة »(٢١) .

وعلى هذا فان القصة المعاصرة ، قد استفادت من خصائص بعض الأنواع الأدبية القديمة والحديثة ، من أجل أن تجدد نسيجها الفنى مستعينة فى ذلك بكثير من سمات الأنواع الأدبية الأخرى .. وهذا ما جعل القصة تسبق غيرها من فنون الكلمة ، واضطر كثيرا من النقاد ان يعترفوا بحقيقة **اننا نعيش « عصر القصة والرواية » .. وان فنون القص ، هى التى تقوم بدور البطولة فى مجال الأنواع الأدبية اليوم .. !!**

* * *

هذه بصفة عامة : اهم مظاهر التجديد فى القصة المعاصرة ، وان كان هذا لا ينفى أن هناك عناصر تجديدية أخرى سواء أكانت تتصل بعناصر بنائية قديمة مثل : الحدث — الشخصية — الزمان — المكان .. أم تشكل وحدات بنائية مستحدثة مثل : المفارقة ، والسخرية ، وشاعرية القص ، والحلم ، والرمز .. والاستعانة

---

(٢١) العشق والعطش .. قصة « التمر والقدر » ، ص ٧١ .

ببعض خصائص الفن التشكيلى ، والمونتاج السينمائى ، والأداء السيمفونى .. ولا ريب أن كلا من هذه الوحدات الفنية فى حاجة الى وقفة طويلة — لا تناسبها هذه العجالة .. كما أنى أود أن أترك المجال لغيرى ، حتى نسهم جميعا — بأداء ديموقراطى — فى بحث مجالات التجديد فى بنية القصة القصيرة المعاصرة .

* * *

وأخيرا .. فباعتبارى كاتب قصة .. أكثر منى ناقدا فى هذه المقالة ، أرجو أن أكون بهذا الجهد ، قد استثرت عنصر «التشويق» للقراءة .. أو الكتابة فى المجال الذى تحدثت عنه بايجـــــاز .. واختصار .. !!

درس فى العظمـــة

احمد شوقى وحافظ ابراهيم علمان من أعلام الشعر العربى الحديث ، ويندر أن يدور حديث عن واحد منهما دون أن يرد ذكر الآخر . ومن المصادفات العجيبة أن يتفقا فى المولد .. والوفاة ــ الى حد متقارب جدا، فشوقى (١٨٧٠ ــ ١٩٣٢) وحافظ (١٨٧٢ ــ ١٩٣٢) . كما كانا ينتميان الى مدرسة ادبية واحدة ، ويمثلان غاية ما وصلت اليه من نضـــج فنى ، تلك مدرســـــة الاحياء أو الكلاسيكية الحديثة ، التى اعادت تقاليد (عمود الشعر العربى) ، وردت للشعر روحه القديمة ، التى كادت تزهق خلال عصـــــور المماليك والاتراك . كذلك فان معظم نقاد المرحلة كانوا لا يتكلمون عن واحد منهما دون الآخر ، فعباس العقاد يبدأ كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى » بحافظ ويختمه بشوقى ، وطه حسين جعل عنوان كتابه « حافظ وشوقى » . اكثر من هذا تلازما أن كليهما تجرى فى عروقه الدماء المصرية والتركية ، لأن والدة حافظ ــ وهذا ما لا يعرفه الكثيرون ـــــ تركية الأصل . !!

من هذا كله يتضح مدى التلازم والتزامن والتشابه بين هذين الشاعرين الكبيرين. ومن المألوف أن يكون بين أهل الصنعة الواحدة — أحيانا — صراع ومنافسة وخلاف وخصومة . لكن هذا ما لم نسمع به قط بين هذين العملاقين ، كانما كبير المقام .. رفيع العماد، ينبغى أن يكون كبيرا — أيضا — فى أخلاقه وتصرفاته ، لا يصغر حتى لو صغر من أمامه . كما يقول المثل « الكبير كبير .. والصغير صغير .. !! »

وحين نفى شوقى الى اسبانيا (١٩١٤ — ١٩١٩) صاح ذات مرة من حرقة الشوق :

يا ساكنى مصر انا لانزال على
عهد الوفاء ، وان غبنا مقيمينا

هلا بعثتم لنا من ماء نهركمو
شيئا ، نبل به احشاء صادينا

كل المناهل بعد النيل آسنة
ما ابعد النيل الا عن امانينا

وقد اثرت هذه الصرخة الحزينة فى سويداء القلب ، فكتب حافظ يرد على صديقه شوقى قائلا :

عجبت للنيل يدرى أن بلبله
صاد ، فيسقى ربى مصر ويسقينا

والله ما طاب للاصحاب مورده
ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا

لم تنأ عنه ، وان فارقت شاطئه
وقد نأينا ، وان كنا مقيمينا

وحين عاد شوقى من المنفى (اغسطس ١٩١٩) كان حافظ اول الفرحين .. والمهنئين .. والمنشدين :

ورد الكنانة عبقرى زمانه
فتنظرى يا مصر سحر بيانه

وعندما جاء يوم المهرجان .. مهرجان مبايعة شوقى بامارة الشعر (ابريل ١٩٢٧) ، حاول كثير من خصوم شوقى أن يمنعوه عن الحضور ، لكنه حضر فى شجاعة الرجال .. لأنه كان يعرف أن رفيق دربه فى انتظاره ، وانه يعز عليه الا يراه مشاركا فى موكب فرحه .. وفرح مصر .. وفرح العروبة .. والعربية ، لكنه جاء — كالبدر — فى موعده منشدا :

بلابل وادى النيل بالمشرق اسجعى
بشعر امير الدولتين ورجعى

كما نجده فى القصيدة ذاتها يدافع عن شوقى، ويراه شاعرا لا يبارى ، لأنه سيف قاطع ، يصيب أنى يضرب .. ثم ينتقل بعد ذلك الى المقارنة بين حالى المجتمع والشعر فى القديم والحديث ، لكى يؤكد انه لا صلاح للشعر أو المجتمع الا بالأخذ بأسباب الحضارة الجديدة ، والوعى بما أصاب الحياة من تطور ورقى .

وقد مضى حافظ — أمام كل شعراء العربية — يطلب من قومه أن يتجاوزوا البكاء على الماضى ، الى ضرورة الوعى بالحاضر، حتى نرأب الشمل المتصدع ، ونعيد للأمة وحدتها ونهضتها . وهو يطلب من شوقى أن يدير شعره حول هذه الغاية النبيلة — وهى الدعوة الى اليقظة .. بعيدا عن احلام الأمس واوهام اليوم :

عرفنا مدى الشىء القديم ، فهل مدى
لشىء جديد حاضر النفع ممتع ؟!

لدى كل شـــعب في الحوادث عدة
وعدتنـــا ندب التراث المضـــيع

فيا ضـــيعة الاقلام ان لم نقم بها
دعـــامة ركن المشـــرق المتزعزع

وكان شوقى أيضا يكن لصديقه حافظ أسـمى معانى المحبة والوفاء .. وقد عبر عن ذلك فى مناسبات مختلفة ، الى أن جاء موعد الأجل ، وانتقل حافظ الى جوار ربه الكريم ، وظل أهل شوقى يتكتمون نعى صديقه عنه ، خوفا عليه من تأثير تلك الصـدمة الفاجعة . وبعد ان علم ، رثاه رثاء حارا صادقا فى قصيدة مطلعها :

قد كنت أوثر أن تقـــول رثـــائى
يا منصـــف الموتى من الأحيـــاء

لكن ســـبقت ، وكل طول ســـلامة
قـــدر ، وكل منيـــة بقضـــاء

وقد أشاد فيها شوقى بعظمة صاحبه وشاعرية قصيده ، وأن الخسارة فيه فادحة ، وأن ما تركه من تراث خالد على مدى زمان ـــ قد يضل ، لكنه لا ينسى فضل أولى الفضل ، فضمير الشعوب لا يموت .. كما أنه لا يصح ـــ فى النهاية ـــ الا الصحيح .. !!

على هذا القدر من نبل الأخلاق ، والسمو فى المعاشرة ، تبدو علاقة هذين الشاعرين الكبيرين ، حيث لم يحدث بينهما ما نشاهده اليوم كثيرا بين الزملاء ، وأهل الصنعة الواحدة من تنافس مشروع .. وحقد غير مشروع . وقد حرصت على تقديم هذه الصورة النقية للعلاقات الانسانية ، لعل فيها عبرة لأولى الألباب . الذين يقدرون الزمالة .. !!

رحم الله حافظ ابراهيم حين قال :

لا تحســـبن العلم ينفع وحـــده
ما لم يتـــوج ربـــه بخـــلاق

ورحم الله احمد شوقى حين قال :

انمـــا الأمم الأخــــلاق ما بقيت
فان همو ذهبت اخــلاقهم ذهبـــوا

امـــارة ..
تبحـث عـن أمـير

فى هذه الحياة الدنيا تحدث أمور ، قد يحار المرء فى تفسير دلالالتها وفهم اسرارها .. لكنه يكتشف فى النهاية أن الله — جلت قدرته — له فى صنع ذلك حكمة . ومن تلك الأمور العجيبة أن أحمد شوقى .. أمير الشعراء ، ولد فى ١٦ أكتوبر (١٨٧٠) .. ومات أيضا فى ١٤ أكتوبر (١٩٣٢) . وتلك لعمرى حكمة بالغة .. أن يموت انسان فى الشهر نفسه — بل فى اليوم ذاته — الذى ولد فيه .. !!

كما أنه عاش فى القرن التاسع عشر ثلاثين‌سنة .. وعاش مثلها — تقريبا — فى القرن العشرين .. انه توازن عجيب .. وتعادل مدهش . ولكن هكذا قدر الله — سبحانه — وما شاء فعل !!

ظهر شوقى فملأ الدنيا نشيدا ،و شغل الناس بشعره بين مؤيد .. ومعارض ، لكنه فى النهاية استطاع أو يتوج « اميرا

للشعر العربى » فى مظاهرة أدبية ، لم تحدث من قبل أو من بعد لشاعر غيره . فقد اجتمع شعراء الأمة العربية .. وبايعوا «شوقى» فى ٢٩ ابريل ١٩٢٧ .

وفى هذا المعنى يقول رفيق دربه حافظ ابراهيم :

امـــير القوافى قد اتيت مبـــايعا
وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

والسؤال الآن : لماذا بايعت وفود الشرق شوقى ونصبته « اميرا » لـ « امارة » الشعر العربى ؟ للاجابة على ذلك نقول : ان الشعر مبنى ومعنى ، أو شكل ومضمون . أما من حيث المبنى والشكل ، فان شوقى شاعر موهوب ، ونبتة شرعية فى حديقة هذه الأمة ، لأنك حين تقرأ ديوانه ، تحس أنك تتذوق « احياء » جديدا للتراث القديم بشكل عصرى رائع ، ولغة نقية مصفاة . ان الشعر العربى تراث (متصل الحلقات) متوارث السمات .. لذلك تدرك ــ حين تتذوق شعره ــ أنه ابن « شرعى » لدوحة باسقة من شعراء هذه الأمة الكبار . وحين تتأمل « معارضاته » الشعرية ، تحس انه لم يكد يترك شاعرا فذا فى تاريخ الشعر العربى ، الا استلهم روحه الفنية و « نفسه » الشعرى . وقد حافظ شوقى على تقاليد القصيدة العربية .. وسيطر ــ بقوة واقتدار ــ على معجم اللغة العربية ،بدرجة أقول معها : لو كان علمـــاء اللغة القدماء موجودين ، لدعوا الى أن يكون شعره مما يستشهد به . وهذه الناحية ــ ناحية الاعجاز مى الصياغة والاجادة فى التشكيل، هى شرط الفن وحده .. وبدونها لا تكون لأى قول مكتوب قيمة البتة . !!

الأمر الثانى : الذى جعل شعراء الأمة يتفقون على مبايعة شوقى بالامارة .. انه كان شاعر مصر .. وشاعر العرب ..

وشاعر الشرق .. وشاعر الاسلام ، انه مزيج متجانس من كل هذا وذاك .. فتاريخ مصر . ومجد العروبة .. وعظمة الاسلام .. وهموم الشرق ، تطل من ديوانه فواحة الأريج ، عاطرة الشذى . وقد عبر هو نفسه عن هذا المعنى قائلا :

رب جـــار تلفتت مصـــر توليه
ســـؤال الـــكريم عن جـــيرانه

بعثتنى معـــــزيا بمـــــآقى
وطنى ، او مهنئـــــا بلســـانه

كان شـــعرى الغناء فى فرح الـــ
شـــرق ، وكان العـــزاء فى احزانه

وان انس .. فلن انسى من شعره ما قاله فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ـــ وما أكثر ما قال فى هذا المجال .. وهو قصيدته العصماء :

ولد الهدى فالـــكائنات ضـــياء
وفم الزمـــــان تبســـم وثناء

الـــروح والملأ الملائك حـــوله
للدين والدنيـــا به بشـــــراء

والعرش يزهو ، والحظيرة تزدهى
والمنتهى والســـدرة العصـــماء

وحـــديقة الفرقان ضـــاحكة الربا
بالترجمـــان ، شـــذية غنـــاء

والوحى يقطر ســـلسلا من سلسل
واللوح والقـــلم البديـــع رواء

نظمت اسامى الرسل فهى صــحيفة
فى اللوح ، واســـم محمد طغراء

اســـم الجلالة فى بديع حــروفه
الف هنـــالك ، واســم طه الباء

*** * ***

ذلكم هو شوقى العظيم .. اشعر واشهر شعراء العربية فى العصر الحديث . ولولا حدود المقال ــ ما تركت الحديث عنه . لكنى اعود بعد ذلك الى شىء مهم اريد اثارته .. والحديث عنه :

لقد استجاب « أمير الشعراء » لنداء ربه . وتركت «الامارة» شاغرة مدة نصف قرن أو يزيد .. فهل عقمت الأمة ، واقفر سوق الشعر فيها .. وهل صمت الشعراء من بعده ؟ للاجابة عن ذلك نقول بحيدة وموضـــوعية : ان موكب الشعراء لم يتوقف .. !! وقد ظهر بعد شـــوقى قرابة الف شـــاعر او يزيد .. حقا انهم ليسوا فى مثل قامة شوقى ، لكنهم فى النهاية شعراء كبار فى كل قطر عربى .. وفى كل مكان يعمر بصوت « الضاد » شرقا وغربا . اقول مرة اخرى : ان لدينا شعراء كبارا فى كل الأقطار العربية ، بيد أن العناية بالشعر والشعراء قد تضاءلت ، ولم يعد كثير من الناس يهتمون بالثقافة الجادة والأدب الرفيع .

رغم كل ما نعانى منه من امور سلبية ، فان الأمل مازال قائما فى النفوس ، وادعو الله مخلصا ان تســترد هذه الأمة العريقة امجادها .. وتعيد للشعر امارته .. وتقدر أمراءه ، حتى نعطى شعراءنا بعض ما هم جديرون به من تقدير واعتبار .. !!

شـقائق النعمـان .. !!

انا من المعجبين بالفنان العربى (الشامل) دريد لحام ، لأنه استطاع من خلال المأساة ـ الملهاة .. أن يبكينا ويضحكنا فى آن واحد .. وقد سعدت به فى كل أعماله السابقة ، ســواء فى السينما حيث قدم فيلمى (الحدود) و (التقرير) أم فى مسرحيات : (ضيعة تشرين) و (كأسك يا وطن) و (غربة) و (مســرح الشو) . ان هذا الفنان يقدم فى معظم اعماله قضايا سياسية واجتماعية ساخنة ، بأسـلوب سـاخر ، ويجب أن نعرف أن (السخرية) خاصة سخرية الموقف ـ وليست سخرية الكلمة (التورية) ـ هى افضل واصعب أدوات الفن ، لان الفنان فيها يعرض الموقف ، ويسخر منه فى لحظة واحدة .

ان دريد لحام منذ ظهر بهذه الاعمال الجيدة الجادة ، خرج الينا بصورة شخص آخر ، يختلف عن دور شـخصية (غوار الطوشى)، التى طالما قدمها من قبل فى أعمال تليفزيونية ومسرحية.

ان هذه مرحلة مولد فنان عظيم مقتدر ، يملك كافة امكانات النجاح .. فهو يشارك أحيانا فى كتابة النص ، ويقوم بعملية الاخراج .. وهى عملية فنية .. معقدة وصعبة ، كما يقوم بدور البطولة ، سواء على المسرح أو السينما .. كذلك فانه لا يكتفى بالتمثيل ، وانما احيانا يضيف اليه الغناء أو الرقص .. أو كليهما معا . وتلك قدرات تكاد لا تجتمع لفنان !!

ويجب أن نشير الى أن ارتباط دريد لحام بالكاتب القدير .. والشاعر المشهور (محمد الماغوط) يعد بداية تلك المرحلة الجديدة فى حياة هذا الفنان .. وفى فنه أيضا ، لان الماغوط يمثل اتجاها ادبيا بعينه ، يكاد لا يمارسه كثير من الأدباء العرب ، وهو (الشعر المنثور) .. ذلك النوع الأدبى المعروف فى آداب اخرى ، لكنه لم ينل شهرة كبيرة بعد فى أدبنا العربى الحديث . وهذا الفن (الجديد) يحاول أن يزاوج — فنيا — بين سمات الشعر والنثر على حد سواء ، ففيه من الشعر الايجاز والتركيز وشاعرية الصـــورة وشفافية العبارة ، وفيه من النثر تدفقه وامتداده ، غاية ما أود الاشارة اليه — هنا — هو أن هذا (التزامل) الفنى بين دريد والماغوط يمثل (مرحلة جديدة) من الابداع فى حياة كليهما .. وفى مسيرة كل منهما الفنية والأدبية . ولا ريب فى أن حياتنا الفنية والثقافية تفتقد — كثيرا — روح (الفريق) الذى يؤمن بهدف .. ويسعى نحو تحقيقه .. واستمراريته .

مازالت فى ضميرى دلالات ومعان كثيرة ، من فيلم (الحدود) .. الذى يناقش قضية الحدود المصطنعة بين اقطار امة واحدة ، ومن فيلم (التقرير) .. الذى يناقش قضية (الروتين) ، ذلك الاخطبوط السرطانى ، الذى يقضى على كل طموح لاصلاح المجتمع وتقدم الوطن .. وقل مثل هذا وغيره الكثير على اعماله المسرحية ، لان اعماله الفنية تتسم برؤية نقدية شاملة للواقع العربى بكل ما فيه من

سلبيات ، تحول دون حرية الوطن والمواطن فى آن واحد .. ان الفن بـ (الالتزام) النبيل يصبح رسالة مقدسة .. ومدرسة فكرية لا غنى عنها ، بل ان الفن العظيم يمثل (جامعة) ، تؤثر فى كافة شرائح المجتمع ، ومن فضل الله علينا ، أن الفن والثقافة قد نجيا من قيود (الحدود) ، ويدخلان كل قطر ، بلا (تأشيرة) .. أو تقرير . من هنا وصل دريد الى مكانة مرموقة فى الوطن العربى كله .. وأصبح يمثل (قيمة) فنية كبيرة عند المثقف العربى المعاصر .

وقد توجهت الى مسرح (شيراتون الدوحة) وفى قلبى هذه الخواطر الطيبة كلها عن الفنان وفنه . وقلت لنفسى : انها فرصة لا تعوض أن تشهد على الطبيعة احدى أعمال ذلك الفنان العظيم .. وهى مسرحية (شقائق النعمان) ، التى الفها محمد الماغوط ، وأخرجها وقام بدور البطولة فيها دريد لحام .. بالاشتراك مع مجموعة قليلة من الممثلين على راسهم الممثلة الواعدة (ليلى المصرى) وفرقة (السيوف) الشعبية السورية .

وقد ذهبت فى الموعد المحدد قبيل بدء العرض ــ حسب التعليمات المكتوبة على التذكرة . ولكن فات الموعد دون رفع الستار . وجدت بطاقة تعرف بالمسرحية التى كتبها الماغوط .. وقد جاء فيها :

« قد يستطيع الانسان أن يهرب من بيته ، ومن عمله ، ومن دائنيه ، ووطنه ، ومن ماضيه وحاضره ، ولكن هل يستطيع أن يهرب من مستقبله ؟ ان شقائق النعمان ليست اجابة على هذا السؤال ، بل هى صرخة فى بيداء الضمير العربى من أجل انقاذ ما يمكن انقاذه ، لا من أجلنا نحن أطفال التقسيم ، وشباب تشرين، وكهول الاجتياح ، بل من اجل كل أطفالنا ، وكل ما هو نقى وبرىء وأعزل أمام الداخل والخارج .

فرغم عمليات الصقل والتلميع ، التى تجرى هنا وهناك لهذه الأمة ، فان التصحر الفكرى والاخلاقى والانسانى قبل الزراعى ، اخذ يزحف عليها من جميع الجوانب ، فهل نعترف بهذه الحقيقة أم نترك لدارسى الاساطير أن يثبتوا فى المستقبل أن القرود الهندية ، التى لا ترى ، ولا تسمع ، ولا تتكلم ، ليست أسطورة هندية ، بل حقيقة عربية ؟! » .

أعطتنى هذه الرسالة الخطابية دفعة حماسة وشوق الى مشاهدة العرض ، الذى بدأ بعد نصف ساعة ، وقد اعتذر دريد بخفة دمه المعهودة قائلا : ان التأخر كان عمدا ، لنثبت أننا عرب ..!!

بدات المسرحية .. وكانت القضية فيها تدور حول فكرة عرضت من قبل فى أعمال أدبية وسينمائية وتليفزيونية ومسرحية ، وهى : أن هناك من ضحى واستشهد ولم يأخذ شيئا .. ومن لم يفعل شيئا وأخذ كل شىء . من هنا يبدأ المناضل فى الاستسلام للرغبة فى الهجرة والنزوح بعيدا عن وطن أعطاه .. ولم يأخذ نظير ما أعطى . لكنه فى نهاية — غير مبررة فنيا — يقرر البقاء والاستمرار ، ليناضل فى السلم كما دافع فى الحرب .. !!

بيد أن الأمر فى المسرح وفى الأدب عامة — ليس قضية الفكرة .. وانما قضية طريقة التناول والعرض ، من هنا جاء البناء الدرامى للمسرحية (هشا) .. وكل الدعاوى الوطنية والسياسية تأتى فى شكل (صيحات خطابية) خارجة عن لحمة النص وسداه ، أى أن الكاتب لا يعبر (دراميا) .. وانما (خطابة .. وانشاء) .. وكما يقول الناقد (جان كوكتو) : « ان المسرح الجيد لا يكون بالأقوال .. التى قد تثير الاعجاب ، وانما بالأفعال ، التى تنال

الأحترام !! » . وهنا نأتى الى أهم عيب فنى .. وهو النص نفسه ؛ لانه لم يكتب — ابتداء — كتابة مسرحية جيدة !! لست أدرى ما الذى دفع الماغوط — وهو أديب كبير ، أو دريد — وهو فنان مرهف .. الى تقديم عمل لما ينضج بعد .. ؟!

لكن المسرحية بعد ذلك تدخل فى اطار المسرح (الشامل) ، الذى يعتمد على الحركة والرقص والغناء ، وكان الغناء على طريقة (من كل قطر اغنية) فهناك أغنيات سورية .. واخرى مصرية .. وثالثة خليجية .. ورابعة من الشعر القديم ، وهى اغنية :

قل للمليحة فى الخمــار الأســـود
مـــاذا فعلت بناســـك متعبــد

وعلى هذا فان المسرحية ، لا تدخل فى مجال المسرح .. بله ان يكون المسرح سياسيا ، وانما هى مسرحية استعراضية .. غنائية .. راقصة .

ولعل هذا التشكيل (السياحى) هو الذى جعل صـاحب المسرحية ، يحملها (متجولا) فى الشرق والغرب . ولا شك أن هذا اللون من الفن (الترفيهى) مطلوب .. ومقدر . لكن هذا فى الوقت نفسه ، ما لم نكن نتوقعه من دريد لحام .. !!

كلمة اخيرة اقولها للأديب محمد الماغوط — الذى أقدره ، والفنان دريد لحام — الذى أحبه واحترمه : ان اعمالكما السابقة افضل من اللاحقة .. وان الوصول الى القمة امر سهل ، ولكن الصعوبة فى البقاء عليها .. !!

ليـــالى الحلميـــة

من أهم البرامج الممتعة التى أسعد بها التليفزيون جمهوره خلال شهر رمضان الماضى ، ذلكم المسلسل الفخم الضخم الممتاز « ليالى الحلمية » ، الذى كتب حلقاته المتنوعة وصـــور أحداثه المتداخلة الأديب وكاتب السيناريو المتميز أسامة أنور عكاشة ، وهو كاتب قصصى .. ولكن دوره الفذ — فى عالم الفن — يدخله من باب كتابة السيناريو التليفزيونى ، وقد أسعد جمهوره من قبل بمسلسلات رفيعة المستوى عالية القيمة مثل : الشهد والدموع — و — عصفور النار ، و — أبواب المدينة .. وغيرها .. وهذا المسلسل التليفزيونى الرائع واحد من مسلسلات عدة جذبت انتباه الجمهور ، وتركت بصمات لا تمحى فى الأذهان . وقد آن لنا أن نعترف — كما آن لمنتجى المسلسلات التليفزيونية أن يؤمنوا — أن كتابة « السيناريو » .. (فن خاص) ، لا يجيده الا فنان موهوب ودارس متخصص .

وهذا المسلسل « ليالى الحلمية » يوازى فى ضخامته الابداعية « ثلاثية » نجيب محفوظ الروائية ، لأن هذا المسلسل يحاول أن يرسم صورة بانورامية (شاملة) للحياة فى مصر قبيل ثورة ٢٢ يوليو ١٩٥٢ ، وما جاء بعدها من احداث اجتماعية وسياسية ، وما حدث خلال ذلك من صراعات بشرية متنوعة . بيد أن الكاتب كان موفقا الى درجة كبيرة حين جعل الأحداث السياسية تقع فى مرتبة تالية فى الأهمية ، بالنسبة للصراعات الاجتماعية ، والقضايا الانسانية ، التى زخر بها المسلسل ، وهو عمل — فى تقديرى — ذو طابع (ملحمى) ، لأن الرواية اصبحت ملحمة العصر الحديث ، من هنا رسم المؤلف نماذجه البشرية — رغم اختلافها — بقدرة وتمكن ، وتتبع فى صبر وحرص وأناة مصير كل شخصية من شخصياته ، وبيان علاقاتها المتشعبة مع الآخرين ، كما حاول — كثيرا — أن يصور الشخصية من الخارج والداخل فى آن واحد .

غير أن القصة — مع أنها العمود الفقرى فى كل عمل درامى ناجح — لم تكن وحدها الجديرة بالاعتبار والتقدير .. وانما يواكب ذلك النجاح فى التأليف والكتابة ، ويوازيه ويجاريه — ان لم يتفوق عليه — جهد (المخرج) اللامع اسماعيل عبد الحافظ ، ذلك أن المخرج .. هو الجندى المجهول ، الذى يقف وراء كل عمل فنى ناجح ، لأن رؤية المخرج فى التنفيذ — لا تقل قيمة عن جهد المؤلف فى الكتابة .

ثم يأتى بعد ذلك فى البداية والنهاية .. ذلك الأداء المعجز فى التمثيل ، فكل الممثلين كانوا (عمالقة) فى تجسيد الشخصيات — كما صورها المؤلف ، وعبرت عنها رؤية المخرج .

ببساطة شديدة اريد أن اقول :

ان مسلسل ليالى الحلمية يعد (مدرسة) متقدمة فى الأداء الراقى والتمثيل المياز ، وهذا واضح عند الممثلين الرجال والنساء، والأبطال والشخصيات الثانوية على حد سواء .

فقد اجادت الفنانة صفية العمرى دور نازك السلحدار ، وسهير المرشدى دور العالمة التائبة سماسم ، وسمية الألفى دور الأميرة نور ، ومحسنة توفيق دور أنيسة ، ودلال عبد العزيز دور الزوجة المخلصة لرجلين مختلفين ، وكذلك الفنانة الصاعدة عبلة كامل أجادت بأدائها الهامس الرقيق دور الفتاة المظلومة ، كما أجادت نفس الدور آثار الحكيم .. الفنانة الرشيقة الرقيقة .

اما الأبطال الرجال فحدث عن اعجازهم ولا حرج — فقد تفوق كل منهم على نفسه ، وقدموا أدوارا (تاريخية) لا تنسى ، كما نجد فى صلاح السعدنى — ذلك الممثل الممتاز خفيف الظل فى دور العمدة ، ويحيى الفخرانى فى دور سليم البدرى باشا ، وحسن يوسف فى دور توفيق البدرى ، وسيد عبد الكريم فى دور ابن البلد زينهم السماحى ، شقيق الشهيد طه السماحى (عبد العزيز مخيون) .

لكن الذى يلفت الانتباه فى هذا المسلسل العظيم هو أن هناك ممثلين كبارا واصحاب اسماء معروفة ، لكنهم قبلوا اداء أدوار محدودة المساحة ، كما فعلت محسنة توفيق ويسرى مصطفى ومحمد وفيق وآثار الحكيم وحمدى حافظ ولوسى وفتوح أحمد وانعام الجريتلى .. وغيرهم الكثيرون . كل هذا يؤكد أن (عظمة الممثل) ليست مرتبطة بمساحة الدور وضخامة الأجر ، ولكن العظيم عظيم حتى لو ظهر فى مشهد واحد ، كما فعل يوسف بك وهبى فى فيلم « غزل البنات » .. مع نجيب الريحانى وأنور وجدى .

ولاشك ان هذا المسلسل ، مثال جيد للأعمال الفنية الرفيعة ، التى ترفه وتثقف فى آن واحد .. وفى ذلك فليتنافس المتنافسون . !!

الكتـــــاب ..
عندنا .. وعندهم .. !!

كنت اقرا رواية عالمية بعنوان « من قتل موليرو ؟ » لناقد وأديب من كتاب امريكا اللاتينية ، وهو « ماريو فارجاس ايوسا » (+ ١٩٣٦) ، الذى يعد من كتاب الجيل التالى لجيل « جابرييل جارثيا ماركيز » (+ ١٩٢٤) .

وفى معرض التقديم للرواية ذكر المترجم الصديق « د . حامد أبو أحمد » أن كتب ذلك الأديب يعاد طبعها فى العام الواحد أكثر من مرة ، حتى ان روايته « من قتل موليرو » ـ منذ أن صدرت فى أوائل عام ١٩٦٨ ، وهى .. تطبع كل شهر مرة تقريبا !! ..

كنت أقرأ الكتاب .. وأنا أتهيأ للنوم، بعد يوم عمل مرهق ، فاذا بتلك الحقيقة تهز كيانى ، وتدير رأسى ، وتعصف بفكرى .. كأنما صعقة كهربية ، سرت فى جسدى من أعلى الرأس الى أخمص القدم . الى هذا الحد تروج سوق الكتاب فى أمريكا الجنوبية ،

وبلادها تقع فى اطار دول « العالم الثالث » ــ الذى ننتسب اليه .. بالحق أو بالباطل .. !!

دفعنى هذا الاستهلال المشوق الى أن اقرأ الرواية .. بحثا عما فيها من أسرار ، تشد القارىء ، وتدفع الناشر الى طبعها مرة كل شهر ، فوجدت أن الموضوع الرئيسى فيها يدور حول « الفرد » باعتباره ضحية للمجتمع . وتتفرع عن هذا الموضوع موضوعات أخرى كثيرة ، تكشف عن الازمة التى يعيشها احد مجتمعات امريكا اللاتينية ، التى تحمل كل أمراض العالم الثالث . وهذا الفرد يمكن أن يكون شخصا واحدا ــ أو مجموعة من الاشخاص ــ يتميز بصفتين رئيسيتين هما : أن الفرد ــ كما تصوره كتابات « ايوسا » ــ « برىء » و « مخدوع » على نحو ما ، مما يؤدى الى فساده ، وسقوطه ، وموته فى اغلب الاحيان موتا ــ لا يخلو من دلالة رمزية عميقـــــة !!

الرواية ــ اذن على مستوى المضـــمون ــ تدور فى الاطار الواقعى ، الذى طالما كتب ــ بوحى منه ــ رواد الواقعية ، وكتابها الجدد فى الوطن العربى . ولكنها على مستوى التشكيل اكثر جراة لأنها تهتم بشاعرية اللغة : سردا وحوارا ، وبالكشف عن الواقع والفرد من رؤى متعددة ، وجوانب مختلفة من تفاصيل حياته ، التى قد تبدو عادية ــ عن طريق الضربات العنيفة ، التى تصور الاحياء والأشياء عبر الزمان والمكان دون توقع ، مع العناية برصد الواقع فى بساطته وبدائيته ، التى لا تخلو من قسوة وشاعرية فى آن واحد .. مستعينة فى تجسيد ذلك على أداتى الحلم والاسطورة .

الرواية ــ اذن ــ رغم جودتها ، لا تزيد ــ كثيرا ــ عما يكتبه ادباؤنا : شيوخا وشبابا . ولكن المأساة الحقيقية عندنا ..

هى تفشى الامية بين المثقفين .. بل اقول دون تردد : ان الأمية بدأت تتفشى حتى عند بعض اهل الاختصاص . فمن منهم يتابع — بوحى من ضميره الحى ومسؤوليته الأدبية — الجديد ، الذى يظهر فى حقل تخصصه ؟!

وقد أدى تفشى الأمية بين المثقفين وبين كثير من المتخصصين الى كساد سوق الكتاب الثقافى وبواره ، واصبح الناشر تاجرا ، لا يقدر سوى المادة .. ولا يبحث الا عن الربح السريع . كذلك تقاعس النقاد والكتاب عن الدفاع عن الأدب والأدباء ، والثقافة والمثقفين . فمات عصر القراءة .. وضاعت قيمة الثقافة .. وبارت سوق الكتاب .. !!

هذه هى حالة الكتاب عندنا .. وعند غيرنا ، فهل ترى لو عقدنا (مقارنة ثانية) فى جانب آخر من جوانب الحياة أو الفكر .. هل ترى سوف نصل الى هذه النتيجة المؤسفة نفسها !! واذا كان هذا هو حالنا اليوم .. ومازال فينا بقية من الكرام الكاتبين — القارئين ، فكيف بصير الحال فى غد .. وان غدا لناظره قريب .؟!

العالم العربى ..
فى باريس

على مقربة من شاطىء نهر السين فى باريس — وعلى بعد خطوات من كاتدرائية « نوتردام » — التى خلدها الشاعر الروائى فيكتور هوجو فى روايته الشهيرة (أحدب نوتردام) .. وبالقرب من جامعة (السربون) العريقة .. وفى قلب باريس — (مدينة النور — كما سماها أهلها — أو باريس مدينة الجن والملائكة — كما سماها أديب طه حسين) — افتتح منذ فترة قصيرة (معهد العالم العربى) ليكون مصدر اشعاع عربى مشرق فى قلب عاصمة فرنسا .

وهذا الصرح العربى الشامخ — الذى افتتح فى أواخر سنة ١٩٨٧ — يتكون من متحف يقع فى ثلاثة الادوار الاولى .. ثم تليها تسعة طوابق أخرى . والمبنى شكل معمارى جميل ، يحمل نكهة

الشرق ، وعبير العروبة ، وشذى الحضارة الاسلامية ، وتهدف هذه المؤسسة الحضارية الى اقامة معرض دائم للفن الاسلامى منذ القديم حتى اليوم .. مرورا بكل مراحل الحضارة وعصور التاريخ . كما تهدف الى تشجيع التبادل والتعاون بين فرنسا وتنمية العلاقات بين العالم العربى واوروبا فى المجالات المختلفة كافة .

والذى ارجوه اضافة الى وظائف هذا الصرح الحضارى ، هو الا نكتفى بعرض تراثنا القديم ولوحات آثار سلفنا .. وانما اتمنى أن تكون هناك مكتبة (حديثة) للقراءة والاطلاع .. وبيع الكتب الأدبية والثقافية ، التى تعرف العالم بنا ، اذ ليس مثل الأدب مرآة ، تعرف المجتمعات ببعضها .. وتكون خير سفير للأمة .. وافضل مبعوث يعرف بحياتنا المعاصرة فى مختلف المجالات . كما اتمنى أن تقام معارض دورية عامة للكتب والغناء والفنـــون الشعبية والتشكيلية وافلام سينمائية وعروض مسرحية ، وندوات ادبية وفكرية .. بصفة عامة لا ينبغى أن نكتفى بمجرد البنـــاء والتشييد ، وانما يجب ان نوظف ذلك الصرح الحضارى من أجل التعريف الجيد بواقعنا المعاصر — على اختلاف المستويات ، حتى نعرف الاوروبيين فى (عقر دارهم) بما وصلنا اليه من نهضة قديمة وحديثة فى آن واحد .

كذلك اتمنى أن يكون فى هذا المعهد مكان ، لمن لا يجد مأوى من المسافرين العرب — بأجر رمزى ، ويكون فيه ناد للقاء المغتربين، ويقدم ما يستطيع من مساعدات لابنائنا فى الخارج . وأنا اطالب بذلك من واقع خبرة عملية مررت بها ، فقد سافرت منذ سنتين فى رحلة الى ايطاليا ، وكانت اقامتى اكثر فى مدينة (ميلانو) بالشمال، حيث كنت أقيم من ابن أخ لى ، يعيش هناك منذ فترة . كنا فى اثناء السياحة والتريض نلتقى ببعض الشبان المسلمين والعرب ، وكنت

أقرأ فى وجوههم مدى ما يعانونه من غربة وضياع وبؤس .. وكيف ان بعضهم — خاصة المغامرين — معرضـــون لأمور كثيرة .. وخطيرة .

وقد حدث موقف أكاد لا انساه حتى هذه اللحظة . ذهبت معه نصلى الجمعة فى ضاحية نائية !! كان فى ذهنى ذكريات طيبة عن مساجدنا الكثيرة العامرة ، لكنى — لا أخفى عليكم — شعرت بقدر كبير من البؤس والحسرة ، لان المسجد عبارة عن (بدروم) متواضع استأجره هؤلاء المسلمون الغرباء بـ (ليرات) زهيدة ، تتناسب مع امكاناتهم المادية المحدودة . كان المؤذن شابا من يوغوسلافيا اعتنق الاسلام حديثا ، وصحب معه ولده الصغير ليتعود على أداء الصلاة. أما الخطيب فكان شابا مصريا ، ثقافته الدينية — كما بدت من خطبة الجمعة — متواضعة جدا .. وبدا كأنه يخطب فى احدى القرى العربية حول التعاون والأمر بالمعروف .

وقد تعرفت بعد الصلاة على راعى الجماعة الروحى وصاحب فكرة التجمع ، كان رجلا مصريا تبدو عليه سمات الصلاح والتقوى. ولم اكد اصدق — انه ظل هكذا محتفظا بنقائه فى أوروبا طيلة خمس عشـــرة ســـنة !! وقد عرفت منه أن بعض افراد الجالية اليهودية ، لا يرضون عن تجمعهم .. ولا عن اقامة هذا المسجد . لكن سرعان ما طمأننى وذكر لى أنهم هنا يحترمون القانون .. ولا يفعلون ما يخالف ، والشرطة متفهمة للقضية ، ولا تسيىء اليهم. أكثر من هذا علمت — من ابن أخى — ان هذا المكان يتحول بعد الصلاة الى ناد .. ومطعم فى النهار ، وفندق للنوم فى الليل .. بأجر زهيد جدا . وأهم من هذا وذاك انه مكان للقاء والتجمع بين المسلمين يوم الجمعة — رغم اختلاف جنســياتهم . ويقدم حماية وحصانة للكثير منهم خاصة ان عوامل الاغواء والاغراء تكون سريعة

المفعول ازاء وطأة الفقر وصراخ المعدة . وهكذا يكون الغريب فى هذه الحالة مثل قطعة الجبن الطرى .. تقطع بأية وسيلة وأمام أوهى « سبب !!

من أجل هذا زادت فرحتى باقامة ذلك المعهد العربى فى قلب باريس ، وأتمنى .. وأتمنى أن تتضافر جهود الدول الاسـلامية والعربية على تعميم مثل هذا النومذج — فى كل عاصمة أوربية — ليقوم بدورين فى آن واحد :

الأول : انه يقوى روابط المغتربين ببـلادهم وتراثهم ، ويجعلهم على صلة دائمة بالوطن (الأم) ، لأن بعضهم قد يضل .. وبعضهم قد ينسى .. وبعضهم قد يضيع .. !!

الثانى : انه يخاطب الأجـانب — فى بلادهم وبلغاتهم ، ويوضح لهم بالأدلة والشواهد مدى عظمة الحضارة الاسلامية فى القديم والحديث ، كما أنها تكون منابر ثابتة لعرض قضايانا .. وشرح وجهة نظرنا .. وتقديم كل جديد لدينا . جزء كبير من مأساتنا — نحن المسلمين والعرب — اننا أصحاب تراث روحى عظيم ، وحضارة خالدة ، وميراث مشرق .. لكننا لا نعرف العالم بذلك كله — كما ينبغى .. بل اننا فى الغالب نترك لهم زمام المبادرة ، ليعرفوا ما يشاءون .. وبالطريقة التى بها يريدون . بعد هذا لاينبغى أن نحزن .. أو نحتج ، اذا وجدنا الصورة مغلوطة .. والحقيقة زائفة .. والحق مضيعا .

كذلك فاننا أصحاب مشكلات ازلية .. وصراعات متوالدة .. وحروب غير متناهية .. وحقوق مضيعة .. وثروات مهدرة ، ولكنا لانسعى بشكل علمى .. وبأسلوب موحد .. وبحوار متحضر، حتى نقدم أنفسنا .. ونشرح قضايانا. وانما نظل نصرخ ، ونتعارك

فى الداخل — دون أن نفعل شيئا أمام أل (آخرين) . وبعد فوات الأوان ندرك أن صورتنا قد شوهت فى معظم وسائل الاعلام .. وانه لا يعمل لنا حساب كبير فى أية قضية من قضايا العالم .. أو من قضايانا ، حتى الجوائز العالمية مثل جائزة (نوبل) لا نحصل عليها .. وان فزنا بها ، نكون آخر من يحصل عليها من شعوب الأرض قاطبة . !!

لا مناص .. ولا سبيل .. ولا خيار .. أمام هذه الأمة الا بالوحدة .. الوحدة .. الوحدة . وان لم نقدر على وحدة (الصف) ، فلم لا نحاول أن نحقق وحدة (الهدف) . وهذا — بلا ريب — أمر مقدور عليه .. وأنا على ثقة من أن هذه الأمة سوف تحاول ان تستجمع كلمتها ، وتوحد ارادتها ، وترفع راياتها ، من أجل غد مشرق — باذن الله .

الم اقل فى البداية .. انى سعيد بخبر انشاء هذا المعهد العربى فى باريس ؟! وبلا شك سوف أكون — انا وانتم — اكثر سعادة ، لو عممت هذه التجربة فى كل بلاد الدنيا، حتى يعرف غيرنا ماضينا العظيم ، ويتعرفوا — أيضا — على حاضرنا الذى يدعو للتفاؤل والأمل .. !!

جـــائزة نوبـــل ..

نقطة تحـــول فى تاريخنا الأدبى

عشت فرح الأمة .. وشهدت عرسها ، وهى تحتفى بواحد من أبنائها العظام ، استطاع بالاخلاص والمثابرة — وحدهما — ان يفتح الباب على مصراعيه للعبور بادبنا العربى من المحلية الى العالمية ، وتجاوز — بابداعه — اطار الفرد الى رحابة الانسان ، ذلكم هو الأديب الكبير ، والروائى العالمى « نجيب محفوظ » صاحب العرس.. ورافع رأس الأمة .. !!

وقد تابعت أصداء هذاالعرس الكبير فى معظم صحفنا العربية — تقريبا ، وقد أسعدنى صدى هذا الخبر الجليل — كما اسـعد معظم الأدباء فى كل قطر ينطق الضاد ويعبر بها ، بل لا أبالغ اذ أقول أن هذه اخطر (نقطة تحول) فى تاريخ أدبنا الحديث ، وهى

تتويج لكل ما قام به رواد هذا الأدب من أجل أن يكون للانسان العربى تواجد حضارى وثقافى بين جميع الأمم . ان أدبنا قد وصل بجهود كل الأدباء المخلصين لشرف الكلمة وواجب الفن الى مستوى عظيم !! ولكن هذه العظمة ، لا ينبغى أن نشهد بها نحن فقط .. وانما ينبغى ان تنتزع هذه الشهادة من البعيد قبل القريب ، ومن العدو قبل الصديق . وقديما قالوا :

« الفضل ما شهدت به الأعداء !! »

* * *

لماذا الروايـة .. ؟!

يزيد جائزة «نوبل » قيمة ، بالنسبة لأدبنا العربى أنها منحت تقديرا لفن أدبى (جديد) كل الجدة . لا على أدبنا الحديث فحسب ، وانما على كل الآداب العالمية أيضا . منذ نصف قرن تقريبا كانت الثقافة العربية تزدرى هذا الفن الجديد .. الوافد ، وتنظر الى من يكتبه نظرة لا تخلو من ريبة أو ازدراء . ومازلنا نذكر أن «هيكل» حين أصدر الطبعة الأولى من روايته الرائدة « زينب » (١٩١٤) ، لم يجرؤ أن يكتب اســـمه عليها ، فواقعنا الثقافى كان يرى أن « الأديب الحق » هو الشاعر أو الخطيب .. أما القاص والمسرحى فهو « أدباتى » . وأخذت مسيرة الرواية الحديثة فى الوطن العربى فى مرحلة ما بين الحـــربين العالميتين ، تخوض فترة « ميلاد » صعبة ، لذلك فان معظم كتاب هذه المرحلة كانوا « هواة » . بيد أنهم — جميعا — كانوا من أنصار التجديد ، حتى المنفلوطى — وهو الشيخ المعمم . !!

وانتهت الحرب العالمية الثانية (١٩٤٤) .. فاذا بصفحة جديدة (بقفز) فيها الانتاج الروائى الى الصف الأول .. وأصبح يزاحم الشعر — ان لم نتفوق عليه أحيانا . أكثر من هذا أن الرواية

بدات تتجاوز مرحلة المزواجة بين السيرة الذاتية والابداع الروائى .. ثم كانت الطفرة الـكبرى ، بأن تجاوزت الرواية ضـــبـاب «الرومانسية» و العزف على قيثارة الآلام العاطفية « الفردية » .. الى رحابة « الواقعية » ، واصبحت الرواية فنا ، يلتزم بالتعبير عن (الواقع) فى شموليته و (الانسان) فى عموميته .

وهكذا استطاعت (الرواية) العربية أن تسبق الزمن .. وتقبل التحدى ، وصارت « نوعا أدبيا » جديرا بالاعتبار والبقاء فى آن واحد . وهنا أريد ان أنبه وأن أنوه بحقيقة :

ان أدبنا العربى من خلال فن (الرواية) قد صنع (معجزة) أدبية .. بكل المقاييس العالمية . فى نصف قرن تقريبا .. عرفت اللغة العربية فن القصة ، وســـرعان ما استجابت ــ بعد عمر شعرى طويل ــ الى أدوات القص : سردا وحوارا . افة كبيرة وثغرة هائلة بالنسبة لأدبنا ووجودنا ، هى أننا لا نؤرخ لحضارة يزدهر فيها أدب ، ولا نقعد لفلسفة ينمو فى ظلها فن ، وانما ندرس الظواهر الأدبية كأنها «نبت شيطانى» ، تحركه ارادة فرد مهموم .. أو انسان مثقف . ويوم يقيض لهذه الأمة من يكتب تاريخها الفكرى ــ و ــ الحضارى ، سوف يسجل : ان الأدب العربى استطاع فى فترة قصيرة جدا ــ (ماذا يعنى نصف قرن فى تاريخ الأمم والآداب .. ؟!) ــ أن يتقبل فنون النثر الحديث كلها من رواية طويلة وقصة قصيرة ومسرحية نثرية (وشعرية ايضا) ، وأن يبدع فيها ابداعا رائعا ، يتجاوز المحلية الى العالمية . !!

من هنا أضع ثلاثة خطوط تحت « الفرع » أو « النوع » ، الذى حصل فيه أديب عربى على جائزة « نوبل » ، وهى أهم .. واغلى جائزة معنويا .. وماديا ــ على مستوى العالم كله . ان تقدير فن « الرواية » هو فى المقام الأول تقدير للأدب العربى .. وللغة

العربية .. واذا كان لكل أمة روائى كبير تفتخر به ، فقد صار لنا أيضا ذلك الأديب .. الذى يحمل الراية ، ومن خلفه كوكبة كبيرة من المبدعين العرب .

واذا كان من حق اللغة الروسية أن تفتخر بـ « تولستوى » والفرنسية بـ « بلزاك » ، والانجليزية بـ « ديكنز » ، والالمانية بـ « جوته » ، والايطالية بـ « البرتو مورافيا » ، وامريكا اللاتينية بـ « جبرييل مركيز » .... فان من حق اللغة العربية أن تفتخر اليوم ، وتزهو بكاتبها البار — الذى يصر على استخدام الفصحى سردا وحوارا — نجيب محفوظ .!!

* * *

ولماذا نجيب محفوظ .. ؟؟

منذ تخرج نجيب محفوظ فى كلية آداب القاهرة سنة ١٩٣٤ .. حتى اليوم وهو لا يترك القلم ، ولايزال حتى اليوم (١٩٨٨) ينشر روايته الجديدة « قشتمر » — على حلقات فى جـريدة « الأهرام » . نصف قرن كامل .. من الاخلاص للفن .. والرهبنة للقلم . لم يسع الى منصب « نجومى » .. ولم يمش نحو « مطمع » مادى .. ولم يقل شيئا عن نفسه — بالحق أو بالباطل . وبلغ من الرهبنة والاخلاص والعشق .. انه لم يسع حتى الى السياحة وزيارة بعض البلاد التى تستحق الرحلة .. لكنه شاهد (العالم) مقروءا .. وأبحر اليه عبر دفتى الكتب . ورغم طول العمر .. وآلام السنين .. مازال يقرأ .. ويكتب ، ويتمنى أن يكون آخر يوم فى عمره ، اليوم الذى لا يجد فيه دافعا للكتابة . !!

الأمر الثانى : ان هذا الكاتب شديد الوعى عظيم الاخلاص ، لأنه منذ كتب ظل حريصا على أن يكون « الفن القصصى » هو

(مجاله) الأول والأخير ، لم يشرك فيه أى فن آخر .. وبقى طوال عمره عاشقا للرواية ، مخلصا لفن القصة . كذلك فانه منذ البداية كان يكتب بوحى من المذهب «الواقعى» . وهو يعد — بحق — واحدا من الأدباء العظام الذين أسسوه وأصلوا قواعده فى الأدب العربى . ان الواقعية فى الأدب هى نجيب محفوظ .. وهو أيضـــا عمر الواقعية ، و « بطلها » فى عصر ،شحبت فيه ملامح «البطولة».!! أكثر من هذا اخلاصا .. ووعيا أنه ظل أمينا للقاهرة « القديمة » ، التى نشأ فى احضانها ، وتربى فى دروبها ، وتنسم عبق تاريخها ، واستلهم عبر مبانيها ، وخلد ما دار فيها من أحداث وقضايا .

واذا كنا فى الرواية — دائما — نبحث عن بطل .. فان « بطل » الرواية العربية بلا منازع ، هو نجيب محفوظ — اطال الله عمره .. !!

* * *

المغـــــزى .. والدلالة :

تأسيسا على ما ذكرت تكون هذه « الجائزة » وساما على صدر كل عربى مخلص لعروبته ، مؤمن بأمته ، عارف قدر لغته . منذ سنوات .. وسنوات ونحن نحلم ان ينال الجائزة أديب عربى ، لأنها « جائزة » للعرب اجمعين وتقدير للأدب العربى نفسه . انها تشكل « منعطفا » خطيرا ، لأن أدبنا قد ،ستطاع أن ينتزع الاعتراف بالأفضلية والجدارة ، فى فن كان البعض يظن أننا فيه عالة على غيرنا وتلامبذ لمن سبقونا . وهاهى الشهادة العالمية تثبت أننا فيه

افضل من غيرنا ، واكثر استحقاقا ممن سبقنا . وهذا ما اكدته «الأكاديمية السويدية » فى حيثيات منح الجائزة ، حيث ذكرت :

« ان أدب نجيب محفوظ يتميز بالثراء والتنوع الواسع ، وبالواقعية ذات الرؤية المباشرة ، والغموض المثير بدلالته النافذة . وان اعماله تشـــكل « فنا عربيا » فى القص والرواية ، يخاطب (البشرية) كلها ، وان هذه الأعمال استهدفت اعطاء دفعة كبيرة للرواية باعتبارها جنسا أدبيا فى الآداب العربية . كما ان انتاجه أدى الى تطوير « اللغة » الادبية فى الدوائر الثقافية الناطقة باللغة العربية . كما ان التقييم الشامل لأدبه بتجاوز كل ذلك ، اذ انه يخاطب الانسانية كلها من خلال أعماله ، وليس فقط أولئك الناطقين بالعربية » .

وهكذا استطاع اديب (عربى) أن ينتزع الجائزة من الأمريكية جويس كارول اوتس ، والهندى نايبول ، والياباني ياســـوشى اينوفى و ـ كوبو أسبى ، والصينى بادجيف و ـ شيف رونج ، والايطالى البرتو مورافيا ، والانجليزى جرهام جرين .. وغيرهم الكثيرون .. !!

دلالة هذا كله بالنسبة لنا : ان أدبنا العربى فى كافة الأنواع الأدبية قد وصل الى المستوى العالمى .. لكن القضية هى :

ان أدبنا نعرفه (نحن) ، ويكاد لا يعرفه (غيرنا) .. !! أنما آن الأوان لاقامة « **مؤســـسة عربية للترجمة** » ، تنقـــل أدبنا

ــ لغير الناطقين بالعربية ؟ لو حدث هذا ، فاعلم ــ أطال الله عمرك ــ أن أدبنا العربى سوف ينتزع بعض ما هو جدير به من احترام العالم وثقة العالمين .

* * *

أيها الأديب العظيم

هنيئا لك بالجائزة

وهنيئا لنا بك

ودعاء ــ من الأعماق ــ بأن :

تعم الفرحة دروب كل المؤمنين

بدور الكلمة .. !!

الطب .. واللغة العربية

أصدرت نقابة الأطباء فى مصر — منذ فترة — قراراً تدعو فيه الى ضرورة تعليم الطب باللغة العربية . وقد توقفت عند هذا القرار لحظات أفكر فيه ، وأقلب الأمر على كافة نواحيه ، لانى واحد من الاطراف المسؤولة فى هذه القضية العلمية الخطيرة .

أن تعليم الطب والتمريض فى مصر موجود فى مصر منذ عصر محمد على (١٨٠٥ — ١٨٤١) .. وقد ظل يدرس بلغة أجنبية حتى بعد خروج الانجليز من مصر (١٩٥٥) . وليس أمر التدريس بلغة أجنبية قاصرا على مجال الطب وحده ، وانما هناك كليات مثل الهندسة والعلوم وبعض التخصصات فى الزراعة والتجارة وبعض العلوم الانسانية تدرس بلغة أجنبية .

وهناك ايضا فى بلادنا العربية كلها (مدارس لغات) ، تعلم الطفل منذ مراحل الحضانة والابتدائى بلغة اجنبية . وهذه المدارس يحرص كثير من أولياء الأمور أن يتعلم ابناؤهم فيها ، ومع ما تأخذه تلك المدارس من مصروفات باهظة ، فانها لا تكاد تستوعب كل المتقدمين اليها .. مما يدفع أولياء الأمور الى تقديم طلباتهم قبل الموعد بمدة طويلة .

ومعنى هذا أن التعليم بلغة أجنبية موجود ومتواجد بشكل واضح وقوى .. فى كافة مراحل التعليم ، لأن هذه المدارس (الأجنبية) ، قد اكتسبت ثقة عالية فى مجال التعليم والتربية . كما أن اتقان لغة اجنبية أو اكثر ، لا يحول دون أن يجيد المتعلم لغته القومية .. !!

كما أن التعليم بمنهج غربى فى التربية ، لا يؤثر بشكل او بآخر فى وجدان الطالب .. ولست أذيع سرا حين أقول : ان كليات التربية الآن ، بل أن كثيرا من الجامعات العربية تدرس اليوم على خطة الدراســــة الامريكية ، التى تقوم على نظام « الســاعات المعتمدة » .. ولم يقل أحد صراحة أو ضمنا أن هذا يؤثر فى كيان ووجدان الشخصية القومية .. !!

* * *

نعود ــ بعد هذا كله ــ الى مسالة تعليم الطب ــ وغيره ــ هل يكون بلغة اجنبية أم بلغة عربية ؟!

انصار التعليم باللغة القومية : يلوذون الى شـــعارات وصـــيحات أقرب الى هتافات المراهقة الفكرية .. والدعوات الانشائية ، ويرون أننا عرب ، وأن كل شىء يجب أن يعلم بالعربية، فالطالب الفرنسى يتعلم كل شىء بالفرنسية .. وكذا الانجليزى .. والايطالى .. والروسى .. واليابانى .. ويعززون رأيهم بأن بعض

البلاد العربية ، قد خاضــت بالفعل تجربة تدريس الطب باللغة العربية . بناء على هذا كله ينادون بضرورة أن يكون كل ما يعلم فى جامعاتنا باللغة العربية ــ ولا شىء سواها على الاطلاق .

أما الفريق الثانى : فيرى ضرورة بقاء الحال على ما هو عليه، لأننا فى الطب ــ وغيره من التخصــــصات العلمية ــ عالة على الثقافات الأخرى ، والتعليم بلغة أجنبية ، يساعد المتعلم ــ عندنا ــ على مواصلة الاطلاع على كل جديد فى تخصصه ، لانه يجيد لغة تمكنه من استمرارية علاقته بالبحث والدراسة حتى بعد تخرجه .

كذلك كم سنة تأخذ مرحلة تعديل مناهج الدراسة وتعريب مراجع البحث ومصطلحات العلم .. ؟! والى أن تتم هذه الخطوة ، التى قد تستغرق جيلا بأكمله (ثلث قرن .. تقريبا) ماذا نفعل مع طلاب المرحلة الانتقالية .. ومن يضمن حسن التعريب وســلامة الترجمة .؟! وقبل هذا وذاك أين فريق العمل ، الذى يقوم بهذه المهمة التى تنوء بها عصبة أولو القوة من العلماء والمتخصصين . ؟

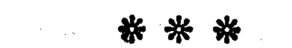
واذا كانت هناك بلاد تعلم الطب بالعربية .. فليست لدينا اختبارات دقيقة لمعرفة المستوى العلمى لطلاب هذه الجامعات ، بالقياس الى زملائهم الذين يدرسون بلغة أجنبية .. !!

* * *

هذه باختصار شديد ، آراء كلا الفريقين فى قضية تعلم الطب باللغة العربية ، وبقى أن اقول : اننى مع الفريق الثانى ، الذى يرى بقاء الحال على ما هو عليه ، وأن يستمر التعليم فى الكليات العلمية بلغة أجنبية ، حتى يستطيع الطالب أن يقرأ ويدرس احدث ما وصلت اليه الخبرة العالمية فى علوم الطب ، التى نحن فيها عالة على غيرنا . وهذه حقيقة ــ مهما تكن مرة ــ فاننا يجب أن ندركها ونستوعبها ، لأن الوعى بداية التجاوز ــ ان أردنا ذلك .. !

كما أن ترجمة المقارت العلمية أمر شاق جدا ، قد يستغرق فترة زمنية طويلة . ويمكن أن تتم عملية الترجمة بجوار بقاء النظام الحالى ، فأن تمت بنجاح ، كان بها .. وان لم تتم ، يبقى الوضع على ما هو عليه ، فالخسارة القريبة أفضل من المكسب البعيد . !

وانني اذ أعاتب نقابة الاطباء على قرارها .. فقد كنت أتمنى أن تهتم بتخفيض أسعار الكشف والعمليات والدواء .. والمساهمة فى علاج بعض الحالات المرضية الصعبة عند محدودى الدخل ، لأن واجب نقابة الأطباء الأول .. هو العمل على أن يعود لمهنة الطب « وجهها الانسانى » ، بعد أن أصبح الطب تجارة باهظة الثمن ، حتى على متوسطى الحال .. !!



كشـــف الغمـــة ..
عن لغـــة الأمـــة

سبق أن نشرت فى جريدة « العرب » مقالا بعنوان « الطب .. واللغة العربية » . وقد أسعدنى ان اقرا تعليقا عليه من الأخ صبرى خضر .

وحول هذه القضية أود توضيح الحقائق التالية :

١ — سعدت ايما سعادة برد الأخ الكريم ، لاننا نحن الكتاب نحس — أحيانا — اننا نحرث فى أرض خراب ، وأن معظم ما نقوله ، يكاد لا يصل الى أفئدة الناس ، الذين نحاول — بالكلمة الصادقة الطيبة — أن نبصرهم بقضايا أمتهم ، حتى يعملوا على تجاوز كثير من المواقف السلبية والأمور الخاطئة، التى نلتزم بالحديث

عنها ، من هنا كانت سعادتى بكل حوار جاد، ونقد موضوعى — أملا فى الوصول الى كلمة سواء ، توحد شملنا ، وتنير طريقنا .

٢ — الموضوع الذى أثرته فى مقالى موضوع (خاص) ، يدور حول نقطة بعينها .. وعى تدريس الطب فى الجامعة ، لذلك كنت حريصا على أن يكون « العنوان » محددا غاية التحديد ، حتى يتطابق العنوان مع المضمون تمام التطابق . من هنا كان العنوان « الطب .. واللغة العربية » .. وعلى هذا فان المقال يدور حول هذه القضية « النوعية » المتخصصة فقط ، ولا يتجاوز ذلك الى قضية تعلم اللغة العربية ذاتها .

٣ — يترتب على هذا التحديد الدقيق .. أننى لم اتناول أمرا من الأمور (الخاصة) بقضية علاقتنا — نحن العرب والمسلمين — باللغة العربية ، التى نعتز بها أيما اعتزاز ، ونحرص عليها الحرص كله ، لانها وعاء ميراثنا الروحى والفكرى ، وأهم دعائم وجودنا الحضارى . ويكفى هذه اللغة شرفا أن الله سبحانه وتعالى أنزل بها القرآن الكريم ، على رسولنا الأمين — صلى الله عليه وسلم — اللغة العربية اذن لها مكانة مقدسة سامية فى نفوسنا جميعا ، وأنا واحد من العاملين فى حقل تعليمها والقائمين على أمر تدريسها منذ ثمانية وعشرين عاما . وأنا أستاذ للأدب العربى .. وأديب مبدع ، وكاتب يقدر قيمة الكلمة ، وواحد من المحافظين على اللغة والمؤتمنين على تعليمها فى الجامعة ، التى تعد أهم صرح تعليمى . اللغة اذن نبع وجودى .. ومصدر رزقى فى آن واحد . !!

٤ — اتمنى أن يأتى يوم .. يدرس فيه كل شىء فى بلادنا بالعربية ، كما اتمنى أن نستعيد مكانتنا الحضارية الرائدة، التى كانت فى العصور الذهبية لأمة الاسلام — خير أمة أخرجت للناس . فى هذه الحال (فقط) سوف تصبح العربية لغة عالمية ، يدرس بها

الناس الطب وغيره من العلوم فى الشرق والغرب ، ويتعلمون بها ما نفرضه نحن عليهم ، نتيجة ما وصلنا اليه من تقدم علمى وتفوق حضارى . تلك أمنية عزيزة — أدعو الله مخلصا ان يقرب يوم تحقيقها ، انه على ما يشاء قدير . !!

٥ — أعود الى القضية — محور الخلاف (المتوهم) — قضية لغة تعليم الطب ، حيث طرحت بشكل اعلامى ، لكنها لم تتحول — حتى اليوم — الى واقع . ان الطب فى معظم الدول العربية والأجنبية ، يدرس باللغة (الانجليزية) — التى يؤلف فيه بها .. ويترجم اليها فوريا ، كل ما يتصل بعلومه ، وما صدر عن نقابة الأطباء فى مصر مجرد توصية .. (غير ملزمة) لتدريسه بالعربية .

وقد تابعت أكثر من تحقيق صحفى حول هذا الوضوع ، وواحد منها — ما زلت محتفظا به حتى الآن — نشر فى جريدة « أخبار اليوم » — القاهرية فى ١٩٨٨/٨/٦ .. وعنوان الصفحة الثالثة التى نشر فيها هو : **علماء مصر يؤكدون أن تدريس الطب بالعربية مستحيل للأسباب التالية :**

(أ) كل سبع ثوان يظهر بحث طبى جديد فى العالم .

أ . د ماهر مهران

(ب) المدارس الطبية كلها فى العالم ، تتجه نحو العالمية وليس القومية أو المحلية .

أ . د حيدر غالب

(جـ) اتحدى اى شخص يدعى انه يفهم اى شىء من محاولات ترجمة الطب .

أ . د عز الدين عثمان

(د) كل الدول المتقدمة .. حتى اليابان ، تحرص على تعلم الطب بالانجليزية .

أ . د عبد الرحمن الزيادي

(هـ) الدول التى حاولت ترجمة الطب ، تراجعت عن هذه المحاولة مثل : تركيا واليونان والمجر .

أ د . ممدوح شعبان

هذه بعض امثلة من اجابات أهل (الاختصاص) ، وكلهم عمداء كليات ورؤساء أقسام .. وهم لا يوافقون على تدريس الطب بالعربية ، ويحرصون علىأن يظل تعليم الطب بالانجليزية ، التى يرونها .. اللغة (العالمية) للطب .

٦ ــ هناك شــــاهد حي ، يوضح ما اذا كان تعلم الطب بالانجليزية يشكل صعوبة أم لا ؟ هذا الشاهد هو «ابنتي منى»، التي تدرس الطب الآن ، وقد وصلت الى نهاية السنة الخامسة ، وهي طالبة متفوقة، تنجح كل سنة بتقدير « جيد جدا » ، وهى تشكو من امور كثيرة بالنسبة لتدريس لطب (فى جامعة القاهرة) ، ولكن ليس من بين تلك الأمور ، التى تشكو منها ــ قضية التدريس باللغة الانجليزية ، لأنها اجتازت هذه العقبة بعد فصل دراسى واحد . وهذا ما يحدث فى كثير من الكليات التي تدرس بالانجليزية مثل : الصيدلة والهندسة والعلوم ، حيث يستطيع الطالب أن يجيد التعلم بالانجليزية بعد سنة على اكثر تقدير .

٧ ــ بعد أن تابعت الموضوع ، على هذا الشكل الذى طرح به من الدقة والخطورة ــ أردت أن أقول : انني ــ على الرغم من كوني أستاذا فى قسم اللغة العربية ، (أوافق) على استمرار

تدريس الطب بالانجليزية ، حتى نضمن حسن سير العملية التعليمية، واستمرار الاطلاع على ما يظهر من بحوث واكتشافات جديدة .. كل يوم .. بل كل دقيقة ، ولن يقدر طبيب على ذلك الا اذا كان يجيد لغة الطب ذاتها ، ان الطبيب الذى لا يجدد معلوماته لا يقع فى خطأ فحسب ،وانما فى (خطيئة) ، لأنه قد يقتل من يريد علاجه .!!

ومن نافلة القول ان أصرح بأن هذه موافقة (مرحلية) ، فان استطعنا القيام بانشاء (جهاز) يقوم بالترجمة الدقيقة والمستمرة (وهذا يتطلب — اضافة الى الامكانات المادية — علماء يعرفون قضايا الطب بالانجليزية والعربية فى آن واحد) ، فيجب ان نبدأ فى تدريسه بالعربية .

وقد يعيننا الله — وهو على كل شىء قدير — على أن نكون نحن أصحاب الاضافات الجديدة ، والبحوث المفيدة ، ويأخذ العالم عنا بدلا من أن نأخذ نحن منه . واذا لم نستطيع عمل هذا .. او ذاك ، بقى الحال على ما هو عليه ، الى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا . !!

٨ — من قال ان معرفة لغة (أجنبية) . أو حتى أكثر من لغة ، يمكن أن يهز الشخصية القومية .. ويدمر الحضارة الاسلامية .. ويجعلنا — لا قدر الله — نضل سواء السبيل ؟ مع أن بعض صحابة الرسول كانوا يعرفون أكثر من لغة أجنبية ، والرسول العظيم نفسه كان يقول : **((من تعلم لغة قوم أمن شرهم))** .

وانى بعد ذلك أتساءل : من قال ان الشـــــخصية العربية (هشة) الى هذه الدرجة ؟ فهل تعلم ٢٪ (من سكان اية دولة عربية — على أحسن تقدير) مهنة الطب — أو غيرها — بالانجليزية، يجعل الناس ، ينسون الدين .. ويجهلون اللغة .. ويضلون ضلالا بعيدا ، لا مخرج منه . ؟!

ان كثيرا من المرضى العرب لا يطمئنون الا اذا تمت اجراءات علاجهم فى اوروبا . كما ان المستشفيات العربية تستقدم اطباء متخصصين (أجانب) فى كل التخصصات . ثم اننا نستخدم الحاسوب « الكمبيوتر » .. والطائرة .. والسيارة .. والمسرة « التليفون » .. والمرناة « التليفزيون » .. والاذاعة المسموعة « الراديو » .. كل تلك الاجهزة وغيرها الكثير من صنع الاجانب ، ونحن نستخدمها ، فهل اثر كل ما ذكرت فى شخصيتنا .. وفى عقيدتنا .. وفى لغتنا . لا اظن ذلك ، ولا ارضاه .. !!

فى النهاية فانى شاكر لك حسن تفضلك بمتابعة ما اكتب ، وهذا ان دل على شىء ، فانما يدل على أن ما اكتب يجد صدى عند القراء . كما احمد لك غيرتك — على ما نغار عليه جميعا .. وهو لغتنا العربية ، وهى الرابطة الوثقى التى تؤلف بيننا جمعيا .

أدعو الله — سبحانه — أن يصلح ذات بيننا ، ويؤلف بين قلوبنا ، ويقوى ايماننا ، ويرفع شأن لغتنا ، ويهدينا سبل السلام ، انه على ما نقول وكيل ، وهو نعم المولى .. ونعم النصير .

الأدب القصصى ..
فى التراث العربى

(١)

هل عرف العرب فنون القص فى ادبهم القديم ؟

هذا التساول « الحضارى » — قبل ان يكون تساؤلا أدبيا — طرح فى مطلع القرن العشرين .. من بعض النقاد العرب والمستشرقين ، عندما بدأ بعض رواد الأدب العربى يحاولون كتابة « الرواية الحديثة » ، ويعملون على تثبيت جذور هذا الفن «الجديد» فى الأدب العربى الحديث. وقد اتسعت دائرة الحوار بشكل واسع. وكان بعض المستشرقين — امثال المستشرق الانجليزى «جب» — يرون أن العرب لم يعرفوا فن القصة .. (أو المسرحية) ، بل أن بعض النقاد العرب صدق مقولتهم — أحيانا — فى أثناء حوارهم الطويل حول « القديم والجديد » فى الأدب . وقد زعم بعض أولئك

.. وهؤلاء أن العرب أصحاب « شعر » و « خطابة » فقط ، لأن كلا من هذين النوعين : الشعر والخطابة ، يحتاج الى لحظة انفعالية فى التعبير ، أما القصة والمسرح فهما من الفنون ، التى تحتاج الى اعداد وتخطيط وتفكير هادىء وخيـــال منظم .. والى مراجعة وتمحيص .

وقبل أن نوضح مجالات الابداع القصصى فى تراثنا العربى القديم ، نود أن نذكر بعض الحقائق :

اولا : ان المناخ الحضارى الذى طرح فيه هذا التساؤل ، لم يكن صحيا .. أو صحيحا، لأنه طرح من جانب بعض المستشرقين الذين ينظرون الى العرب وأدبهم — نظرة « استعلاء » .. فقد كانوا يستعمرون بلادنا — مرحليا — ورأوا وقتها أن ذلك يتيح لهم أن يكونوا الجنس « الأعلى » فى كل شىء .

كما ان بعض النقاد والأدباء العرب ، كانوا يعانون من وهم الاحساس بـ « الدونية » — أى أننا دون الغرب .. فى بعض مجالات الفن والفكر والحياة .

ثانيا : باى منطـق علمى يدعى البعض أن الأمم والآداب تخضع فى مسيرتها التاريخية الطويلة الى ظروف اجتماعية أو حضارية متشابهة ، أو حتى متقاربة ؟

ان المنطق « الموضوعى » يؤكد أن كل أمة — بل ان كل جماعة داخل مكونات هذه الأمة — لها ظروفها (الخاصة) ، التى تكيف مسيرة كل نوع من أنواع المعارف والأنشطة حسب الظروف ، التى تخضع لها وتؤثر فيها .

ونتيجة لاختلاف الظروف الحضارية .. تختلف المسيرة .. وتتنوع الاحتياجات ، وتتعدد الأنواع الأدبية والفنية ، التى تلبى حاجة كل أمة أو شعب .. فى كل مرحلة من مراحل تاريخه .

ثالثا : ان ظهور نوع من أنواع النشاط المعرفى أو الفنى فى امة دون اخرى ، لا يعطى الأولى ميزة ، ولا يسلب الأخرى فضيلة ، لسبب منطقى واضح مؤداه أن كلتا الأمتين كانت وفية لظروفها (الخاصة) .

على سبيل المثال :

الأدب اليونانى القديم عرف المسرح تاليفا وتمثيلا ومشاهدة ، بينما لم يعرفه الأدب العربى القديم . وهذا لسبب منطقى بسيط هو أن المجتمع اليونانى كانت له ظروف حضارية خاصة به .. مثل الديانة الوثنية لـ « زيوس » ومن تبعه من الآلهة ، كما أنه كان مجتمع زراعة وحصاد واستقرار وتعليم ، من هنا ارتبط المسرح ــ وغيره من الفنون ــ عنده بالأعياد الدينية ومواسم الحصاد .

أما الأدب العربى فقد نشأ فى ظروف حضارية مختلفة .. لذلك لم يكن بحاجة الى المسرح قدر حاجته الى الشعر الغنائى .. والى الخطابية الأدبية ، لأن حياة التنقل والترحال .. وبيئة الرعى الصحراوية ، كانت فى حاجة الى ذلك .

من هنا يقع بعض المفكرين فى خطأ .. وربما فى « خطيئة » ، حين يحكمون على كثير من القضايا الأدبية ــ وغيرها ــ بنظرة قاصرة ورؤية غير شاملة للظروف والملابسات كافة ، التى تنشأ .. أو تغيب .. بسببها « ظاهرة » من الظواهر الأدبية أو الحضارية .

ان لكل أمة ظروفها الحضارية المتشابكة ، التى تحرك مسيرة كل شىء فيها . بل ان كل مرحلة فى تاريخ الأمة ــ تختلف اختلافا بينا عما سبقها أو لحقها ــ بسبب تغير العوامل الاجتماعية

والسياسية والاقتصادية ، التى تحكم حركتها وتتحكم بالتالى فى كل ما تنتجه من سلوك بشرى .. او نشاط معرفى أو ابداع فنى .

انطلاقا من كل هذا .. ووعيا يقظا به ، يجب أن نقوم الأدب ، وان نتفهم طبيعة مسيرته .. وسر ظهوره أو غيابه .

* * *

(٢)

بعد الأدب القصصى فى التراث العربى (مجالا) خصبا .. وواسعا .. ومتميزا ، بل لا نغالى اذ نقرر — بحق — أنه يعد مجالا من مجالات الزهو والفخر والامتياز ، وتراث العرب فى هذا المجال اكبر من تراث كثير من الأمم واللغات ، فالعرب أمة تطرب للغناء الشعرى .. وتميل الى فنون الحكى القصصى .

ان القصة .. أو الحكاية — تقدم : تجربة انسانية طريفة فيها محاكاة واقعية ، لما يحدث للبشر من مواقف مختلفة فى اثناء مسيرتهم فى الحياة . والقصة . اذ تحكى سيرة انسان حقيقى — او متخيل ، توحى أو توهم انها تقدم حياة شخصيات انسانية ، يسهل أن نستمتع بما حدث لها من طرائف أو غرائب ، ونستفيد مما وقعت فيه من هزائم أو انتصارات .. اى انها فن يقدم : المتعة والفائدة فى آن واحد ، وهى قادرة على جذب انتباه الصغير والكبير .. والرجل والمراة .. والمتعلم والأمى على حد سواء .

تجليـــات الفن القصصى :

١ — **كتب التاريخ :** كثير من كتب التاريخ العربى القديم .. والاسلامى ، التى أرخت لأيام العرب مع بعضهم البعض .. او مع

غيرهم من الشعوب المجاورة مثل : الأحباش والفرس والروم ، ثم كتب التاريخ الاسلامى .. التى ارخت للفتوح الاسلامية ، ثم عصور الدول والامارات ـ كثير من هذه الكتب دون على اساس أنه تاريخ .. لكنه لا يخلو من قصص وحكايات كثيرة لسبب بسيط .. هو أن كثيرا من مؤلفى الكتب حين تصدى لكتابة التاريخ الاسلامى . كان يبدأ من قصة « خلق آدم وحواء » ، ثم يستطرد الى ان يصل الى بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن المنطقى والحال كذلك أن يكون التاريخ السابق على البعثة النبوية فى تلك الكتب التاريخية أقرب الى القصص والحكايات الشعبية .

٢ ـ **كتب السير التاريخية والأدبية** : احتفى العرب حفاوة بالغة بفن « السيرة » ـ الذى يسجل حياة شخصيات عظيمة من المهد الى اللحد . ومن الطبيعى أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم أول شخصية يحتفون بسيرتها ويهتمون بتدوين تاريخها .. وأول كتاب فى هذا المجال .. هو سيرة الرسول ، التى تنسب الى عبد الملك بن هشـــام ، وهى من رواية وجمع أســـتاذه محمد ابن اسحاق (ت ١٥٢ هـ) .

وقد استمرت الكتابة فى هذا المجال ، ولم تنقطع حتى اليوم . ولكن العرب بعد أن انتهوا من كتابة السير الدينية .. بداوا فى كتابة السير « الأدبية » ـ ولاسيما سير الشعراء . ومن الكتب المبكرة فى هذا الاتجاه كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الاصفهانى (ت ٣٥٦ هـ) ، وهو يشتمل على حوالى مائة ترجمة ، لمائة شاعر تقريبا .

وقد تواصل الانتاج فى هذا الفن سواء فى بلاد المشــــرق العربى .. أو بلاد المغرب العربى والاندلس .

وما نريد أن نلفت النظر اليه هنا : هو أن بعض هذه الكتب — وربما الكثير منها — لا يخلو من قصص وحكايات مؤلفة .. أو مروية ، لكنها فى النهاية قصص وحكايات جمعها المؤلفون — عفوا أو قصدا — لأسباب مختلفة . بل ان هناك سيرا برمتها ، تكاد تكون مؤلفة من الألف الى الياء ، كما نجد فى سيرة « مجنون ليلى » فى كتاب « الأغانى » — على سبيل المثال . وكون قصة المجنون حكاية شعبية لا يقلل من قيمة كتاب عظيم مثل «الأغانى» أو غيره ، وانما ذلك أمر يدعوالى اعادة النظر فى كثير من كتبنا التاريخية والأدبية لـ « تصنيف» طبيعة مادتها .. وهذا أمر تحتاج اليه — علميا .. وسريعا — كثيرا من كتب التراث .

٣ — مجال السير الشعبية : هناك كثير من الأبطال العرب ناضلوا فى مجال الدفاع عن الدين والوطن ، والاخلاق الفاضلة والقيم النبيلة ، والصراع من أجل المحافظة على كثير من المقدسات — التى تحرص عليها الأمة . وقد استلهم الوجدان « الشعبى » سير بعض هؤلاء الأبطال مثل : عنترة بن شداد العبسى ، وأبى زيد الهلالى ، وسيف بن ذى يزن ، والأميرة ذات الهمة ، والظاهر بيبرس .. وغيرهم الكثيرون .. والفوا حول سيرهم قصصا وحكايات تقربهم من العامة .. وتقوى غرس القيم الوطنية والاخلاقية فى وجدان المستمع ، خاصة وأن معظم هذه السير قد الف فى فترة الصراع ضد الصليبيين .

٤ — الف ليلة وليلة .. والحكايات الشعبية : الحكايات الشعبية — فى جملتها — يحكمها « مبدأ عام » .. وهو انها مجهولة المؤلف ، وتعبر عن روح « الجماعة » اكثر مما تعبر عن مزاج الفرد .

وفى مجال الشعبيات .. فان الأمة العربية ، تملك كنوزا زاخرة ، وتراثا عظيما . وبحسبنا أن نعرف أن كتاب « الف ليلة وليلة » أثر فى الآداب العالمية كلها .

٤ ـ **فن المقامة** : المقامة فن أدبى يجمع بين القصة الغريبة .. واللغة المسجوعة المصنوعة ، ولكن حرص بعض كتابها على الهدف التعليمى .. أضعف الجانب القصصى والفنى فيها ، ومن أهم كتابها : بديع الزمان الهمذانى (ت ٣٩٨ هـ) ، والحريرى ، وابن دريد الأزدى ، والسيرطى ، وغيرهم .

وفى بداية ظهور الرواية الحديثة فى أدبنا العربى .. استلهم بعض الأدباء هذا الفن الأدبى ـ مثل على مبارك ، واحمد شوقى ، وحافظ ابراهيم ، ومحمد المويلحى ـ وقدموا من خلاله بعض تجاربهم الروائية المبكرة .

٥ ـ **القصص الرمزى والفلسفى** : هناك كثير من القصص الرمزى المترجم والمؤلف مثل : كليلة ودمنة لابن المقفع ، ورسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، والتوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسى ، وقصة حى بن يقظان لابن طفيل الأندلسى .. واخوان الصفا .. وقصة سلامان وابسال وغيرها .

هذه القصص كانت تؤلف من أجل توضيح رأى سياسى أو فكرى أو أدبى أو دينى ـ بطريقة رمزية غير مباشرة .

من هذا كله ـ على سبيل المثال .. وليس الحصر ـ يتضح مدى ثراء التراث العربى بفنون « القصص » و « الحكاية » ، وانه بهذا يكون أسبق وافضل من غيره من الآداب .

١ ـ القصة فى ..
القرآن الكريم

من الأمور الجليلة .. التى اثرت فى وجدانى منذ الصغر ـ وحفرت جدولا فى تكوينى الانسانى ومواهبى الادبية ـ قصص القرآن الكريم ، والحقيقة أننى كنت أستمع الى كثير من هذه القصص فى مجلس والدى ـ رحمة الله عليه ، فقد درس فى الأزهر الشريف حينا من الدهر ، لكنه لم يكمل دراسته .. وقد تفرغ للفلاحة والزراعة .. لكن صلته بالقرآن الكريم : تلاوة .. وتفسيرا .. وشرحا ، لم تنقطع طوال حياته . كما أنه كان يتم تلاوة القرآن الكريم كاملا مرة كل أسبوع تقريبا . ومن خلال تلاوته المستمرة .. ومجالسه العامرة .. بدأت منذ الطفولة الباكرة انجذب بشدة الى قصص القرآن الكريم .

وبعد أن كبرت بعض الشىء ـ فى أثناء مرحلة الدراسة الثانوية ـ وجدت ـ بالمصادفة ـ كتابا يدور حول الموضوع ذاته .

أنه كتاب **«قصص القرآن»** .. الذى كتبه : محمد احمد جاد المولى — ومحمد أبو الفضل ابراهيم — وعلى محمد البجاوى — والسيد شحاته ، فأخذت الكتاب — استعارة من مكتبة المدرسة ، ولم تمض أيام معدودات .. حتى كنت قد قرأت الكتاب كله من البداية الى النهاية . وقد جاء فى مقدمة الكتاب :

« امتاز قصص القرآن الكريم بسمو غاياته ، وشريف مقاصده ، وعلو مراميه ، واشتمل على فصول فى الأخلاق ، مما يهذب النفوس ، ويجمل الطباع ، وينشر الحكمة والآداب ، وعلى طرق فى التربية والتهذيب شتى ، تساق أحيانا مساق الحوار ، وطورا مسلك الحكمة والاعتبار ، وتارة مذهب التخويف والانذار . كما حوى كثيرا من تاريخ الرسل مع أقوامهم ، والشعوب مع حكامهم ، وشرح أخبار قوم هددوا فمكن الله لهم فى الأرض ، واقوام ضلوا فساءت حالهم ، وخربت ديارهم ، ووقع عليهم العذاب والنكال ، يضرب بسيرهم المثل ، ويدعو الناس الى العظة والتدبر. كل هذا قصه الله « سبحانه وتعالى » فى قول بين ، واسلوب حكيم ، ولفظ رائع ، وافتنان عجيب ، ليدل الناس على الخالق الكريم ، ويدعوهم الى الايمان الصحيح ، ويرشدهم الى العلم النافع بأحسن بيان ، واقوم سبيل ، وليكون مثلهم الأعلى فيما يسلكون من طرق التعليم ، ونبراسهم فيما يصطنعون من وسائل الارشاد » .

وقد احسن جامعو هذه القصص صنعا ، حين راعوا السياق التاريخى للزمن فى ترتيب فصول الكتاب ، لذلك فانهم قد بدأوا بقصة آدم عليه السلام .. ثم انتقلوا بعد ذلك الى : نوح وهود وصالح وابراهيم واسماعيل ويوسف وموسى عليهم السلام . ثم انتقلوا بعد ذلك الى قصص قارون وطالوت .. ثم الى ما ورد من قصص فى سيرة داوود وسليمان عليهما السلام .

وبعد ذلك نجد قصص ايوب ويونس وزكريا ويحيى ، والسيدة مريم والنبى عيسى .. وما حدث بينهما وبين اليهود من قصص وأحداث. وبعد قصص ذى القرنين واصحاب الكهف والاخدود وسيل العرم وأصحاب الفيل ، يبدأ الكتاب فى سرد مواقف كثيرة من حياة وسيرة رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم .. كما نجد قصصا لبعض زوجات الرسـول وصحابته ممن ورد ذكرهم فى القرآن الكريم .

وأهم ما يميز ذلك الكتاب العظيم « قصص القرآن » — هو البساطة فى العرض والاسلوب القصصى فى التعبير ، ولذلك فان الكتاب حرى بأن يحقق الهدف النبيل الذى من أجله الف وهو : « أن نجيب الى الناشئين والناشئات أسلوب الموعظة القصصية فى القرآن ، وأن نحملهم على الاستفادة من هديه ، وقويم نهجه » .

وقد تحرى المؤلفون الدقة فيما كتبوا ، لأنهم اعتمدوا على « القرآن الكريم » نفسه .. وعلى كثير من كتب التفسير المعروفة والمشهورة .. وعلى كتب السيرة النبوية . وعلى بعض الكتابات التاريخية ، التى كتبها المؤرخون المسلمون مثل ابن كثير وابن الأثير وابن جرير الطبرى والنويرى والمسعودى .

لذلك فقد جاءت طريقتهم فى العرض (دقيقة) و (شيقة) فى آن واحد . ومما يؤكد رأينا هذا ذلك الجزء — على سبيل المثال ص ٦ — وهو جزء من قصة آدم عليه السلام :

« سكن آدم الجنة ، وصار يتمتع بما فيها من كل ما تشتهى الأنفس ، وتلذ الأعين ، ولعله كان يتنقل بين أشجارها ، ويتفيأ فى ظلالها ، ويقتطف من أزهارها ، ويتفكه بثمارها ، ويرتوى من عذب مياهها ، وشاركته فى هذه المتعة زوجه ، وعاشا كذلك مدة يرشفان من مناهل السعادة .

حز ذلك فى نفس ابليس ، وعز عليه أن ينعم آدم وزوجه بما ينعمان به ، وهو مطرود من رحمة الله ، مبعد عن جنته ، فصحت نيته على أن يقوض عرش سعادته ، ويسلبه نعمته .. أليس هو الذى أنزله من عليائه ، وأبعده عن نعمة الله ورضائه ، واستبان بسببه جحوده ونكرانه ؟ فليقدم على الثأر لنفسه ، وليحاول أن ينتقص قدر ذلك ، الذى أمر بالسجود له والاعتراف بفضله ، فدلف الى الجنة ، وحدثه فى سر وخفاء ، وأوهمه بأنه صـــادق الود مخلص فى النصح . ثم جد فى استمالته اليه ، فلم يترك سبيلا الا ولجه ، أو بابا الا طرقه ، وأظهر له ، ولزوجه عطفه عليهما ، واشفاقه من زوال نعمتهما ، فقال :

(ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة ، الا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين) ..

من هذا كله تتضح مدى أهمية ذلك الكتاب العظيم « قصص القرآن » .. ليت القائمين على أمر وزارة التربيـــة والتعليم ، يقررونه على طلبة المدارس الثانوية وما فى مستواها ليعلم النشء بعض ما ينبغى أن يتعلموه فى المجالين الدينى والأدبى على حد ســــواء .. !!

***

٢ ـ القصـــة فى ..
القــرآن الــكريم

« نحن نقص عليك احسن القصص

بمااوحينا اليك هذا القرآن .. »

سورة يوسف .. الآية « ٣ »

استعان القرآن الكريم ــ مثل غيره من الكتب الدينية المقدسة ــ بأسلوب « القص » باعتباره وسيلة للهداية والتهذيب ، والدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة. ومما يدل على عناية القرآن الكريم بهذا .. أن مادة « قص » قد وردت فى حوالى ثلاثين آية من آياته البينات ، سواء وردت الكلمة فى صيغة فعل ، أو اسم ، أو مفرد ، أو جمع ، كما يوضح ذلك كتاب (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) ، الذى وضعه العالم الجليل محمد فؤاد عبد الباقى (ص ٥٤٦) .

وقد أنزل الله سبحانه وتعالى — على رسوله البشير النذير فى القرآن الكريم قصص كثير من القرى والبلاد ، والرسل والانبياء والصالحين ، وبعض الملوك والحكام .. وقصص بعض الصالحين والأشرار من الرجال والنساء ، الذين تكون فى سيرهم مغزى وحكمة ، أو هدى وعبره .

ومعنى هذا أن القصص المذكورة فى القرآن الكريم نماذج مختارة ، وسير منتقاة ، وأخبار مقصودة ، مما حدث فى عصور سالفة لأمم سابقة .

وقد وقعت هذه الأحداث لأقوام سابقين على قوم الرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

ومما يؤكد أن قصص القرآن نماذج مختارة — مما حدث لشعوب سابقة — قوله تعالى فى « سورة النساء » .. الآية (١٧٤) : « **ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك** » .

وقد أورد الله تلك القصص المختارة التى توصف فى « سورة يوسف » بأنها « أحسن القصص » ، لأهداف سامية ومقاصد جليلة وحكم بليغة ، يمكن أن نوجزها فى مجالين كبيرين هما :

المجال الأول : تثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتهدئة قلبه وإراحة عقله ، حيث من المعروف أن الرسول حين أمره ربه بان يدعو أهله وعشيرته فى مكة وما حولها الى عبادة الله سبحانه وتعالى ، لم يستجيبوا له .. وانما أعرضوا عنه ، بل أكثر من ذلك أنهم كانوا يكيدون له ولمن آمن برسالته . وقد لقى الرسول والذين آمنوا معه فى بدء الدعوة من الكفار والمشركين أذى شديدا وعذابا اليما .

فى هذه الفترة كان الرسول صلى الله عليه وسلم ــ وهو بشر يوحى اليه ــ فى حاجة الى ما يشد ازره ، ويثبت فؤاده ، ويعلمه ــ مما لم يكن يعلم ــ ان ما حدث معه من صد وجحود .. وكفر وضلال .. وعذاب وأذى .. قد حدث لكثير من المرسلين قبله ، ولكن الله سبحانه أيدهم بنصره ، وآزرهم بفضله ، وقضى بينهم بالقسط .. وجازى كلا بما فعل .

ومعنى هذا أن الرسول ــ خاصة فى المراحل الأولى للدعوة ــ كان فى حاجة الى دعم معنوى من الله سبحانه وتعالى .. وقد أدت هذه الغاية الجليلة قصص القرآن ، ليعلم منها .. ويعلم قومه .. أن ما يلقونه من صد واعراض .. ومعارضة وتعذيب ، قد لقيه ــ من قبل ــ أولو العزم من الرسل والأنبياء ، ولكن الله نصرهم نصرا مؤزرا فى النهاية . وهذا ما تؤيده ــ على سبيل المثال ــ الآية (١٢٠) من « سورة هود » .. ((**وكلا نقص عليك من أنباء الرســــل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين**)) .

المجال الثانى : هو العظة والعبرة لأولى الألباب وتبشــير المؤمنين ، وانذار الكافرين ، حتى يتدبروا ما جاء فى هذه القصص، ويعرفوا أنباء من سبقهم ، ويدركوا ما حدث لغيرهم ممن آمنوا .. أو ضلوا السبيل . وعلى ذلك فان تلك القصص تزيد المؤمنين ايمانا .. وقد تهدى العمى عن ضلالتهم ، فيؤمنوا بما لم يكونوا مؤمنين .. وهذه الأهداف النبيلة ندركها ــ على سبيل المثال من آيتين كريمتين ، همــــا :

الأولى : الآية (١١١) من « سورة يوسف » : ((**لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**)) .

الثانية الآية (١٧٦) من « سورة الأعراف » : ((**ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون**)) .

من هذا كله ندرك أن القرآن الكريم قد استعان بأسلوب « القص » ، وقدم قصصا حقيقيا .. حدثت بالفعل ، في مراحل تاريخية سابقة . والقرآن الكريم اذ يستخدم هذا الأسلوب القصصي البليغ ، يدلنا على أن « القصة » ذات وظائف أخلاقية وتربوية وفنية متعددة .

والله يهدي الى الحق .. وهو أعلم العالمين .

القصـــة فى ..
الحـديث النبــوى

مازلنا في مجال بيان إن التراث العربى بروافده المتعددة ، قد عرف اشكالا ونماذج مختلفة من فنون القص والحكاية ، يقدمها لأهداف شتى حسب المجال ، الذى ترد فيه .. وكما اســـتعان « القرآن الكريم » بأسلوب « القص » ... باعتباره وسيلة للهداية والتهذيب ، والتربية والتأديب ، والدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قد وردت فى الأحاديث الشريفة المروية عنه ، بعض الأقوال والأمثال التى تعد نموذجا من نماذج القص . ولا عجب في ذلك فان الرسول صلى الله عليه وسلم قد ادبه ربه فأحسن تاديبه ، كما انه ينتسب الى قبيلة قريش ، المشهود لأهلها بالفصاحة والبلاغة وسمو البيان . كما كان صلى الله عليه وسلم يتذوق الأدب : شعرا ونثرا ، وهو القائل : « **ان من البيان لسحرا ، وان من الشعر لحكمة** » .

وســــــوف نعرض ــ بايجاز ــ بعض النماذج من أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) باعتبارها قائمة على أسلوب القص أو ضرب المثل ، حيث أن كليهما ــ القص والمثل ــ يشتملان على بعض سمات الأسلوب القصصى ، لتقريب المعنى المقصــــود والهدف المراد الى عقل المستمع وقلبه ، استلهاما من الآية الكريمة **« وتلك الأمثال نضربها للناس ، لعلهم يتذكرون »** .

الحـــــديث الأول :

عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى (صلى الله عليه وسلم) انه قال :

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا سفينة ، فأصاب بعضهم اعلاها واصاب بعضهم اســفلها ، فكان الذين فى اسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فآذوهم ، فقالوا : لو انا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فان تركوهم وما ارادوا هلكوا جميعا ، وان اخذوا على ايديهم نجوا ، ونجوا جميعا » .

فى هذا الحديث الشريف (مثل) ــ قصصى السمات ، يضربه الرســــول الكريم (صلى الله عليه وسلم) للذين يفهمون « الحرية » فهما خاطئا ، ويريدون أن يسيروا فى الحياة حسب أهوائهم الخاصة .. لكن ارشادهم وردهم عن الضلال يجب أن يأتى ممن معهم ــ الذين يرون المنكر والخطأ ــ لأنهم ان تركوهم هلكوا جميعا .. وان ردوهم نجوا جميعا أيضا .

***

الحـــديث الثـــانى :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) انه قال :

ـ ((اتدرون من المفلس .. ؟

قالوا : المفلس من لا درهم له ولا متاع .

فقال (صلى الله عليه وسلم) : ان المفلس من امتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، واكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل ان يقضى ما عليه ، اخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم يلقى به فى النار)) .

فى هذا الحديث الشريف يقدم الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) صورة قصصية لشخصية المفلس ، وهذه الصورة تخالف ما تعارف عليه الناس ، لأن المفلس هنا ، ليس هو الذى لا يملك مالا أو متاعا أو غير ذلك من الممتلكات المادية ، وانما المفلس : هو الذى يتظاهر بالايمان أمام الناس ، فيؤدى الصلاة والصيام والزكاة ، ولكن الايمان لم يدخل قلبه البتة .. لأنه لو حسن ايمانه لما آذى غيره من الناس أيا ما كان شكل الأذى .. !!

***

الحـــديث الثـــالث :

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه ، قال :

((قلت يا رسول الله : أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى عن النار . قال (صلى الله عليه وسلم) لقد سألت عظيما ، وانه ليسير على من يسره الله تعالى عليه .. تعبد الله ولا تشرك به شيئا ،

وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، ثم قال : الا ادلك على ابواب الخير ، الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل ، ثم تلا .. ((تتجافى جنوبهم عن المضاجع ..)) ثم قال : الا اخبرك براس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟

قلت : بلى يارسول الله .

قال : راس الأمر الاسلام ، وعموده الصلاة : وذروة سنامه الجهاد . ثم قال ، الا أخبرك بملاك ذلك كله . ؟

قلت : بلى يارسل الله .

فاخذ بلسانه ، ثم قال : كف عليك هذا .

قلت : يانبى الله ، وانا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟

فقال : ثكلتك امك يامعاذ ؟ وهل يكب الناس فى النار على وجوههم الا حصائد السنتهم)).

فى هذا الحديث الشريف نجد الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) يعلم معاذا بن جبل بعض الأمور العظيمة ، التى تتصل بأصول الاسلام ، والرسول يعلمه عن طريق ((الحوار)) ــ وهو احد عناصر القصة وسمة من سماتها ــ حتى يوضح له ما لم يكن يعلم . وحوار الرسول (صلى الله عليه وسلم) هنا يعتمد على فصاحة الكلمة وبلاغة العبارة ، حتى يقرب المعنى ويوضح المغزى .

* * *

هذه الأحاديث الثلاثة ــ على سبيل المثال ــ توضح أن المعلم العظيم والرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) كان يستعين فى بعض أحاديثه الشريفة بعض أساليب القص ، ووسائل الحوار ، وتصوير الشخصيات ، حتى يوضح للمسلمين بعض حقائق الحياة واصول الدين ، ليرشدهم الى الصراط المستقيم ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذن ربهم .

القصة فى ..
الشعر العربى القديم

وضح من خلال أحاديثنا السابقة ـ كيف تجلت فنون القص فى النثر العربى القديم . ونود الآن أن نوضـح وجود هذا الفن القصصى فى نوع أدبى آخر .. وهو الشعر العربى القديم ، لأن الأدب : نثرا .. و .. شعرا ، يصدر عن أمة واحدة ، ذات وجدان متوحد ، وعبقرية متآلفة ، وخيال فنى متشابه الروافد . وقد كان من الطبيعى أن يستعين الأدب العربى بأسلوب القص باعتباره وسيلة فنية جذابة ، تشد المتذوق على اختلاف السن والنوع ـ منذ البدء حتى الختام ، فالقصة ـ تصور تجربة انسانية متخيلة ، تحاول أن توهم القارئ بقدر من الحقيقة والواقع ، والانسـان ميال بالفطرة ومنجذب بالضرورة الى معرفة أخبار غيره وحكايات الآخرين، حتى يسلى نفسه ويرفه عنها من ناحية ، ومن أخرى يأخذ من ذلك درسا أخلاقيا ، يتمثل فى العبرة والموعظة ، التى تستشف من محتوى القصة .

وقد ظهرت بعض سمات القص في شعر كثير من شعراء الجاهلية والاسلام على السواء ، كما نجد — على سبيل المثال .. لا الحصر — فى شعر امرىء القيس بن حجر الكندى — اقدم شعراء العصر الجاهلى -- وفى شعر عنترة بن شداد العبسى — وفى شعر الأعشى « ميمون بن قيس » ، الذى كان يكنى ابا بصير ، ومن قصائده ذات النسج القصصى قصيدته المشهورة ، التى مطلعها :

ودع هريرة ان الركب مرتحل
وهل تطيق وداعا ايها الرجل

وهذا الجزء الغزلى من معلقته يصور قصة حب ، مثل تلك التى نقرأ عنها اليوم كثيرا فى القصص الرومانسى ، وهو فيها يصف المحبوبة ويصور مشيتها .. وما تتزين به من حلى ، وما يفوح منها من رائحة زكية ، وحتى يتأزم الموقف القصصى يذكر انه مشغول بحبها ، بينما هى — اى المحبوبة — مشغولة بحب رجل آخر .. وهذا الرجل الآخر ايضا مشغول بمحبوبة سواها . والشاعر يجسد عقدة القصة وحبكة الحكاية فى هذا البيت :

علقتها عرضا ، وعلقت رجلا
غيرى ، وعلق اخرى غيرها الرجل

ثم يلجأ الشاعر الى وسيلة قصصية جديدة جدا ، وهى الاسترجاع أو ما يسمى (Flash-Back) ، حيث يستعيد كيف نشأت قصة الحب بينهما فى الصغر ، فى زمان الشباب .. وكيف شغل كل منهما بحب صاحبه ، وذلك الحب كان يتأرجح بين الصد والقبول ، والهجر والرضا .. الى أن تنتهى القصة «نهاية سعيدة» (Happy end) كما يحدث فى بعض القصص الحديثة والقديمة على السواء ، بلقاء المحبين — بعد الصد والهجر .



وكما نجد القصة الشعرية عند بعض الشعراء الكبار ، شعراء القبائل وأصحاب المعلقات ، نجدها أيضا عند بعض شعراء المرتبة الثانية ، ولاسيما «شعراء الصعاليك» .. الذين كان شعرهم أقرب الى «المقطوعات الشعرية» أو القصائد القصيرة نسبيا . ومن أهم شعراء الصعاليك وأبرزهم فى العصر الجاهلى «عروة بن الورد» ، وله قصائد كثيرة ذات ملامح قصصية متنوعة ، يصور فيها حياة الصعاليك ومثلهم وفلسفتهم فى الحياة . ومن أهم قصائده ذات الطابع القصصى قصيدة تصور حوارا بينه وبين زوجته ، التى تخاف عليه ، وتخشى ريب المنون وغدر الاحداث ، لكنه يخاطبها بمودة الزوج — الأب ، طالبا منها أن تتركه لحال سبيله ، وهو يتحدث اليها مستخدما « الكنية » ، ويطلب من « أم حسان » أن تتركه ، حتى يغنيها أو يكفيها ذل السؤال ، لان المرء يجب أن يبيع روحه ، لكى يشترى حسن الثناء وطيب الذكرى . والقصيدة مطلعها :

اقلى على اللـــوم يا ابنـــة منذر
ونامى ، وان لم تشتهى النوم فاسهرى

ذرينى ونفسى أم حســـان اننى
بها قبل ان لا املك البيع مشـــترى

احـــاديث تبقى والفتى غير خـــالد
اذا هو امسى هامة فـــوق صـــير

ويستمر الحوار والنقاش فى القصة الشعرية طويلا بين الزوج المجاهد عن الضعفاء والزوجة الشفيقة على زوجها ، لكن ذلك الزوج يرفض الذل وسؤال الناس وحياة الكفاف .. فهذا ما يفعله الصعلوك الذليل الذى :

يعد الغنى من دهـــره كل ليـــلة
أصـــاب قراهـــا من صديق ميسر

اما هو – الزوج .. الصعلوك الشجاع – فانه يأبى الذل لنفسه ولقومه .. ويضحى بنفسه من أجل ان يجد الضيوف وطالبو المعروف عنده ما يأملونه ، لذلك فانه يرد عليها من خـــلال هذا الاستفهام الاستنكارى قائلا :

أيهلك معتم وزيـــد ، ولم اقـــم
على نَدَب ، ولى نفس مخــــاطر ؟!

من خلال هاتين القصتين : القصـــة العاطفية الرومانســـية – التى صورها الاعشى – والقصة الواقعية الاجتماعية – التى شكلها عروة بن الورد – على سبيل المثال ، نرى ان الشعر العربى القديم ، قد استخدم نماذج مختلفة من القصص ، واستعان بها فى تصوير كثير من المواقف والأحداث .

وهكذا .. فان القصة كانت أحدى وسائل التعبير الفنى ، التى استعان بها الشعر العربى منذ القديم ، وقد تعمدنا الوقوف عند بعض النماذج القديمة التى كتبت فى عصر ، لم يختلط العرب فيه بغيرهم .. ولم يتاثروا بأى ادب أو ثقافة غير مؤثرات واقعهم العربى الخالص . وهذا كله .. يؤكد ما نريد أن نصل اليه .. وهو أن الأدب العربى القديم : نثرا وشعرا – قد عرف نماذج مختلفة من فنون القص ، اى أن « القصة » فن عربى تمثله الأديب العربى منذ عرف طريق الابداع الفنى ، واسلوب التعبير بالكلمة .

القصـــة فى ..
« الف ليــلة وليــلة »

(١)

من حق التراث العربى أن يزهو ويفتخر على كل الآداب بكتاب «الف ليلة وليلة» ، لأنه يكاد يكون من أهم الكتب الأدبية فى العالم شرقا وغربا . فهذا الكتاب ترك بصمات فنية واضحة على كل الآداب والفنون — ولاسيما الفنون الغربية ، فقد أثرت « الليالى » — بشكل قوى وواضح — فى فنون أوروبا كلها مثل : الرواية والشعر والمسرح والموسيقى والرسم والنحت .. وانتهاء برقص الباليه .

وقد بدأت ترجمة الليالى الى اللغات الاوروبية فى وقت مبكر منذ القرن الثالث والرابع عشر الميلادى ، اى أن الترجمة بدأت فى العصور الوسطى . .لكن الازدهار القوى لهذه الترجمات بدأ منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر ، حيث ترجمت الى

اللغات التركية والفرنسية والانجليزية والايطالية والالمانية والاسبانية .

ولم تؤثر « الليالى » على كل الفنون فحسب ، بل أنها أثرت أيضا على تخطى الاتجاهات « الكلاسيكية الحديثة » وأسهمت بقوة فى نشأة « الرومانسية » — مذهبا أدبيا جديدا ، يعنى بالخيال الجامح والشطحات الفنية البعيدة ، ويهتم بتجاوز المألوف الى ما هو غير معروف . كما يعنى — أى المذهب الرومانسى أيضا — بتجاوز قيود الشكل الفنى الى الانطلاق حول ما يوحى به القلب من فورة أو ثورة للفن ، لكى يكون بغير ضفاف تحده .. أو قواعد تحول دون الدخول الى عوالم القلب وخفايا النفس ، وتسليم العنان للقلب .. قلب الانسان الفرد ، لكى يروى ظمأه العاطفى .. واشواقه الذاتية الخاصة .

كذلك يمكن القول بأن « الليالى » قد أسهمت — بشكل ما — فى نشأة « الرواية الحديثة » فى الأدب الأوروبى ، لأن الرواية الحديثة تعد فنا أدبيا جديدا — على الآداب الانسانية الحديثة كلها .

اكثر من ذلك ان « الليالى » — التى بدأت ترجماتها الى الآداب الأوروبية منذ القرن الثامن عشر — شكلت حافزا قويا لعناية الغرب بالشرق العربى عناية تتعدى المصالح السياسية والتجارية الى ضرورة العناية بالتراث الأدبى والفكرى للأمة العربية ، وعلى هذا يمكن القول بان « الليالى » قد شكلت — مع غيرها — دافعا من أهم الدوافع الفكرية ، التى أدت الى ظهور « مدارس الاستشراق » ، لمعرفة طبيعة التراث العربى ، ودراسة مكوناته .. ومحاولة فهمه : روحيا وفكريا وعلميا وفنيا .

وقد قامت حول هذا الكتاب « الف ليلة وليلة » دراسات متنوعة فى العالم الغربى ، خاصة على يد بعض المستشرقين الفرنسيين والانجليز والألمان . اما الدراسات العربية حول ذلك الكتاب فلم تظهر الا في وقت متأخر نسبيا ، ولعل أول دراسة أدبية منهجية حول هذا الكتاب ، هى دراسة أستاذتنا الجليلة الدكتورة سهير القلماوى ، حين جعلت الكتاب موضوعا لرسالة الدكتوراه ، التى حصلت عليها من كلية آداب القاهرة ، تحت اشراف الدكتور طه حسين سنة ١٩٤٠ .. ثم توالت بعد ذلك الدراسات حول الكتاب وحول الأدب الشعبى العربى بصفة عامة ، ومعنى هذا أن المستشرقين هم الذين فطنوا قبلنا الى كثير من معالم تراثنا ، وهم الذين رادوا الطريق قبلنا فى تحقيق التراث ونشره ودرسه .

* * *

ونعود الى الكتاب ــ الف ليلة وليلة ــ لنقول انه قد الف فى العصور الوسطى العربية ، وان كان تحديد موعد تاليفه ونشره أول مرة أمرا غير مقدور عليه ، ولكن يمكن القول بأنه بدأ يعرف ويتذوقه العامة بعد الحروب الصليبية، وفى أثناء حكم المماليك للوطن العربى .. أى حوالى القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى تقريبا ، لأن كثيرا من قصص الكتاب تدور فى مجتمع التجارة والتجار .. ومن المعروف ان العالم العربى فى تلك الفترة كان متحكما فى كل ما يتصل بالتجارة بين الشرق والغرب .

كذلك غير معروف على وجه الدقة كيف نشأت الجذور الأولى لفكرة الكتاب ، ولكن شيوع بعض الأسماء الفارسية قد يعطى بعض دلالة فى هذا الاتجاه . مثل أسماء شهرزاد ــ دنيازاد ــ شاه زمان ــ شهريار . وهذا أمر طبيعى أن تكون للكتاب جذور فارسية ــ وربما هندية أيضا ــ فقد كانت ــ ولازالت ــ تلك المناطق تقع فى دائرة العالم الاسلامى بقوة .. كما انها كانت فى تلك الفترة تتكلم العربية أيضا . لذلك ليس غريبا ان تكون للكتاب جذور

فارسية ــ وربما هندية قديمة ، فتلك طبيعة الأدب الشعبى .. فهو أدب (مجهول) المؤلف .. لأن المؤلف لا يعبر فيه عن وجدان فرد .. وانما عن طبيعة أمة .. او جماعة بأسرها . كما أن الأدب الشعبى في تنقله من جيل الى جيل ؛ يتسع لكثير من عوامل التغيير ؛ بالاضافة او الحذف ؛ حسب طبيعة الراوى والمتذوق فى آن واحد ، وهذا ما يسم الأدب الشعبى بطابع التجدد الدائم .. والعطاء الفني المتواصل .. والقدرة على ارضاء الذوق «الشعبي» العام على توالى العصور .

***

(٢)

« الف ليلة وليلة » .. الحكاية العربية الشهيرة ، انتشرت وذاعت في معظم الاقطار العربية ، ومن أهم الأقطار التي انتشرت فيها مصر والعراق والشام ، كما طبعت فى أماكن شتى من الوطن العربي ، وكل طبعة فيها تختلف عن غيرها ، واكمل طبعاتها واقربها الى الأصل هي طبعة مصر . وهي طبعة « شعبية » مزينة بالرسوم والصـــور ، حتى تقرب المادة الى قارىء عام ، ومتذوق غير متخصص .

وهذه الحكايات « تشرح أحوال العصور الاسلامية الوسطى ، وتمثل بعض عادات أهلها علي اختلاف طبقاتهم ، مع بيان أخلاقهم وآدابهم في مجالسهم وأحاديثهم واعراسهم ومآتمهم ، ومعاملاتهم التجارية والقضائية والعائلية .. كما تشرح حال المراة يومئذ شرحا وافيا . وتمثل ما كانوا يعتقدون فيها من الفساد والشر وسوء الظن » . واغلب ظني ان المراة الخاطئة المصورة في « الليالى » ــ هي المراة الجارية .. التي كانت تشترى وتباع ، وليست المراة الحـــرة .

وحتى نقرب للقارئ صورة لطبيعة القص في الليالي ، نقدم أولا .. هذا الجزء الذى نبدأ به :

« حكي والله أعلم ، وأعز وأكرم ، انه كان فيما مضى وتقدم من قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان، ملك من ملوك ساسان بجزائر الهند والصين (؟!) صاحب أعوان وخدم وحشم ، وكان له ولدان أحدهما كبير والآخر صغير ، وكان الكبير أفرس من الصغير . وقد ملك البلاد وحكم بالعدل بين العباد ، ولحبه أهل مملكته ، وكان اسمه « شهريار » . وكان أخوه الصغير اسمه الملك « شـــاه زمان » ، وكان ملك سمرقند العجم .. » .

على هذا النحو تمهد الليالى لبدء حكاياتها : فالبطلان هنا كل منهما ملك .. وابن ملك ، وكون بطل الحكاية الشعبية ملكا أو أميرا ، فان هذا يجعل قصته أكثر تشويقا ومأساته أكثر جذبا ، وما حدث له أشد عبرة وتأثيرا ، ذلك أن المأساة حين تحدث لانسان عظيم ، فان هذا يعطى القصة مزيدا من العناية والتشويق بالنسبة لعامة القراء والمستمعين .

وتمضي الحكاية لتبين ان الأخ الأصغر اشتاق لرؤية أخيه ، فقرر السفر اليه ، لكنه في الطريق تذكر أمرا فعاد الى قصره ، واذا به يفاجأ بزوجته تخونه مع احد العبيد ، فيقتلها ويمضى مهموما الى أخيه . وهناك جلس حزينا ، ولم يشارك أخاه شهريار مجالس اللهو أو ملاعب الصيد . وقد اكتشف شاه زمان ان زوجة أخيه هى الأخرى خائنة ، فاطلع اخاه على أمرها فقتلها أيضا .

« وعندئذ قال شهريار لأخيه ، قم بنا نسافر ، حتى ننظر هل جرى لأحد مثلنا ؟ !! » .

ومن العجيب انهما رأيا امرأة خطفها جنى واخفاها .. لكنها

هى الأخرى لم تتورع عن خيانة الجنى ، قائلة : « ان هذا الجنى قد اختطفنى ليلة عرسى ، ثم انه وضعنى فى علبة ، وجعل العلبة داخل صندوق ، ورمى على الصندوق سبعة اقفال ، ولم يعلم أن المراة منا اذا ارادت امرا ، لم يغلبها شىء » .

وهذه الخيانات المتكررة فى مفتتح الحكايات وسيلة جذب وتشويق (ساذجة) من ناحية .. ومن ناحية أخرى تؤكد ماسبق أن ذكرناه من رأى خاص بنا ، وهو أن المراة الخاطئة التى تصورها الليالى .. هى فى أغلب الظن المراة (الجارية) ، التى تبيع هواها لكل مشتر ، وليست المراة الحرة العفيفة .

وهكذا تأكد لشهريار وأخيه أن المراة لا امان لها ، لذلك قرر شهريار أن يتزوج كل يوم فتاة عذراء ، ثم يقتلها بعد الليلة الأولى .. وهذه أيضا وسيلة جذب وتشويق أخرى ، حتى يمضى القارىء فى متابعة الحكاية .

وفى النهاية خلت المدينة من الفتيات أو كادت ، فقررت ابنة الوزير .. أن تنتقم لبنات جنسها . فقد كانت للوزير ابنتان « ذاتا حسن وجمال ، وبهاء قد واعتدال ، وكانت الكبيرة (شهرزاد) قد قرأت الكتب والتواريخ ، وسير الملوك السابقين ، واخبار الأمم الماضين ، فقالت لأبيها : مالى أراك مغتما ، وقد قال بعضهم :

قل لمن يحمل هما
ان هما لا يدوم

مثل ما يفنى السرور
هكذا تفنى الهموم

وحين علمت سـبب همه ، طلبت منه أن يزوجها هذا الملك « فاما أن أعيش ، أو اكون فداء لبنات المسلمين ، وسببا لخلاصهن من بين يديه .. » .

* * *

وهكذا اختارت شهرزاد طريقها واعية ، لأنها فتاة مثقفة .. وسوف تغلب بالثقافة القصصية شرور شهريار . وهنا نصل الى نقطة فنية (مهمة) ، وهى **أن القص هنا — داخـل الحكاية — وسيلة للانقاذ من الموت . فاذا ما كان القص قادرا على ان ينجي من (القتل) .. ويعدل الرأى .. وينشر الامان ، ويعيد الثقة المستلبة . افليس ذلك القص بقادر ايضا على أن يمتع البشـر ويسليهم ، ويقدم لهم الحكمة والعبرة والموعظة الحسنة . ؟!**

وقد بدأت الحكايات تتوالى واحـــدة اثر اخرى ، كأنما الحكى (توالد) مســتمر ، بل انها أحيانا تلتئم فيتداخل الحكى .. ويتضافر القص . وليس هناك ادنى فاصل بين عوالم الخير والشر، والأنس والجن ، والحيوانات والطيور ، كما أن الشخصيات تسير فوق الأرض وتحت الماء .. وتتحرك بحرية فيما بين الأرض والسماء، لا يمنعها حجاب ..!!

وقد ترتب على هذا التداخل بين العوالم امتزاج آخر بين أسلوبى النثر والشعر ، ومضت شهرزاد تقدم حكاياتها .. أو لياليها، حيث نجد : قصة الصياد والعفريت ، وسفرات «رحلات السندباد»، وحكاية مزين « حلاق » بغداد ، وحكاية حسن البصرى ، وحكاية البنات والحمال ، وحكاية معروف الاســكافى ، وحكاية الخياط الأحدب والمباشر واليهودى والنصرانى ، الى غير ذلك من الحكايات .. ولو أن كل حكاية — فى حد ذاتها — تحتوى على حكايات ذات شعب متعددة .

ورغم كل الغرائب والعجائب .. فان هناك أمرا تلح عليه كل قصص وحكايات الليالى .. وهو « **الوظيفة الاخلاقية** » ، **وتأكيد انتصار الخير على الشر** .

هناك أمر فنى مهم .. أود أن أشير سريعا اليه — وهو تلك الطريقة الرائعة فى الحكى والقص .. التى قامت عليها الليالى وبنت الأحداث المركبة والشخصيات المتقابلة عليها ، وهو الوعى بعنصر « **التشويق** » واثارة الدهشة ، حتى تجذب القارىء ، لكى يقرأ حوالى الفى صفحة تقريبا .

ليت كتاب السينما والمسرح والقصة ، يلتفتون الى اهمية هذا الكتاب القصصى العظيم .. من حيث الشكل والمضمون ، ويقتبسون منه الكثير ، فانه معين فنى لا ينضب ، واذا كان غيرنا تأثروا به فى كل مجالات الفن .. فما أحرانا أن ننفض الغبار عن تراثنا ، ونقدمه بروح جديدة ، ورؤية معاصرة ، حتى يستمر التواصل بين تراث الأمس وابداع اليوم .

القصـــص الشـــعبى فـــى مصـــر

يلعب القصص الشعبى دورا كبيرا فى حياة المجتمع المصرى .. وكان هذا الدور أكثر خطورة ووضوحا ــ قبل أن تنتشر وسائل الاعلام الحديثة فى مصر .. وفى غيرها من أقطار العالم العربى .

وقد عمل كثير من الباحثين فى الأدب الشعبى على جمع هذه القصص ، وقد قاموا بدور كبير فى الجمع والدراسة ، نظرا لكثافة السكان فى مصر .. واتساع المساحة ، وتغير بعض أنماط السلوك والعادات من اقليم الى آخر ، وقد تعددت وتنوعت الدراسات فى هذا المجال ، لذلك سوف نكتفى بعرض نموذج واحد .. يمثل بعض جهود الباحثين فى هذا المجال الخصب ، وهو : « **القصـــص الشعبى فى محافظة الدقهلية** » .. وهو من اعداد الباحث « فتوح أحمد فرج » ، وقد صدر عن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بمصر سنة ١٩٧٧ .

والكتاب يبدأ بعدة مقدمات عن العمل الميدانى ، ومجتمع القص ومناسباته .. ثم العلاقة بين الراوى والجمهور فى مجال القص الشعبى ، كما يبين أن القصص الشعبى — الذى جمع مادته — يؤدى بثلاث طرق هى : الغناء أو السرد أو التمثيل .

أما القصص « الغنائى » فيقوم به «المداحون» ، الذين يقدمون السيرة النبوية وبعض القصص الدينى والأخلاقى ، ويلحق هذا ويتصل به عن قرب شعراء « الربابة » ، الذين تخصصوا فى تقديم بعض السير الشعبية وخاصة سيرة بنى هلال ، كما يقوم بدور القص فى هذا المجال ايضا مطربو الغناء البلدى ، الذين تخصصوا فى تقديم « الموال » بأنواعه المختلفة ، وبعض الحكايات الشعبية المشهورة مثل ادهم الشرقاوى .

واما القصص الذى يروى عن طريق « السرد » ، فهو الذى يحكى — فى الغالب — فى مناسبات شبه رسمية أو تقليدية ، كأن تجلس الجدة — أو الجد — مع الصغار ، وتحكى لهم بعض القصص ، أو يكون ذلك فى بعض المجالس ، التى تجمع بعض كبار السن ذوى الخبرة فى بعض المناسبات الدينية أو الاجتماعية .

والطريقة الثالثة .. طريقة حديثة الى حد ما ، حيث تقوم بعض فرق التمثيل الشعبى ، بأداء بعض القصص اداء «تمثيليا » شبه مسرحي .

ومع أن الباحث لم يصرح .. فأننا نعتقد — بالخبرة والمعاشرة — أن طرق الأداء الثلاث هذه ، قد تتداخل ، حيث يجمع القاص احيانا بين اسلوبي الشعر والنثر ، لكى يشرح بالنثر بعض ما يصعب فهمه عن طريق الشعر ، أو قد يروي قصة نثرية ، فيحاول أن يجمل حديثه ببعض ابيات من الشعر .. كما ان القاص

قد يغنى ويمثل فى اثناء سرده للقصة ، حتى يحتفظ بعنصر التشويق ودافع الجذب للمستمعين .

وقد جمع الباحث مجموعة كبيرة من القصـــص صـــنفها كالتالى:

١ — حكايات خـــرافية .

٢ — حكايات ذات طابع واقعى .

٣ — حكايات الواقع الاجتماعى .

٤ — حكايات الواقع السياسى .

٥ — حكاية المعتقدات (الدينية والاجتماعية) .

٦ — نوادر وحكايات مرحة .

وقد أثبت الباحث اسم راوى كل قصة ، ومهنته ، وعمره ، وبيان المصـــدر الذى يعتمد عليه فى رواية الحكاية — ان أمكن ذلك .

ونريد أن ننتهى من هذا العرض العام لكتاب « القصص الشعبى فى محافظة الدقهلية » باعتباره نموذجا دالا بالنســـبة للقصص الشعبى فى المجتمع العربى .. فى مصر الى ما يلى :

كثرة النصوص المجموعة .. وهذا ان دل على شىء ، فانما يدل على مدى ثراء الخيال الشعبى ، وانه رغم البساطة فى الحياة والتعليم ، فانه كا ذا مخيلة خصبة ، تؤلف القصص ، وتروى الحكايات ، وتنظم الأشعار .

وتعدد الموضوعات فى هذه الحكايات .. يؤكد أن الوجدان الشعبى ، كان يعالج كثيرا قضاياه الدينية والسياسية والاجتماعية

فى قالب قصصى بسيط ، يجمع بين المعقول واللامعقول ، والمنظور وغير المنظور ، ويوحد بين الكائنات البشرية وغير البشرية ، بل انه أحيانا يستعين بالحيوانات . وهذا التعدد أو التنوع فى شخوص الحكاية ليس وسيلة تحايل أو حسن تخلص ، حتى يقدر القاص على ان يقول ما يريد على لسان اى كائن بشرى .. أو من الملائكة .. أو الجن .. أو الحيوانات .. أو الطيور .

ونود ان نؤكد فى النهاية أن هذه القصص تشكل مادة أدبية ثرية ، تغذى عليها وجدان الأجداد والآباء .. وليت مؤلفى الدراما التليفزيونية والاذاعية وكاتبى القصص يستلهمون بعض هذه القصص ، لتظل العلاقة ممتدة بين الماضى والحاضر .. بل بين الحاضر والمستقبل أيضا .

حيـــاة محمـــد

(١)

« ان الله وملائكته يصلون على النبى ، يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما »

* * *

السيرة : (مصطلح) ادبى / تاريخى ، يطلق على نوع من الكتابة شـاع وانتشر بدرجة كبيرة فى التراث العربى قديما وحديثا . وهذا المجال يعكس عناية العرب منذ القديم بالتأريخ للشخصيات العظيمة فى المجالات كافة . وكلمة « سيرة » و « ترجمة » مترادفتان الى حد ما ، فى الدلالة على وصف أو سرد الأحداث المهمة فى حياة انسـان (عظيم) منذ الميلاد حتى الوفـاة . بيد أن كلمة «سيرة» أقدم

من كلمة « ترجمة » فى الاستعمال والانتشار .. وبالتالى فى الاصطلاح الفنى .

والسيرة — سواء أكانت (ذاتية) .. أى كتبها العظيم عن نفسه .. أم (غيرية) أى كتبها غيره عن حياته — تعد من مجالات التأليف والابداع المزدهرة بشكل واسع وعظيم فى التراث العربى. فالعرب قد استوعبوا أنواع السير كافة على مسوى المضـــمون والشكل ، نمن حيث « المضمون » اتسعت كتاباتهم لتشمل السيرة الدينية — والتاريخية — والأدبية — والشعبية ، ومن حيث «الشكل» كتبوا السيرة الذاتية والغيرية فى آن واحد تقريبا ، وان كان تراث السيرة الغيرية أوسع وأرحب ، لأنه يندر ان نجد انسانا عظيما ، بستطيع أن يكتب عن نفسه ، ويترجم لحياته .

وكانت سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) أول وأهم سيرة شغلت المسلمين فى القديم والحديث .

أما فى « القديم » فقد توقف عندها كثيرا كل المؤرخين القدماء — على أساس أنها تشكل جزءا أصيلا ومهما من تاريخ الاســلام ودول المسلمين ، بل انها تشكل حسن البدء ومسك الافتتاح بالنسبة للتاريخ الاسلامى كله .

ولكن هناك غير كتب التاريخ والمغازى كتبا خاصة ، كانت تدور كلها حول هذه السيرة العطرة ، وتتناول قصة حياته (صلى الله عليه وسلم) بالشرح والتفصيل ، لأن فهم سيرة المصــطفى أمر — فى جوهره — يدل على فهم كيفية ظهور الاسلام وانتشاره منذ البدء الى أن اكمل الرســول (صــلى الله عليه وسلم) معالم الرسالة يوم نزل قوله تعالى : **((اليوم اكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا))** .

ومن اهم الذين كتبوا عن سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى القديم : موسى بن عقبة ، ومحمد بن شهاب الزهرى ، ومحمد ابن أسحاق ، وعبد الملك بن هشام ، والقاضى عياض ، وابن جرير الطبرى ، وابن سيد الناس اليعمرى ، وشهاب الدين القسطلانى . ولاشك أن أخطر هؤلاء المؤرخين جميعا هو عبد الملك بن هشام ، الذى صارت تنسب أليه أهم سيرة للرسول ، التى رواها ابن اسحاق ، وأصبحت تعرف بسيرة ابن هشام .

واهم ما كتب عن سيرة الرسول فى « العصر الحديث » :

— نهاية الأيجاز فى سيرة ساكن الحجاز : رفاعة الطهطاوى

— حياة محمد : محمد حسين هيكل ..

— عبقرية محمد : عباس محمود العقاد .

— على هامش السيرة : طه حسين .

— محمد والذين آمنوا معه : عبد الحميد جودة السحار .

— محمد رسول الحرية : عبد الرحمن الشرقاوى .

ومن اهم « الشعراء » الذين توقفوا عند السيرة فى الحديث :

— محمود سامى البارودى : كشف الغمة فى مدح سيد الأمة .

— احمد محرم : الالياذة الاسلامية .

— احمد شوقى : دول الشرق وعظماء الاسلام .. بالاضافة الى قصائد أخرى فى ديوانه .

ونريد أن نصل من هذا كله الى أن شخصية الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) شغلت اهتمام المسلمين فى القديم والحديث ،

واهتم بها المؤرخون والأدباء اهتماما كبيرا ، بل ان مؤلفى الأدب الشعبى والشعر العامى ، قد توقفوا كثيرا عند سيرته العطرة ، يكتبون عن أحداثها الجليلة ، ويوضحون العبرة والموعظة الحسنة من تاريخ المصطفى (صلى الله عليه وسلم) ، كما يستمدون المغازى العميقة ، التى تزيدهم ايمانا ، وتشرح صدورهم — وصـــدور غيرهم — للايمان ، مستلهمين قوله تعالى :

« ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، انك لا تخلف الميعاد » .

* * *

(٢)

« لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة ،

لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا .. »

من الكتب القيمة الكثيرة .. التى قرأتها فى وقت باكر من صباى كتاب « **حياة محمد** » (صلى الله عليه وسلم) للأديب المفكر السياسى الدكتور محمد حسين هيكل (١٨٨٨ — ١٩٥٦) . وأهمية المؤلف تكمن فى أنه عالم مفكر ، حصل على الدكتوراه فى القانون السياسى من فرنسا سنة ١٩١٢ ، كما أنه فى بدء حياته كان هاويا للأدب ، ومبشرا بكثير من مبادىء الحضـــارة الأوروبية والفكر السياسى والأدبى الحديث ، ثم اشتغل بالصـــحافة والسياسة والنقد الأدبى ، لكنه بعد فترة من حياته عاد الى التراث الاسلامى، ليكتب مجموعة من الكتب عن الرسول والخلفاء الراشدين ، من هنا فانه بدأ يكتب وفى جعبته حصيلة ثقافية واسعة ، وخبرة عريضة

بالفكر واصول الكتابة ، بمعنى آخر .. انه بعد أن كان من دعاة الحضارة الغربية اصبح من رعاة الدعوة الى العودة الي الجذور الحضارية للأمة ، وضـــرورة الدفاع عن مقدســاتها ومبادئها واعلامها .

* * *

اما اهمية الكتاب نفسه فتعود الى مجموعة امور :

١ ـ الكتاب يرسم صورة شاملة للسيرة العطرة منذ البدء حتى الختام ، محافظا على الاطار التاريخى لحركة الشــخصيات والأحداث ، التى تمركزت حول حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى واحد وثلاثين فصلا ، تبدأ بوصف الاطار العام لبلاد العرب قبل الاسلام ، ثم مولده ونشأته الأولى .. مرورا بالزواج والبعثة والدعوة والهجرة والغزوات ، واخيرا فتح مكة ثم الوفاة .

ومعنى هذ ا أن المؤلف لم يترك (حلقة) من حلقات السيرة النبوية الا وتوقف عندها بالدرس والشـــرح والتأمل والاستنباط ومناقشة آراء السابقين : عربا كانوا أم غير عرب ، حتى يقول رأيه الفصـــل .

كما نجد ـ على سبيل المثال ـ فى الفصل السابع عشر ، الذى يدور حـــول « أزواج النبى » ويرد فيه ـ بقوة الحجـة والبرهان ـ على آراء كثير من المستشرقين .

٢ ـ اعتمد المؤلف ـ د . هيكل ـ على المنهج العلمى فى البحث والتأريخ ، وهو يرى أن هذا المنهج الحديث هو أساس دعوة الرســـول (صلى الله عليه وسلم) ، التى تنادى بالتأمل والتفكير وضرورة استخدام العقل للوصول الى الحقيقة والرأى الصواب .

٣ — التاريخ لسيرة انسان عظيم — مثل الرسول (صلى الله عليه وسلم) — لا تقوم على حسن النوايا وحدها ؛ وانما ينبغى الاعتماد على المصادر (العمدة) المعتمدة ، ولذلك فقد اعتمد المؤلف على القرآن الكريم ، وعلى كثير من كتب السيرة والتاريخ الاسلامى، ولا سيما « سيرة ابن هشام » — التى تعد أوفى كتب السيرة النبوية فى القديم ، كما اعتمد على بعض كتب المستشرقين ، ولاسيما كتاب المستشرق الفرنسى « أميل دور منجم » ، لأنه — فى رأيه — اعدل من كتب عن الرسول من المستشرقين .

٤ — ختم الدكتور هيكل كتابه العظيم هذا عن سيرة الرسول بفصلين او مبحثين كبيرين : الأول بعنوان « الحضارة الاسلامية كما صورها القرآن » ، والثانى بعنوان « المستشرقون والحضارة الاسلامية » وفيه يفند مزاعم بعض المستشرقين ويرد عليها ، ويوضح الاطار المتكامل للدين الاسلامى، الذى يهتم بالجسد والروح، والدنيا والآخرة ، والحرب والسلم فى آن واحد . وينتهى الى أن السلام العالمى لم ينتشر ولم يتحقق ، لأن روح التسامح والتكافل ، التى دعا اليها الاسلام لا تسود العالم ، واكد فى النهاية أن السمو فى التسامح أساس السلام ، وأن السلام يستمد روحه من الاسلام، وأن ما يدعو اليه الاسلام فى النهاية مستمد من حياة محمد ، وما تحمل سيرته من عبرة وعظة لأولى الالباب ، الذين يرجون رحمة الله ، ويرغبون فى أن يسود السلام والمحبة بين البشر .

ثم يؤكد المؤلف فى النهاية أن الغاية من هذا الكتاب ليست دينية فحسب ، وانما هذا البحث جدير بأن يهدى الانسانية الى طريقها

فى الحضارة الجديدة، التى تتلمسها .. لأن القيم الروحية وحدها ، هى التى تؤسس الحياة على دعائم ثابتة . أما المادة فلا تلهم فيما جادة ، ولا تكون نواة لحضارة أبدية .

وعلى هذا .. فليست الغاية من الكتاب دينية محضة ــ كما قد يظن البعض ــ بل الغاية الصحيحة : أن تعرف الانسانية كيف تسلك سبيلها الى الكمال ، الذى دلها محمد على طريقته ، من خلال الوعى بأحداث سيرتهــ التى يصورها الكتاب بأســـــلوب يجمع بين موضوعية العلم ، ودقة التاريخ ، وشاعرية الأدب .

السرياليـــة .. مذهب فنى .. أم طريقة حياة ؟!

بموت « سلفادور دالى » فى يناير ١٩٨٩ ـــ يكون قد رحل أهم فنان سيريالى فى العصر الحديث ، ويكون أيضا قد مات ثانى أهم فنان تشكيلى فى القرن العشرين بعد « بابلو بيكاسو » .. والسؤال الذى يطرح نفسه ـــ بقوة ـــ بعد وفاته ، هو الى أى حد يمكن أن تعد « السيريالية » مذهبا من مذاهب الفن الحديث ؟!

الذى لا ريب فيه أن الفن تظهر فيه اتجاهات متعددة ، واشكال متنوعة ـــ عبر مسيرته التاريخية الطويلة . غير أن الاتجاه الفنى لا يصبح « مدرسة » أو « مذهبا » ، الا اذا كانت له فلسفة فكرية تدعمه ، لأن فلسفة الفن فى النهاية جزء ـــ أو فرع ـــ من الفلسفة الفكرية العامة ، لمجتمع فى مرحلة من مراحل تطوره البشـــــرى والحضارى ، ومعنى هذا أن المذاهب الفنية « لا تفرض » بقانون أو

دستور .. كما «لا تلغى» بناو على رغبة فرد أو مجموعة أفراد ، كما أنها أيضا لا تشيع ولا تزدهر الا فى ظل هيمنة ظروف «اجتماعية» خاصة ، تفرز بالضرورة فلسفة « فكرية » ، تسود كافة نواحى الانشطة البشرية فى المجتمع .. والفن واحدة منها — بطبيعة الحال . اى أن فلسفة الفن « تنسجم » — بالضرورة — مع الاطار الاجتماعى ، الذى تولد فى رحمه ، وتنمو بين جنباته .. وداخل أســـواره ..!!

ومعنى هذا أيضا أن « منهجا » ما ، من مناهج الفلسفة حين يسيطر على الفكر والفن .. فانه يسيطر على اسلوب حياة البشر أيضا .. **اى أن كل مدرسة ادبية .. هى — فى حقيقتها الواقعية : « مذهب فى الفن .. و .. طريقة حياة .. فى (آن) واحد » . وهذا ينطبق على المدارس الأدبية الـــكبرى فى الفن — مثل : الكلاسيكية والرومانسية والواقعية .**

ولـــكن ..

هل المنطق نفسه .. والقياس ذاته ، يمكن أن ينطبق على اتجاهات فرعية .. ومدارس ثانوية فى الفن — مثل : الرمزية .. والتكعيبية .. والدادية .. والبـــاروك .. والوجـــودية .. والسيريالية ... الخ ؟!!

لا ريب أن الاجابة على ذلك التساؤل تكون بالايجاب .. ولكن مع الأخذ في الاعتبار أن المذاهب الأدبية الكبرى مثل : الكلاسيكية والرومانسية والواقعية ، تمثل — فى الحقيقة — «اهابا واسعا» ، ينتظم مراحل تاريخية واجتماعية كبرى فى حياة البشر ، وتعبر — فى اللحظة ذاتها — عن محاور « أصيلة » فى الحركة الاجتماعية والفكر الفلسفي ، من هنا **تصبح هذه المذاهب « الكبرى » مذاهب**

عامة ، ذات نظرة « شمولية » رحبة ، تعكس حركة الجماعة — فى مجملها العام ، وتعبر عن الخطوط العريضة فى حياة المجتمعات الانسانية ، من هنا يكون « نتاجها » المعرفى والفنى اطارا شاملا لمجمل الحركة .. ويقدم تفسيرا للأشواق والطموحات كافة التى يرغب البشر فى تجاوزها وتحقيقها فى وقت واحد .

أما الاتجاهات الفرعية — التى يمكن أن نطلق عليها مجازا .. مدارس فنية صغرى ، فانها تعبر عن اتجاهات خاصة ، وتعكس فكر « طائفة » محدودة — داخل جماعة من المجتمع ، ونظرا لأننا فى عصر الديمقراطية والمســـــاواة ، فاننا يجب أن نرصد هذه الاتجاهات « الثانوية » على أساس أنها تمثل رؤية « خاصة » لجماعة « محدودة » داخل اطار السياق العام لحركة المجتمع : من هنا فانها تكسب فى مجال الفن والأدب « قدرا من الشرعية » والأحقية فى الوجود ، انطلاقا من قاعدة حضارية تقول :

« قد اختلف معك فى الرأى ، ولكنى على استعداد للتضحية بحياتى من اجل أن تعبر عن رأيك بحرية .. !! »

من هذا المنطلق نتوقف — اليوم — عند « السيريالية » باعتبارها تمثل اتجاها فنيا محدودا .. كانت له بعض أصـــــداء وتجليات فنية خاصة فى مجال الشعر والفن التشـــــكيلى . ومن شعراء هذا الاتجاه فى أسبانيا الشاعر : « فيدريكو جارســـــيا لوركا » .. وفى فرنسا الشعراء : « أندريه بريتون » و « لوى أراجون » — صاحب ديوان « عيون ايلزا » و « بول ايلوار » و « جورج سادول » ..

وكلمة « سيريالية » Sur-rialism كلمة فرنسية مركبة من كلمتين Sur بمعنى « فوق » و Realism بمعنى

« الواقع » ـــ أى أنها الفن الذى لا يعبر عن الواقع ، ولا يصور المعاش ، ولا يحاكى الحقيقة .. وانما يتجاوز الواقع الى ما بعده أو الى ما فوقه .. والى ما خلفه من تيارات الوعى واللاوعى ، ويفسح المجال ـــ واسعا دون ضفاف ـــ لشطحات الخيال ومخزون الذاكرة ، وشبق الرغبة ، وتداعى الحلم والمخيلة .

وهذا الاتجاه الفنى ـــ قريب الى حد كبير ـــ من اتجـــــاه « الباروك » «Baroque» الذى ساد فى أوروبا مع نهاية القرن التاســـع عشر .. وكلمة « باروك » مشـــــتقة من كلمة « برتغالية » تعنى : « لؤلؤة مشوهة » ، دلالة على السمات غير المتجانسة وتعبيرا عن الاشكال غير المحسوبة أو المتناسقة ، التى تميز ابداعهم .

ومعنى هذا أن « السيريالية » ـــ فى رأينا ـــ تمثل احدى حلقات الرومانسية الأخيرة ـــ عند أفولها وافلاسها ، وعجزها عن التعبير عن هموم المجتمع ومهامه فى مطلع القرن العشرين . وهى ـــ أى السيريالية ـــ قد استفادت من بعض مبادىء علم النفس والفلسفة العبثية أو العدمية وبعض النماذج الفنية لعصر النهضة .

وهى باختصار شديد تمثل تعبيرا عما عاناه المجتمع الأوروبى من تمزق وحيرة فى مرحـــــلة ما بين الحربين العالميتين : الأولى والثـــــانية .

سلفادور دالى والحد الفارق بين الفنون .. والجنون

شغل كثير من فلاسفة الفن وعلماء النفس بقضية خطيرة ــ منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث ــ مؤداها :

هل ثمة علاقة بين الفنون والجنون ... ؟!!

ولعل الفلسفة الرومانسية هى أكثر الفلسفات عناية بهذه القضية ، لأنها شغلت بالفنان المبدع كثيرا ضمن ما شغلت به من قواعد الفن ومبادىء الجمال . واذا كانت الرومانسية فلسفة أدبية تؤمن بـ (الذات) وتقدس حرية (الفرد) ووجوده الانسانى ، فان التقدم الهائل ــ الذى حققه « علم النفس » فى ظلها ، ساعد كثيرا .. على كشف بعض الحقائق النفسية الخاصة بـ «الابداع» باعتباره (حالة) من حالات الانتاج المعرفى ، له طبيعة نوعية خاصة، من هنا بداوا ينظرون الى الفنان باعتباره انسانا «متميزا» ،

له قدرات خاصة .. وملكات لم يؤتها غيره من البشر . وفى ظل هذه النظـــــرة « المرموقة » للفنان ، وجدنا كثيرا من الفنـــانين الرومانسيين أنفســـهم — بوحى من هذا الاكتشاف — يتفننون فى تغيير مظهرهم الخارجى عن بقية البشر ، كأن يطيلوا شعر الرأس واللحية أو تصفيف الشعر .. أو تربية الشارب .. على نحو خاص أقرب الى الشذوذ لدرجة أن بعضهم كان يلبس القرط فى أذن واحدة أحيانا ، أو يجعل قميصه من الدانتيلا المزركشة الفاخرة .. وكرافتته ذات هيئة خاصة .. والجاكتة تطول بدرجة لافتة ، أو تكون هى والبالطو من قماش لامع له بريق .. كل هذا وغيره اظهارا للتمايز واعلانا له .

بيد أن الفلسفة (الواقعية) انتهت الى أن المسافة بين الفنان الملهم والانسان العادى ، ليست على مثل هذا النحو (المبالغ) فيه من التمايز والتقدير والاحترام والمغايرة ، لأن الفنان لا يختلف عن غيره الا بميزة واحدة هى : القدرة على التعبير ، وما يترتب عليها من عمق المخيلة ورهافة الحس وذكاء الضمير .

***

وتعد سيرة الفنان السيريالى الراحل « سلفادور دالى » (١٩٠٤ — ١٩٨٩) مثالا جيدا لزوال الحد الفارق بين العبقرية والجنون فى الفن . وقد غزت هذه التجاوزات المخالفة للمألوف طبيعة المجتمع الاوروبى بين حربين عالميتين كبيرتين هما : الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) ، والثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٤) . فقد شهدت أوروبا خلال النصف الاول من هذا القرن صـــــراعات سياسية وعسكرية عاصفة ، دمرت الكثير من الممالك والمدن والبشر .. وشهدت أوروبا — فى هذه الفترة أيضا — ميلاد النازية والفاشية والشيوعية ، كما عايشت الثورة الصناعية والمشكلات الاجتماعية الخطيرة ، كما شهدت طفرة فى مجال الفلسفات ومناهج البحث

والتكنولوجيا .. وفي الوقت نفسه فقدت « الكنيسة » دورها الروحي . كل هذا ـ وغيره الكثير ـ ساعد على ظهور كثير من الفلسفات والفنون العبثية والسيريالية والرمزية والتكعيبية والوجودية .. وكلها ـ تقريبا ـ تعبر عن احساس الفرد بـ (الضياع) والقهر ازاء قسوة الآلة وشدة الصراع وتناقض الحياة بالاضافة الى كوارث الحروب وتفسخ العلاقات وانهيار نسق « الأسرة » باعتبارها درعا واقيا للامان الاجتماعي والاستقرار النفسي .

فى ظل تلك الظروف المعقدة ولد سلفادور الاسبانى الجنسية سنة ١٩٠٤ ، وقد ظهرت موهبته الفنية فى الرسم مبكرا ، فتنقل بين عدة مدارس فى طفولته وشبابه الى ان التحق بمدرسة «الفنون الجميلة» بمدريد ، وتتلمذ على يد الاستاذ «مورينوكاربونير» وهو أستاذ بيكاسو أيضا ، لكنه كان فى فترة تعلمه الرسم حريصا على القراءة فى الفلسفة وعلم النفس ، وخاصة كتب سيجموند فرويد ، وعندما انتهى من دراسته كان قد تعرف بشكل جيد على اهم الاتجاهات الفنية فى مطلع القرن العشرين ، مثل : المستقبلية والتكعيبية والميتافيزيقية والسريالية .

وعندما تجاوز العشرين بقليل ، وبدأ يعرض لوحاته ـ التى كانت تتميز بغرابة الفكرة ومهارة التشكيل وعمق المضمون ـ جذب انتباه النقاد والفنانين ، لانه قد طور فى بلاغة الصياغة وبراعة التشكيل ، حتى بالنسبة للسرياليين ، الذين كان ينضوى تحت ظل مذهبهم ، غير أن اهم ما يميز (أسلوبه) فى الرسم هو : قدرته الفائقة على ايجاد علاقات ـ على مستوى المضمون والشكل ـ بين المواقف والأشياء التى يصورها ، لانه ـ بوحى من قراءاته فى علم النفس ـ كان يستجيب بتلقائية لتيار اللاشعور ، وتهاويم القلق ، ومشاعر الكبت ، وخدع البصر .

وقد تنقل كثيرا بين باريس ونيويورك وان عاد الى أسبانيا مسقط رأسه ـ فى النهاية .. وكما تنقل بين المدن والبلاد تنقل أيضا بين الرسم والأدب والنقد الفنى ، ومن أهم كتبه :

الجنون النقدى ـ المرأة السافرة ـ الدم أحلى من العسل ـ الحياة السرية لسلفادور دالى ـ خمسون سرا من أسرار الفن السحرى .

ولكن « دالى » لم يكن أديبا وفنانا سيرياليا فحسب ، وانما عاش (حياة سريالية) أيضا طيلة عمره ، حريصا على شاربه الحلزونى المميز ، وملابسه المبالغ فى زركشتها ، ونظراته المبحلقة ، ووجهه المتجهم .. بل انه ذهب الى بعض معارضه ـ أحيانا ـ مرتديا ملابس البحر . ومن أهم لوحاته : المسرات المضيئة ـ القناع ـ عذراء الميناء ـ الحاح الذاكرة ـ أصل الرغبة ـ العشاء الأخير ـ ومجموعة لوحات دينية تصور المسيح فى أيامه الأخيرة .

ومعنى هذا أن « دالى » عاش حياة فنية وانسانية طويلة عريضة ، عاشها فنانا وأديبا وانسانا « سرياليا » ، وتمرد على كل المدارس الفنية ، ليصبح هو نفسه مدرسة ، تربط الفن المعاصر بشطحات اللاوعى ، وتداعيات اللاشعور ، وتعيد ربط الفن بالاسطورة .

فهل يمكن بعد كل هذا أن نقول : انه فنان مجنون .. وأن ثمة علاقة بين الفنون والجنون .. ؟! سؤال ننتظر الاجابة عنه من بعض العقلاء .. !!

الأدبـــاء ..
وكيف يتبعهم الغاوون ؟ !

الأدب .. أهم أنواع الفن ، وكانت له لدى العرب منذ فجر تاريخهم الى اليوم مكانة سامية ومنزلة رفيعة ، لأنه يعتمد على التوظيف الفنى للغة . وقد حاول العرب ان يعبروا من خلال الفنون الأدبية : شعرا ونثرا ـــ عما يحسون به من مشاعر ، وعما يدور فى حياتهم من قضايا ومواقف .

ونظرا لأن الشعر أسبق ابداعا وتواجدا من النثر الفنى ـــ اذ أن معظم فنون النثر لا تزدهر الا فى ظل الكتابة والتدوين ، لذلك تأخر ظهورها نسبيا عن الشعر ـــ ونتيجة لأسبقية الشعر ، فقد احتل الشاعر مكانة عظيمة عند العرب قبل الاسلام وبعده . واذا أعلن عن ميلاد شاعر فى قبيلة ، فانها كانت تحتفى بذلك حفاوة بالغة ، لأن الشاعر كان يؤدى أكثر من وظيفة فنية ، فهو الحكيم .. المعلم .. المرفه .. المسلى ، الذى تعقد له جلسات السمر فى ليالى

القمر ، ليتغنى بأمجاد القبيلة (أو الأمة) ، ويفتخر بفضائلها، ويشيد بعظمائها ، ويخلد ذكرى وقائعها وانتصاراتها . كما يحارب بالكلمة البليغة — البالغة القصد — خصومها واعداءها ، لذلك كان الشاعر — والأديب فيما بعد — اميرا غير متوج ، يسال فلا يرد له سؤال ، ويعطى بغير بحساب ، ويتبوأ مناصب ، لا يصل اليها ســـواه . فالشعراء كانوا يحضرون كثيرا من مجالس الخلفاء والقادة والولاة . وكتاب الدواوين ومؤلفو بعض الكتب الأدبية والمناظرات والمقامات كانوا يشغلون مناصب رفيعة ، بل ان بعضهم وصل بفضل الموهبة الأدبية الى مكانة قريبة من الحاكم او الى كرسى الوزارة مثل عبد الحميد الكاتب ، وابن العميد ، وابن زيدون ، والقاضى الفاضل .. وكلنا يعرف مقام بعض الشعراء لدى الحكام والولاة .. كما نجد فى علاقة زهير بن ابى سلمى بهرم بن سنان .. ومكانة النابغة الذبيانى عند المناذرة ومكانة حسان بن ثابت — قبل الاسلام — عند الغساسنة . كما نعرف أيضا مكانة بعض الشـــعراء عند الرسول — صلى الله عليه وسلم — مثل حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة . ومن المعروف ايضا ان الرســـول عفا عن كعب بن زهـــير بعد أن أهدر دمه ، وقبل توبته بعد أن استمع الى قصيدته الشهيرة التى مطلعها :

بانت ســـعاد فقلبى اليوم متبــول
متيم اثرهـــا ، لم يفـد مــكبول

والتى يقول فيها بعد المطلع الغزلى :

انبئت ان رســـول الله اوعـــدنى
والعفــو عند رســـول الله مامول

مهلا هداك الذى اعطاك نافلة الـ
ـقرآن ، فيها مواعيظ وتفصــــيل

لا تأخــذنى بأقوال الوشـــاة ولم
أذنب ، ولو كثرت عنى الأقـــاويل

ان الرســـول لنور يســـتضاء به
مهند من ســـيوف الله مســـلول

من هذا كله يتضح إن الأدب : شعرا ونثرا ــ كانت ــ ولاتزال ــ له منزلة عظيمة ووظيفة انسانية رفيعة لدى العــرب ــ وغيرهم ــ لأن الأدب رسالة فنية ، تعبر عن الوجدان الجمعى ، وتوجه البشر نحو المثل الخالدة والقيم النبيلة بطريقة ، تعتمد على جمال العبارة وحسن الايقاع ، لأن النثر له ايضا ــ فى تقديرى ــ طبيعة خاصة ، لا تخلو من موسيقية النظم ، التى تجذب القارىء ، وتشده ــ بقوة ــ نحو الكتابة . ونجد هذا جليا فى كتابات الجاحظ ، وأبى حيان التوحيدي ، وأبى العلاء المعري ، وابن حزم الأندلسى ، وبديع الزمان ، ومصطفى المنفلوطى ، وطه حســين ، وابراهيم عبد القادر المازنى ، ومحمد حسين هيكل ، وغيرهم من أدباء العربية فى القديم والحديث .

فن الأدب ــ اذن ــ يجذب المتذوقين اليه بالفطرة والسليقة، لأنه نتاج انسانى يخاطب روح الانسان ، ويستثير مشــاعره ، ويشفى جراحه النفسية ، لذلك ورد فى الأثر .. **« ان من البيان لسحرا .. وان من الشعر لحكمة .. !! »** .

الأديب الحق .. يبدع كلاما « يسحر » به سامعيه ، ويخلب لب قرائه ومتذوقيه . وهذا التأثير القوى للأدب ، هو الذى جعل بعض الكفار فى أول الدعوة الاسلامية يظنون ان القرآن الكريم شعر .. وأن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ شاعر .. كبرت كبرت كلمة تخرج من أفواههم .. !!

لكن دلالة هذا تتبدى فى أن بعض العرب كان يرون أن القول الجميل ، يؤثر — بقوة — فى النفوس بدرجة ، يمكن أن يفرق فيها بين المرء وزوجه ، والابن وأبيه ، والأخ وأخيه .

* * *

بعد كل هذا نريد أن نصل الى أن فن الأدب كانت — ولاتزال — له وظيفة انسانية ، ومكانة سامية عند الشعوب والأفراد ، لأنه يؤثر فى المشاعر والأحاسيس ، فهو نوع من « الغذاء الروحى » ، الذى لا يستغنى عنه البشر فى أى زمان أو مكان ، لذلك نجد أن الأحوال السياسية أو الظروف الاقتصادية قد تتعثر أو تضطرب فى بعض المراحل التاريخية ، لكن مسيرة الأدب تظل مستمرة — رغم ما قد يعتريها من قوة أو ضعف .. أو من تطور أو تخلف . الأدب اذن يلبى حاجة ضرورية عند الشعوب والأفراد ، وتأثيره على البشر خطير وكبير ، لذلك ينصح أحمد شوقى الشعراء على لسان المحبوبة بقوله :

جانبتنى ثوبى العصى وقالت
أنقم الناس أيها الشعراء

فاتقوا الله فى قلوب العذارى
فالعذارى قلوبهن هواء

ولا ريب فى أن الأدباء — فى كل عصر وجيل .. ومن خلال كل غرض أو نوع — سوف يتبعهم الغاوون .. القارئون .. المتذوقون ، الذين يبحثون فى الفن الأدبى عن غذاء روحى ، لأن البشر لا يقدرون أن يستغنوا عنه .

الأدب رسالة سامية ، وتعبير عن أحلام جميلة ، ومعان نبيلة ، تخاطب الناس أجمعين ، لذلك يتجاوز النص الأدبى الجيد تاريخ أمته ، ليصبح جزءا من تراث الانسانية ، من هنا تنشط

حركة الترجمة الأدبية طوال عصور التاريخ الثقافى للبشرية ، لذلك فاننا نرى أن الأدب يمثل ضرورة ملحة فى حياة البشر ، وله وظيفة انســــانية رفيعة فى كافة المجتمعات ــ رغم اختــلاف موقعها الحضارى ، وتفاوت دورها التاريخى . وفى النهاية نؤكد أن الأدب الذى نؤمن به ، وندعو اليه هو الأدب الملـــــتزم ، الذى يدعو الى التمسك بالقيم الدينية ، والمثل الأخلاقية ، والمبادىء الانسانية ، التى تدعو الى الحق والمحبة ، لأن الأدب الحقيقى هو الذى يعبر عن الخير والجمال ، ويدعو الى البر والعدل ، ويبشر بالحرية والأمل .

لغـــة الأدب ..
وأدب اللغـــة

الأدب : واحد من اهم الأنواع الفنية ، واخص ما يميزه هو الاداة ، لأن أداة التعبير أو وســـيلته ، هى التى تحدد النوع بالضرورة : فالموسيقى أداته الصوت المنغم ، والمثال اداته الحجر الرخامى ، والرسام اداته اللون والفرشاة ، والمطرب اداته حنجرته القوية ، والراقص أداته القد المرن .. وهكذا . اما الأدب ـــ وهو من اكثر الفنون ابداعا وتذوقا .. لذلك يمكن إن يكون اكثرها شعبية وتداولا ـــ فأداته اللغة .. وهى مجموعة من الأصوات ، التى اصطلحت عليها أمة من الأمم ، لتحقيق التفاهم والتعاون وتوصيل الفكر بين المرسل (المخاطب) والمرسل اليه (المخاطب) عن طريق شفرة صوتية ، اصطلح على معناها بين ابناء امة واحدة . واللغة هى التى تفرق بين الانسان والحيوان ، لذلك يميز الانسان أو يعرف ـــ أحيانا ـــ بأنه «حيوان ناطق» . كما ان اللغة هى وسيلة التعبير والتسجيل لكل الوان النشاط الانسانى . والانسان بدأ

يصعد فى سلم الحضارة منذ أكتشف اللغة — أو أهتدى أليها — منطوقة ومكتوبة . بل ان الانسان يتحدد موقعه الانسانى بحسب قدرته على البيان . والمرء لا يستطيع أن يكون ذا دور فعال فى حياته أو فى حياة الآخرين الا بقدرته اللغوية على التعبير ، لذلك قال أحد الفلاسفة اليونان القدماء : « **حدثنى حتى أراك .. !!** » .

اللغة اذن ظاهرة انسانية — تعكس قدرة الله على عباده — ونحن دائما نفكر بـ « اللغة » .. ونتكلم باللغة .. بل ان الأحلام نفسها لا تتم بغير اللغة ، لذلك لا نستطيع أن نتخيل فكرة بمعزل عن الألفاظ . وربما كان هذا هو ما جعل النقاد والبلاغيين العرب القدماء يقفون — طويلا — عند ما أسموه العلاقة بين « اللفظ والمعنى » ، لدرجة أن ناقدا مثل ابن قتيبة وقف عندها ، وفصل رأيه فيها ، وهو يفاضل بين أنواع الشعر ، وذهب الى أن هناك :

(أ) شعر حسن لفظه ومعناه .

(ب) شعر حسن لفظه ، ولم يحسن معناه .

(جـ) شعر حسن معناه ، ولم يحسن لفظه .

(د) شعر ساء لفظه ومعناه .

اقتران الصوت بالدلالة ، واللفظ بالمعنى — اذن — أمر بدهى فى كل لغة . كما أن أصحاب كل لغة قسموا ألفاظها الى : اسم وفعل وحرف .. ووضعوا ضوابط منطقية لكل منها ، والى هذا يشير النحوى الأندلسى محمد بن مالك (٦٠٠ — ٦٧٢ هـ) فى مقدمة ألفيته الشهيرة الجامعة لقواعد النحو العربى :

كلامنـــا لفظ مفيـــد كاستـــقم
واســـم وفعـــل ثم حـــرف الكلم

واحـــده كلمة ، والقـــول عم
وكلمـة بهـا كـلام قـد يؤم

ليس هناك اذن « لفظ » بغير دلالة ، وليست هناك جملة الا اذا أفادت معنى ، يحسن السكوت عنده . والجملة ذات المعنى الدال ، هى التى اسـماها النحويون العرب القدامى « الجملة المفيدة » . اللغة اذن مجموعة من الكلمات المصطلح على دلالتها الصوتية بين جماعة او امة . فكلمة مثل THAT موجودة على المستوى الصوتى المجرد فى العربية (ذات .. بمعنى صاحبة) وفى الانجليزية (that) .. اسم اشارة للبعيد بمعنى هناك) . وكلمة (Herr) موجودة فى الألمانية (بمعنى السيد) .. وفى العربية (هر = قط) . ومعنى هذا أن الصوت الدال على لفظ معين له معنى خاص عند اصحاب كل لغة . وقد يتواجد الصوت بمقاطعه وحركاته نفسها ، كأنما الوزن الصرفى لهما واحد .. ومع ذلك تختلف دلالته من لغة الى اخرى ـ كما اشرنا .

***

الوظيفة الاشارية :

اللغة ـ أية لغة ـ لها مستويان : عام وخاص ، أو بتعبير علماء اللغة المعاصرين : مستوى اشارى .. ومستوى فنى . وهذا المستوى الأول يمثل اللغة فى عمومها ، ويتكون من الألفاظ المتفق على معناها بين كل أبناء اللغة ، فاذا قلت : قلم ـ كتاب ـ جريدة ـ نهار ـ ليل .. لم يختلف معك أحد فى دلالة هذه الكمات ، لأن الكلمة جزء من صرح لغوى هو (المعجم) المتفق عليه ، حيث يتحدد معنى الكلمة سواء ذكرتها مفردة (القلم) أوفى تركيب (أكتب بالقلم) ، لأن المعنى ينشأ من علاقة متبادلة بين الصوت اللغوى (اللفظ) .. وبين الشىء الدال عليه (المعنى) . ويلخص العالم اللغوى المعاصر « ستيفن أولمان » وظيفة اللغة بقوله : « الكلام ..

مقبر وموصل ومؤثر . الكلام مقبر ، لأنه يعبر عن أفكارنا ومعارفنا، وموصل ، لأنه ينقل افكارنا ومعارفنا الى الغير ، ومؤثر ، لأنه أداة نستخدمها للتأثير في الغير » .

وعلى المســـــتوى الاشارى للغة .. فان كل جماعة لغوية تتفق على دلالات محددة لالفاظها ، التى تفهم من « السياق » .. او « المقام » الذى أشار اليه بلاغيونا القدماء بقولهم : « لكل مقام مقال » .

وفى هذا المستوى الاشارى الذى تعد فيه اللغة وســـــيلة للتفاهم والتواصل بين الجميع ، يجب أن يتصف استخدام الجمل بـــ « السلامة اللغوية » على مستوى بنية الكلمة (الصرف) ، وعلى سلامة التركيب وملاءمة العلامة الاعرابية للمعنى (النحو) .

ونحن نحرص على تعلم قواعد اللغة السليمة وتعليمها ، لأن النطق لابد أن يكون قائما على « منطق » . والتركيب اللغوى السليم يدل ــ بداهة ــ على عقل سليم . وسلامة الاستخدام اللغوى ــ التى تتبدى فى ملاءمة الفكر/المعنى للنحو/المبنى ــ أمر يجب أن يتحقق عند كل من يستعمل اللغة : منطوقة أو مقروءة أو مكتوبة .

وهذه اللغة الاشارية ذات وظائف نفعية « براجماتية » ، فهى تستخدم فى جميع المجالات الخاصة بالعلوم الانسانية كافة ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفية ، وفى وســـــائل الاعلام المختلفة ، بالاضافة الى وظيفتها الاجتماعية ، حيث هى لغة التخاطب اليومى ، والتفاهم الأسرى ، والتعامل الوظيفى ، والتعاون المجتمعى .. بالاضافة الى كونها تستخدم فى مجال الدين والعبادة ، وغير ذلك .

الوظيفة الفنيـــة :

الوظيفة الفنية للغة تتحقق من خلال المستوى الخاص ، الذى يبدعه الأدباء ، لأن لغة الأدب ــ بالضرورة ــ لغة مغايرة عن اللغة الاشارية ، وهى تختلف عنها من حيث الدرجة ، فالعربية مثلا لغة جميع العرب .. أما اللغة الأدبية فهى لغة رمزية خاصة ، تميل بعض الميل عن اللغة المعيـــارية ، لذلك يذهب علماء اللغة المعاصرين الى أن اللغة الأدبية لغة شعرية (حتى لو كتبت نثرا ..) تنبثق من خلال الانحرافات المتعمدة عن القواعد النحوية والدلالية .

اللغة اذن ــ من خلال الوظيفة الاشارية ــ تتكون من أنماط متواترة أو بنيات ، تركيبية تخضع للمنطق المألوف والمعنى المعروف ، ولكنها ــ من خلال الوظيفة الفنية ــ تحمل قدرا من الخلل أو المغايرة فى قواعد الاسناد من حيث انعدام الملاءمة بين الموصوف والصفة أو بين المسند اليه والمسند . وهذا ما يفتح الباب واسعا لما يسمى بـ « الضرورات الشعرية » . بل لقد اباحوا للشاعر أحيانا بعض رخص لا تجيزها اللغة ، وقالوا : **« ليس على المطرب من معرب »**. على هذا تمثل لغة الأدب سمات خاصة لأساليب طليعية رائدة ، وتقدم النموذج الأجمل للأنســـــق اللغوية ، فهى اذن لغة متميزة ــ غير عادية Supper Language ، لأنها تقوم أساسا على منحى الانحراف أو المغايرة عن النسق المعروف . اللغة الأدبية لغة تقوم على المغايرة والانتقاء ، لذلك نجد علماء الأسلوبية يفرقون بين اللغة Language والقول Parole .. وهذا ما دعا بلاغيا معاصرا مثل أمين الخولى الى أن يسمى كتابه باسم « فن القول » .

ويمكن أن نتمثل جمال اللغة الأدبية .. أو « اللغة الشاعرة » ــ كما أسماها العقاد .. أو اللغة الشاعرية ــ كما يسميها علماء

الأسلوبية المعاصرين من خلال هذه الأبيات لأمير الشعراء أحمد شوقى (١٨٧٠ — ١٩٣٢) من قصيدته « ذكرى المولد النبوى » .. التى كتبها سنة ١٩٢٧ ، ويقول فيها :

اخا الدنيــــا ارى دنيـــاك افعى
تبـــدل كل آونـــة اهــــابا

وان الرقـــط ايقظ هاجعـــات
واترع فى ظـلال الســلم نابـا

ومن عجب تشـــيب عاشـــقيها
وتفنيهم ومـــا برحت كعــــابا

فمن يفـــتر بالدنيـــا فـــانى
لبســـت بها فابليت الثيـــابا

لها ضـــحك القيـــان الى غبى
ولى ضـحك اللبيب اذا تغـــابى

جنيت بروضـــها وردا وشـــوكا
وذقت بكاســـا شـــهدا وصابا

فلم ار غـــير حـــكم الله حـــكما
ولم ار دون بـــاب الله بــــابا

والوظيفة الفنية للغة ، لا تنعكس من خلال اســلوب الشعر فحسب ، بل توجد فى النثر ايضا .. ومثال على ذلك هذا الجزء من « قصة الكندى » .. وهو احد « **البخلاء** » ، الذين وصــفهم الجاحظ بأسلوبه الجميل قائلا :

« كان الكندى لايزال يقول للساكن (معه فى بيت واحد) وربما للجار : « ان فى الدار امراة بها حمل ، والوحمى ربما أسقطت

من ريح القدر الطيبة ، فاذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة او لقمة ، فان النفس يردها اليسير ، فان لم تفعل ذلك بعد اعلامى اياك ، فكفارتك ان استطعت غرة (فجأة) : عبد أو امة . الزمت نفسك أم أبيت . قال (راوى القصة) : فكان ربما يوافى الى منزله من قصاع السكان والجيران ما يكفيه الأيام . وكان اكثرهم يفطن ويتغافل . وكان الكندى يقول لعياله : انتم احسن حالا من ارباب هذه الضياع . انما لكل بيت منهم لون واحد (من الوان الطعام) وعندكم الوان » .

وهذا مثال ثالث من روايتى ((**الكهف السحرى**)) وهو عبارة عن منولوج داخلى يدور فى نفس بطل الرواية وهو يكلم حبيبته :

« قلوب العاشقين لها عيون ، تصور مالا يراه سواهم . الخيال يصور فى اليقظة ما تراه فى الحلم . الوجود بلا خيال محال . الخيال المطلق هو الحضرة الجامعة ، وهو العماء الذى يقبل التشكل .. بالخيال تعرف ذاتك .. تعرف من تحب .. من تعادى .. تستعيد صورة المدرك بالحواس ، بعد غياب المحسوس. الكون كله خيال مرتسم ، يعكس طيف الحقيقة الكبرى .. مالكة القلب ذات قد ، يجسد ملامح الفتاة المصرية ، التى تراها على جدران المعابد وفى تماثيل المتاحف . تعجب من نفسه ورثى لحاله ، يعرف كثيرا من معانى الخيال ، لكنه — فى اللحظة ذاتها — يعجز عن وصف محبوبته . كيف يكون القلب فياضـــا بالحب الى حد الرعشة ، ويصير اللسان عاجزا الى درجة الدهشة .. ؟! »

وهذا مثال آخر للشاعر السعودى المعاصر حمزة شحاتة من قصيدة له بعنوان « شجون لا تنتهى » :

ما أصــطبارى على الأسى وثوائى
ونــدائى مــن لا يجيــب نــدائى

جمـــد الدمع فى مآقى .. يا حب
وقـــر اللهيب فى احشـــائى

عدت من غربتى الى الليل والفجــر
لــكى يســـمعنا ترانيم نائى

ضـــعت فى تيهك المحير .. ياحب
تمـــزقت فى اسى بلـــوائى

وتســـاءلت : فى نعيمك كم اشقــ
ــى .. وكم أرعوى بغير رضـاء

كم اروض الاباء فيك على الصبـــ
ــر واغضى على جـــراح ابائى

كم الاقى العذاب منك ولا اشـــ
ــكو والقـــاك بالهـــوى والولاء

كم اخــوض الاحــزان راكب تيه
ضـــل فى لا نهـــاية ســـوداء

يا دروب الهـــوى تغطيت بالنــور
د على الشـــوك غارقا فى الدماء

الضـــحايا من تحتـــه مهج حر
ى .. ومن فوقه رؤى شـــعراء

هـــكذا انت والمجنـــون من قبـ
ــل فـــراش مســـير للعنـاء

رحـــلة تثمر اللغـــوب وخيــط
من حـــرير يقـــودنا للشـــقاء

ادب اللغـــــة :

****

من حديثنا السابق عن طبيعة اللغة الادبية .. يتضح أن تلك اللغة ، تمثل اجمل درجات الصفاء والنقاء فى التعبير ، انها لغة تختلف عن اللغة الاشارية المباشرة .. لغة تقوم على الرمز والمجاز والايجاز والأعجاز ، ولذلك فان النصوص الأدبية الخالدة تشـــكل (المتحف) الدائم لكنوز اللغة ، التى تكشف عن أسرار عبقريتها . وتلك النصوص تعكس التطور التاريخى للأمة .. وتعبر عن نبض وجدانها .. وعن مثلها العليا فى الحياة ، من هنا تحرص الأمم ـــ قاطبة ـــ على تسجيل مسيرة الأدب ، وتدوين نصوصه وشرحها وتفسير رؤى مبدعيها ، الذين هم طليعة الأمة ، والمعبرون عن آمالها وآلامها .. بل عن ماضيها وحاضرها ومستقبلها . فالأدب .. لغة ، واللغة امة .. والأمة حياة .. ولا حيـــاة بلا فن ، يطهر المشاعر ، ويوقظ القلوب ، ويفتح الضمائر نحو مستقبل مشرق ، لا تحده آفاق .. !!

****

لغـــة الفن القصـــصى

اذا اردنا ان نتكلم عن القصة او عن غيرها من الانواع الادبية ، فسوف نجد انفسنا مضطرين ـــ شئنا ام ابينا ـــ الى الحـــديث عن اللغة ، لأن كل الأنواع الادبية تندرج نحو ما يسمى بـــ (فن القول) . فاللغة هي اداة الأدب .. وهى وسيلة التعبير عند الأديب ، غير ان الحديث عن اللغة فى الفن القصصى امر اكثر صعوبة من الحديث عن اللغة فى الشعر او المسرح ، لأن اللغة فى الشعر والمســـرح ذات طبيعة واحدة . فالشاعر ـــ فى القصيدة ـــ يعبر عن ذاته دون ان يلجا الى قناع .. لأنه لا يعبر عن غيره ، فصوت الشعر هو صوت الشاعر نفسه ، وكذلك الحال بالنســـبة للمسرح ، لأن النص المسرحى يقوم على الحوار وحده. ومعنى هذا ـــ باختصار شديد ـــ ان اللغة فى الشعر

والمسرح ذات طبيعة تعبيرية واحدة او متقاربة على الأقل ، لكن امر اللغة فى فنون القص (الرواية والقصة القصيرة) امر مختلف وأكثر تعقيدا ، للأسباب التالية :

اولا : لأن فنون القص تحاول أن (توهم) قارئها ــ فنيا ــ أنها تقدم له شريحة حية من الحياة الواقعية لشخصيات بأعينهم ، يعيشون فى واقع اجتماعى محدد ، وفى مكان وزمان محددين أيضا. فالروائى ــ حتى وهو يؤلف رواية تاريخية ، يكون حريصا على أن يصور هذا الواقع البعيد فى اطار معطياته وظروفه الخاصة ، لكى لا يتهم بأنه يزيف الواقع ، ويلوى عنق الحقيقة . وبناء على هذا فان الكاتب القصصى اذا كان مطالبا بأن يكون امينا فى تصويره للواقع/الاطار التاريخى او الاجتماعى ــ الذى يشــــكل خلفية اجتماعية لأبطال الرواية او القصة .. فانه ــ أيضا ــ مطالب بأن يكون اكثر أمانة ودقة ، حين يجعل أبطاله يتكلمون ، لأن لغتهم يجب أن تعبر عن الواقع الخاص ، الذى يعيشون ــ فنيا ــ فى اطاره .

ان الشخصية او المتكلم فى الرواية ، ليس فردا باهت الملامح، وانما هو ــ كما يقول عنه باختين .. مؤلف كتــاب « الخطاب الروائى » ــ « منتج أيديولوجيا ، وكلماته هى دائما عينة أيديولوجية Ideologeme واللغة الخاصة فى رواية ما ، تقدم دائما وجهة نظر خاصة عن العالم ، تنزع الى دلالة اجتماعية » .

ثانيا : ان اللغة فى القصة والرواية ذات مستويين مختلفين .. هما السرد والحوار ، فماذا نعنى بهذين المصطلحين ؟ .

(أ) الســـــرد (Narration) :

مصطلح ادبى ، يقصد به ذلك النوع من الأسلوب او طريقة التعبيـــــير ، التى ينوب فيها الــراوى ــ عن الروائى .. وعن

الشخصيات — فى سرد أو وصف أو تصوير عناصر الحدث .. ومكونات الشخصية .. وجزئيات المكان .. وطبيعة الزمان القصصى ، وكما يمكن الروائى أن يسرد من الخارج — من خلال السرد — يمكن أن يسرد أيضا من الداخل ، أى يعبر عما يدور داخل الشخصيات التى يصورها ، فيقدم منولوجا ذاتيا ، يعبر فيه عما يعتمل داخل فرد من أفراد عالمه القصصى — كما فعل طه حسين ، وهو يتحدث عن آمنة — بطلة « دعاء الكروان » .. فيعبر هو — أى الكاتب — عما تحسه هى — أى بطلة الرواية — فيقول : « وانى لأراها فى طريقها نحو الشرق ، فيمتلىء قلبى رحمة لها واعجابا بها وخوفا عليها . وأى قلب لا يرحم فتاة غرة لم تكد تتجاوز سن الصبا ، وقد قذفت بها الأحداث فى لجة الحياة الممتلئة بالخطوب والأهوال ، وهى وحيدة ليس لها عون ، قد صفرت يدها من كل شىء ، وفرغ قلبها الا من الأمل .. »

وهذا العنصر من عناصر الأسلوب القصصى ، ينبغى على الكاتب أن يكون يقظ الحساسية ، وهو يقدمه بـ « اللغة » ، لأن الزمام اللغوى قد يفلت منه ، فيعبر عن نفسه ، وليس عن شخصياته ، ان الكاتب يتخيل مجموعة من الشخصيات ، ارتضى أن تكون معادلا موضوعيا .. أو موازاة رمزية لما يريد أن يعبر عنه ، لذلك ينبغى أن يكون التعبير (سرديا) عن تلك الشخصيات ..وليس عن نفسه .

(ب) الحــوار (Dialogue) :

هذا هو المستوى الثانى من لغة القص .. وهو اللغة التى يعبر بها الكاتب عما يدور بين شخصياته من حديث أو قول ، أى يعبر عما تعانيه أو تفكر فيه كل شخصية من شخصيات التجربة القصصية . والشخصيات فى اطار القصة — كما هى فى واقع

الحياة ـ يتفاوت مســـتواها الفكرى ومزاجها النفسى وواقعها الاجتماعى ، وهذا كله ينبغى أن ينعكس فى الحوار .. الذى تتكلم به كل شخصية ، لأن النطق يجب أن يقوم على منطق ، وقديما قال احد الفلاسفة : « حدثني حتى أراك .. !! » .

وبناء على هذا يجب أن ينوب الروائى ـ بأمانة وصدق ـ حين يشكل لغة الحوار ، التى تعبر عن شخصيات عالمه القصصى . وهذا الجزء من الحوار يدور بين أم وابنائها فى رواية « بداية ونهاية » لنجيب محفوظ ، حيث يعبر الكاتب ـ بدقة ـ عما يفكر فيه كل منهم ، بما يكشف عن طبيعة كل واحد منهم بصوت منفرد ، قالت الأم : « نفيسة تحسن الخياطة ، وهى تخيط كثيرا لجاراتنا محبة ومجاملة ، ولست أرى بأسا فى أن تتقاضى على عملها مكافأة .

هتف حسن بحماس : عين الصواب ..

ولكن حسنين صاح بغضب ، وقد احمر وجهه غضـــبا : خياطة ؟!

فأجاب حسن معترضا : ما عيب الا العيب ، فلتكن .

فقال حسنين بحدة : لن تكون اختى خياطة ، كلا ، ولن أكون أخا لخياطة .

وقطبت الأم جبينها فى غضب وصاحت به : أنت ثور ، تأكل وتنام ، ولا تدرى عن الدنيا شيئا ، وهيهات أن يفهم عقلك الغبى حقيقة حالنا !

وفتح فاه ليعترض ، ولكنها صاحت به : اخرس ، فنفخ دون أن ينبس بكلمة ، ورأت الأم أنها فرغت من معارضته ، فالتفتت الى حسين ، فالتقت عيناهما برهة قصيرة ، ثم خفض الفتى عينيه ، وتمتم على مضض : اذا لم يكن من هذا بد فالأمر لله .. !

فقالت الأم بتأثر : ما عيب الا العيب كما يقول حسن ، لست احب لأحد منكم المهـــانة ، ولكن للضــــرورة احكام ، ولا حيلة لى .. » .

فهذا الجزء من الحوار — على سبيل المثال — نكتشف من خلال لغة الحوار فيه نوعية شخصية الأم الواعية ، التى تريد أن تحافظ على الأسرة بعد وفاة الزوج العائل لهم .. وشخصية حسن المتواكل الذى يسلم بسهولة ، لأنه يريد أن يريح نفسه على حساب الآخرين .. ثم شخصية حسنين الانتهازى — الذى يريد المال ، ولكن يســـؤه — مظهريا — أن يقال ان اخته تعمل خياطة .. وشخصية حسين المؤمن الذى صدق على كلام الأم بنفس راضية : « اذا لم يكن من هذا بد فالأمر لله » .

هكذا ينبغى أن يكون الحوار معبرا — بدقة — عن السمات المتفردة لكل شخصية ، وهذا يعنى — بالضرورة — العناية بلغة الفن القصصى : سردا وحوارا ، لأن بعض الكتاب يتوهمون أن (الشعرية) ليست شرطا للغة الفن القصصى ، وهناك اليوم دعوة عامة الى ضرورة العناية بأسلوب القصـــة ، نجدها عند الناقد « رالف فريدمان » فى كتابه عن « الرواية الشعرية » ، الذى درس فيه سمات هذا النوع من الرواية عند بعض الكتاب مثل : هيرمان هيس ، وأندريه جيد ، وفرجينيا وولف .

وقد عقد فصلا عما أسماه بالتقاليد الشعرية (The Lyrical Tradtiions) ، التى ينبغى أن تهتم بها رواية تنتمى الى هذا النوع من الكتابه القصصية/الشــعرية ، وبالطبع فاننا ندرك أن القصة شىء ، والشعر شىء آخر . لكن ما نلح عليه — باصرار — هو أن القصة نوع أدبى بالدرجة الأولى ، وينبغى الا يخلو أسلوبها اللغوى من ومضة بلاغية في السرد والحوار . كما أن عدم امتلاك

ناصية اللغة ، قد يوقع الروائى فى خطر — أو خطأ على الاقل — اذا لم تستطع لغته أن تعبر — بدقة — عن الموقف المصور ، لذلك يقول الناقد الأمريكى « البرت كوك » فى حديثه عن لغة القصة : « ان الكلمات فى تعبير قصصى لا تشير الى كلمات أخرى فقط ، ولكن الى مشار اليه فى الواقع . والمشاهد التى تقدمها اللغة فى رواية ، لا تأخذ مكانتها التصصية الا بقدر ما ينبغى أن تكون صدى لحقيقة فى الواقع » .

***

بعض الظواهر اللغوية فى الرواية والقصة :

بعد هذه المقدمة النظرية عن لغة الفن القصصى ، نتوقف وقفة تطبيقية عند بعض الكتاب ، لنبين موقفهم من قضية اللغة ، ونستطيع أن نجمل موقف الكتاب جميعا من قضية اللغة فى اتجاهين كبيرين :

١ — اتجاه يستخدم العامية فى الحوار ، والفصحى فى السـرد .

٢ — اتجاه يستخدم الفصحى فى الحوار والسرد .

الاتجاه الأول : يستخدم ممثلوه الفصحى فى السرد ، والعامية فى الحوار — من أجل الايهام بالواقعية ، حيث ينطقون الشخصيات فى الرواية باللغة ، التى يتكلمون بها فى الحياة اليومية ، وقد بدأ هذا الاتجاه مبكرا فى تاريخ الرواية الحديثة ، حيث ظهر فى الرواية العربية الأولى — التى اكتملت لها عوامل النضج الفنى .. وهى **رواية « زينب — مناظر واخلاقية ريفية » لمحمد حسـين هيكل (١٩١٤)** . وقد آثر هيكل أن يجعل شخصياته يتكلمون بلغة أهل الريف ، الذى يعيشون — فنيا — فى اطاره الروائى ، وهذا الجزء من الرواية يؤكد ذلك :

« وجلس الرجل (أبو زينب) من بينهم محتفيا بهم ، مظهرا مقدار سروره بتشريفهم ومؤانستهم ، وانهم نوروا داره ، وظلوا يتهادون التحيات حتى دارت عليهم القهوة ، وصاروا جميعا ، كأن بينهم رابطة ود واخلاص ، هنالك قال خليل :

ـــ والله طالبين القرب منك يابو محمد .

ـــ يا تلتميت مرحبة يا بو حسن .. واحنا قد المقام .

ـــ الله يحفظك .

ـــ ويعنى احنا حدانا حد يستحق الجواز ؟

ـــ والله بدنا زينب لحسن .

ـــ احنا والله ما نعز عليك حاجة يا خليل .. لكن أنت عارف البنت صغيرة من ناحية ، وهى اللى بتقضينا الحاجة من ناحية ، كمان ياخويه سنتين والا تلاته لما تكبر هى ، وتكون بقيت لايجة للشغل .

هنالك انبرى من بين القوم رجل ذو وجاهة ، عريض الصدر عظيم الهيئة ، وهو شيخ البلد ، وقال : حاكم أنت يابو محمد .. ! صغيرة ايه ياخويه .. عمرنا بنجوز البنات وهم أصغر منها .. والله انى جوزت ديك السنة بنت أبو سمية ده ، أبو عامر لعلى أبو ابراهيم ، وهى أصغر خالص من زينب .. ياراجل بلا كلام » .

واللغة فى هذه الرواية (زينب) ذات مستويين من مستويات التعبير :

(أ) فهناك مستوى فصيح فى السرد : يبلغ حد التقعر ـــ أحيانا ـــ لأن الكاتب سواء أكان هيكل أم غيره ، يحاول من خلال أسلوب السرد أن يظهر قدرا من فنية التعبير وجمال الأسلوب، فهذا

المستوى السردى هو الذى يساعد الكاتب ــ أن أراد ــ على أن يبرز مهاراته اللغوية وامكاناته البلاغية .. كما نجد فى هذا الجزء من رواية هيكل : « ما أحلى ليالى الصيف ! وما أسرعها مرا ! تسرى بنا فتنسينا الحياة والوجود ، وتبعث لنفوسنا بطيبها أكبر الهناء ، ولو أن الأمانى تجاب لكانت كبراها استدامة هاته الليالى الزاهرة ، حيث كل شىء جميل ذاهب فى أحلامه ، وحيث البدر يحبو فى السماء تائها هو الآخر فى خيالات حبه ، والطبيعة الصامتة توحى بأصواتها نجوى الغرام الى القلب ، والفلاح الساهر يرسل من سلاميته فى جوف الكون نغمة رقيقة كلها الوجد والجوى .

ولكن الأيام لا تقف عند أمنية ولا يستحثها قلق الساهر الشبق يشكو آلامه ، بل هى الدائمة السير المتشابهة الخالدة ، تجرى بنا على غير ما نريد ، فتطوى وقت السعيد حتى لا يحس به ، وتتمطى أمام البائس فتزيد بؤسه مضاضة وايلاما .

سافر ابراهيم لمنفاه ، وكل ذنبه أنه فقير ، وجاء الخريف لزينب بالهموم ، وودت بعد ذلك الفراق ، لو انها أعطت ابراهيم نفسها ، حتى يكون لها من ذكرى ذلك عزاء عن لوعتها ، ولكنها اليوم تعانى من الحسرات من غير عزاء .

أما حامد فقد انتهى بدفن كتاب عزيزة الذى شغله أياما ، وابتدأ النسيان يجىء على كل أثر لها فى نفسه ، ولكنه بمقدار ذلك النسيان كان يحس بفراغ فى قلبه يزداد كل يوم ، ويشعر بالحاجة المطلقة الى سد هذا الفراغ » .

فهذا الجزء من السرد القصصى فى رواية « زينب » يؤكد أن هيكل لم يقصد الكتابة بالفصحى فحسب ، وانما حاول أيضا أن يستخدم لغة أدبية ، قريبة من لغة النثر الفنى ، الذى عرفه تاريخ

الأدب العربى فى الخطب والرسائل والمقامات والمقالات والخواطر ، لذلك نجده يوظف انماطا مختلفة من التراكيب البلاغية — منها على سبيل المثال .. ما يأتى :

— ما أحلى ليالى الصيف .. أسلوب تعجب .

— تسرى بنا ليالى الصيف فتنسينا الحياة .. استعارة .

— البدر يحبو فى السماء تائها فى خيالات حبه .. استعارة .

— الأيام لا تقف عند أمنية .. استعارة .

— الأيام تجرى بنا على غير ما نريد .. استعارة .

— الأيام تتمطى أمام البائس فتزيد بؤسه .. استعارة .

— سافر ابراهيم لمنفاه .. استعارة .

— جاء الخريف بالهموم .. استعارة .

— أما حامد فقد انتهى بدفن كتاب عزيزة .. استعارة .

— يحس بفراغ فى قلبه يزداد كل يوم .. استعارة .

كذلك نجده ينوع بين الجمل على مستوى التركيب النحوى بين الجمل الفعلية والاسمية .. كما ينوع بين الجمل من حيث الدلالة البلاغية بين الخبر والانشاء .

ومعنى هذا أن الكاتب (هيكل) كان مدركا — بوعى — أنه يكتب أدبا ، ومن هنا جاءت لغته حبلى بهذه الأنماط البـــــلاغية المختلفة .

وهذا الأسلوب النثرى المتأنق ، غير اللهجة العامية الدارجة ، التى وظفها هيكل للتعبير عن شخصياته الريفية من الفلاحين والعمال ومتوسطى الثقافة .

ونحن أميل الى الاعتقـــاد بأن هيكل أســـتخدم العامية ـ واعيا ـ انطلاقا من (منظور) فنى ، يرى أن الكاتب يجب أن يجعل شخصياته تتكلم فى الرواية ، بنفس الطريقة ـ أو المستوى اللغوى الذى تتكلم به فى واقع الحياة ، ولايزال هناك كتاب كثيرون فى المشرق والمغرب العربى ، يعتقدون بصدق هذا المنظور ، ولذلك يكتبون الحوار بالعامية .

والأسماء الروائية الممثلة لهذا المنظور كثيرة مثل : عبد الرحمن الشرقاوى ويوسف ادريس وعبدالرحمن منيف واحسان عبدالقدوس وخيرى شلبى ويوسف القعيد وسكينة فؤاد وحنان الشيخ وغيرهم .

***

الاتجاه الثانى : هناك مجموعة أخرى من الكتاب يرون فى هذه القضية رأيا آخر ، وهى ضرورة استخدام الفصحى فى الســـرد والحوار ـ على حد ســـواء ، لأنهم يرون ـ وهم على حق فى تقديرى ـ أن العالم القصصى كله من صـنع الكاتب ، والكاتب يصنع أدبا ، **وليس هناك أدب بلا صنعة** ، لكن المهـــارة ـ فى الأدب ـ هى أن تخفى الصنعة ، بحيث تبرز الصياغة كما لو كانت عملا تلقائيا ، يصدر عن طبع وتلقائية . وهذا موجود منذ نشأة الرواية الحديثة عند مصطفى لطفى المنفلوطى وطه حسين ومحمد فريد أبو حديد وعلى الجارم وعلى أحمد باكثير ومحمد سعيد العريان وعبد الحميد جودة السحار ـ ولاســـيما فى رواياتهم التاريخية والمترجمة ، كذلك نجدها عند نجيب محفـــوظ ومحمد عبد الحليم عبد الله .. وعند بعض الكتاب المعاصرين أمثال طه وادى ومؤنس الرزاز ورضوى عاشور وابراهيم الناصر الحميدان وغيرهم .

واستخدام الفصحى فى الحوار ميزة تحســـب ـ أدبيا ـ للكاتب ، لأنه يستطيع أن يطوع الفصحى للغة الحوار ، وهنا يجمع الحوار الفصيح بين السلامة اللغوية والجمال الأسلوبى فى التعبير

عن الموقف القصصى ، كما نجد فى هذا الجزء من رواية **« غيوم الخريف » لابراهيم ناصر الحميدان (١٩٨٨) :**

ــ « همست له أمه ، وقد جاء لزيارتهم بعد غربة خمسة اعوام :

ــ ألا تفكر بالاستقرار ياولدى ؟

أدرك مغزى سؤالها .. وقد طالما لاكه فى ذهنه .. سيفتح بيتا ذات يوم ، وينعم بالحياة الزوجية مثل سواه .

انما من تكون المراة المنتظرة ؟ انه بحكم الوضع الاجتماعى لم يتسن له رؤية فتاة ناضحة .. كما لم يكن يلتفت الى بنات الجيران او قريباته عندما كان صغيرا ، لذا كان ذهنه يخلو تماما من تصور ملامح اية فتاة مناسبة .

كانا يفترشان حصيرة الخوص .. وقد وضعت المراة مسبحتها على حجرها استعدادا للصلاة فى حين اتشحت بالسواد .

قال متسائلا : وهل فى ذهنك من ترشحينها كزوجة لى ؟

رنت اليه طويلا ، وتنهدت قبل أن تجيب : لم تسألنى من قبل .

تضاحك قائلا : طالما طرحت الفكرة ، فلابد أن تكونى قد رأيت من تناسبنى .

تبسمت بارتياح وتمتمت : البنات كثيرات .. وما عليك الا أن تشير بالموافقة » .

ولاشك ان استخدام الفصحى فى الحوار القصصى ، يعد ميزة ــ كما ذكرت ــ الا انه قد يدفع الكتاب ــ أحيانا ــ الى قدرة من الجيشان الانشائى والاندفاع اللفظى ، الذى يصيب الحوار بالمبالغة أو التكلف أو البرود .. كما نجد فى هذا الجزء من رواية

« لقيطة » لمحمد عبد الحليم عبد الله (١٩٤٥) ، حيث تقول بائعة لبن فقيرة لبطلة الرواية — ليلى : « صباح الخير ياسيدتى .. ان صاحبة المنزل أمرتنى أن أصعد اليك فى كل صباح لتشترى منى ، فكونى مطمئنة الى سلامة ما أقدم لك ونظافته ، فأنا لست من اللائى يخلطن أو يغششن .

ولم يكن المبيع شغل ليلى ، وانما كان شغلها البائع .. لقد تفرست كل جارحة من جوارحها ، وتأملت كل شىء فيها ، وهمت أن تقبلها لولا أن يقال : انها مجنونة .

لقد رضع هذا الفم ثديا طاهرا رضعته ، وتأملت هذه العيون فى غرارة الطفولة وجها تأملته ، واستلقى هذا البدن الجميل فى حجر ، طالما رقدت فيه ، لكنها لم تزد أن قدمت لها الثمن قائلة لها : مع السلامة ، ومن يدرى ؟ لعلها كانت تقول بعدها : «يا أختاه» بصوت خافت كأنه مناجاة الضمير » .

ونحس أن الكاتب كان مشغولا بالصنعة اللفظية عن الفروق الجوهرية بين أسلوبى السرد .. والحوار . وقد أدت هذه الصنعة البيانية الى زيف اللغة القصصية .. التى احتشدت بهذه العبارات المتكلفة :

صباح سعيد ياسدتى — لست من اللائى يخلطن أو يغششن (ما أثقل نون النسوة فى الخطاب !!) — لم يكن المبيع شغل ليلى وانما البائع — تفرست كل جارحة — همت أن تقبلها — رضع هذا الفم ثديا طاهرا — يا أختاه — صوت خافت كأنه مناجاة الضمير .

فهذا الأسلوب المصنوع المتكلف فى السرد والحوار يضعف لغة الرواية أو القصة ، **لأن الفن القصصى لا يلائمه البتة هذا التقعر اللغوى المصنوع** ، الذى يزهق حساسية الابداع الفنى فى عالم القص .

* * *

ان لغة القصة اليوم ينبغى أن تكون سريعة الايقاع ، موجزة ، تصل الى الهدف مباشرة ، كما نجد فى هذا الجزء الذى أصف فيه لحظة فى حياة انسان فقير بائس .. هو على عليوة فى قصة « **الف باء** » .. « ايقظه من شطحاته عامل فقير مثله . أخبره بفكرة ، لم تخطر له من قبل ، اذا كان لابد أن تحصل على فلوس اليوم فتعال معى الى مستشفى الأمل . ماذا تفعل ؟ هات وخذ . لا افهم . هات دما وخذ فلوسا . مشى بجوار زميله يجر أعضاءه المجهدة ، حتى وصلا الى مستشفى ضخمة اشبه بلوكاندة عظيمة ، ترقد على شط النيل مباشرة ، اعترضهما بعض بعض رجال الأمن — الذين يلبسون ملابس زرقاء وسوداء . صعلوك .. لا تدخل من باب الملوك . كل معلوماته عن المستشفيات مستمدة من الوحدة الصحية فى القرية .. والمستشفى العام فى المدينة . يستحيل أن تكون تلك البناية العظيمة مستشفى مثل الأماكن التى زارها ، واخذ منها : شراب الحديد او شربة الدود ، أو حبوب السلفا .. له أو لزوجته أو احد ابنائه ، ظن فى البداية أن الحكومة أرادت أن تصلح الخدمات الطبية للناس — ابناء الشعب الغلابة ، لكن الزميل صاح فيه : فق .. واصح يا بلدينا ، هذه المستشفى لا علاقة لها بالحكومة أو الشعب ، مشروع استثمارى يا غشيم . لم يحاول أن يفهم أو

يتكلم ، فهو لا يعرف شيئا عن الحكومة أو الشعب . كل ما يهمه أن يحصل على فلوس ، حتى يطعم الأفواه الجائعة ، التي تنتظر عودته ، كما تنتظر الأرض الشراقى مياة الساقية » .

ولاشك بعد كل ما ذكرناه .. أن الوعى بقضية اللغة ــ هو فى الحقيقة ــ وعى بأهم خصائص التجربة الفنية فى الأنواع الأدبية كافة ، وليس فى اطار الفن القصصى وحده ، وما أجدرنا جميعا : ادباء ونقادا وقراء وكتابا ، أن نولى اللغة بعض ما تستحق من رعاية واهتمام ، لأن اللغة فى المقام الأول والأخير هى .. نحن .. !!

قـــراءة نقديـــة
فى مواويل مصريـــة

القراءة فى الأدب الشعبى والعامى متعة كبيرة ، لأنك تتذوق التجربة جماليا بعبارات بسيطة وتراكيب سهلة ، سرعان ما تصل الى شغاف القلب . وقد استمتعت مؤخرا بقرءاة ديوان « املا لى كاس يا وطن » لشاعر العامية شفيق سلوم (١٩٩٢) . وهو يتكون من ثلاثة وثمانين نصا : تتراوح بين القصيدة العامة (الزجل) ، والموال . ولكن شـــكل (الموال) هو الذى يمثل قالبا فنيا لمعظم نصـــوصه . ومن المعروف أن هناك نوعين من الموال : احدهما قصصى .. والآخر غنائى . ولكن الموال فى ديوان سلوم موال غنائى ، يشدك اليه بقوة آسرة ، لأنه يكاد يحاكى ــ أحيانا ــ مواويل معروفة ، أو يعزف تارة أخرى فى قضايا معاصرة ، تؤرق القارىء بالقدر الذى تؤرق به الشاعر ، مثل الموال الذى يأخذ عنوان الديوان :

امـــلا لى كاس يا وطن بالمر تانى امـــلا

سقطوا العرب فى الحساب والنحو والإملا
ونجحوا فى ((الصرف)) لحد ماضاعت العمله
دايمـــا يقولوا اننا كنا وكان ، ياما كان
الســـيف وقع من ايديهم والفرس حرنان
اجادوا لعبالورق وامتازوا فى ((الكون كان))
وجم فى يوم الامتحـــان مكونوش جمله

ونصوص الديوان تدور حول القضـــايا الوطنية والقومية والانسانية ، أى انه يقدم رصدا جماليا لبعض هموم الانسان العربى المعاصر . ويبرز محور القضايا الســـياسية فى مقدمة اهتمامات الشاعر ، لدرجة انها تكاد تشكل نصف الديوان ــ تقريبا . وهى نصوص تعد استجابة مباشرة لكثير من الهموم العربية والوطنية الآنية ، التى يرشفها القارىء من « كاس الوطن » المر . ومن امثلة ذلك هذه الأغنية بعنوان « الحزن العربى » :

((الحزن ليه ضارب جدوره فى الوطن ؟
والحلم ليه يوم ما تولد ، بيجهزوا له فى الكفن
يا امتى .. يا بلوتى .. ياحسرتى
الحلم فيكى بيتخنق
عشر سنين بنجمعك
وف لحظة واحدة بنفترق
انا عشت عمرى كله ليل
حتى الأمل صار مستحيل
والمستحيل النخل يطلع فى العفن »

والشاعر مشغول بهموم الوطن (مصر) ، بالقدر نفسه الذى هو مشغول فيه بهموم الأمة العربية .. كما نجد فى هذه القصيدة وهى بعنوان « القمح المصرى .. والودع » :

« يا ضاربين الودع .. قولوا للودع جرى ايه ؟

اسمر ومصرى وجدع

يشحت رغيفه ليه ؟

مقطف وفاس .. وشادوف

والصحرا شرقانه

والخلق شقيانه

يابلدنا .. آه يانا

هوه ما عادلوش جلد

واللا قليل الشوف ؟ »

* * *

ثم يلى ذلك المحور السياسى مجموعة من النصوص ، تعزف على منظومة القيم الانسانية المتغيرة فى الواقع المصرى والعربى المعاصر . ومن المعروف أن هذه الموضوعات الانسانية ، التى تشكو غدر الزمان ، وتغير الأحوال وخيانة البشر من أهم القضايا اللصيقة بفن الموال . وهذه العلاقة الحميمة بين الموال والقضايا الانسانية هى التى جعلت الموال من أهم فنون الأدب الشعبى والعامى ، بل يجوز أن ينظم فيه بالفصحى أيضا . ومن أمثلة ذلك ـ على سبيل المثال ـ هذا الموال « السباعى » أو « النعمانى » ، الذى يتكون من سبع شطرات : كل ثلاث منها ذات قافية مشتركة ،

أما الشطرة السابعة فترجع الى قافية المجموعة الأولى ، وتشكل (رابطة) ، تجمع الموال كله فى وحدة واحدة :

« طول عمرى ليك يازمن امتى تعود لينا ؟!

حبة عساكر هفا جم خنقوا ليالينا

داسوا الجزيرة الكبيرة فوق اهالينا

والناس فى حالة ذهول واقفة بتتأمل

حكام بتكدب .. وياما حكام بتتجمل

امتى نسود ارضنا وامتى هنكمل ؟

لا الخيل .. ولا الليل .. ولا البيداء ، بقيت لينا »

والشاعر فى هذا المجال الانسانى العامى يستلهم بعض الأمثال والحكم الشعبية المألوفة ، وهذا « التناص » أن الاقتباس .. يجعل مواويله اكثر تأثيرا وصدقا .. كما نجد فى هذا الموال السداسى — وهو شكل غير مألوف كثيرا — وعنوانه « السبع والكلب » :

« زمن الصبا راح ، وباتندم على ايامه

من يخدم الخلق ، يلقى الخلق خدامه

من قدم السبت ، يلقى الحد قدامه

سبع العروبة انكسر ، بقى مستباح عرضه

والأجنبى مد ايده فى جيبه ، وف ارضه

والسبع لما وقع ، مشى الكلب قدامه »

***

وقارىء هذا الديوان يحس للوهلة الأولى أن صاحبه (راوى) شعبى ، أكثر من كونه شاعرا فردا ، لأنه اســــــتوحى كثيرا من المواويل الشعبية على مستوى المضمون والتشكيل . بل انه يضمن بعض أجزاء قواف من مواويل معروفة فى ثنايا نصوصه .

ومعنى هذا اننا بازاء مبدع ، قد ذاب فى بيئته على مستوى الهموم الفكرية والصياغات الشعرية/الشعبية . وهذا ما يجعــل الشاعر العامى ــ احيانا ــ يتحول الى شاعر شعبى ، يستوحى بعض هموم الجماعة ويقدم فنه غذاء روحيا لها .

***

والشاعر يميل الى توظيف شكل الموال الرباعى ، والخماسى، والسباعى ، كما يميل أيضا ــ فى الصياغة ــ الى شكل الأغنية . ولكن استخدامه للموال فيه قدر من الخروج على المألوف ــ كما نجد فى موال « الشرق قفلت نجومه » (ص ٣٨) وموال « لحد امتى » (ص ٣٧) على سبيل المثال ، اذ لا يلتزم الشاعر « شفيق سلوم » بالطريقة المألوفة ، التى يتشكل منها الموال السباعى ، حيث يتكون من :

ثلاثة اشطر : تسمى **« عتب »**

\+ ثلاثة أشطر أخرى تسمى **« ردف »**

\+ شطرة سابعة : تسمى **« غطاء » او « رباط »**

وهذه الشطرة السابعة ، هى الرابطة التى توحد بين أجزاء الموال . لكن الشاعر لا يلتزم بهذا النسق . . كما فعل الفنان الشعبى فى الموال التالى :

١ ــ ١ ــ « يعجبنى فنان يتكلم كلام جيـــد

١ ــ ٢ ــ ان كان كاتب بقلمه فى الورق جيد

١ ــ ٣ ــ وفنان صـــوته مميز له أداء جيد

* * *

٢ ــ ١ ــ العلم هو الأســـاس للموهبة ينعاز

٢ ــ ٢ ــ والصبر لأجل النجاح عند الكفاح ينعاز

٢ ــ ٣ ــ وكل غـاوى عمـل لو بجتهد ينعـاز

٢ ــ ٤ ــ وهيبقى ممتـــاز لو يبتـدى جيـــد

أما شاعرنا فهو يخالف هذا النسق أحيانا فى كافة اشكال الموال ، كذلك يلجأ الشاعر فى بعض نصـــوص الموال الخماسى (الأعرج) والسباعى الى وضع (لازمة) ، وهى غالبا ما تكون تكرارا أو صدى لبداية الموال أو المقطوعة الغنائية . وهذه اللازمة ــ وهى تشكل نوعا آخر من الخروج على المألوف فى الأشـــكال الشعبية ــ لا ضـــرورة لها . كما نجد فى بعض المواويل فى صفحات : ٢٧ ــ ٢٨ ــ ٣١ ــ ٣٧ وغيرها .

وهناك ملحوظة أخرى غالبة فى بعض مواويل « السباعى » فى الديوان .. وهى انها تكاد تخلو من ظاهرة « التدوير » وهى اتحاد كلمة القافية فى تركيب الشطر السادس مع بداية الشطر السابع . وآخر ما يمكن أن يؤخذ على الديوان هو عدم التقيد بطريقة النطق فى الكتابة ــ أحيانا ــ فحرف الجر (على) مثلا

معروف أن يكتب (ع) حسب النطق .. وكلمة (بؤ) بمعنى فم ، لا تكتب (بق) كما كتبت فى الديوان .

وفى نهاية هذه الرؤية النقـــدية لديوان « أملا لى كاس يا وطن » للشاعر شفيق سلوم ، كنت أتمنى أن يكون العنوان هو « مواويل مصرية » ، لأن الشاعر يميل فيه كثيرا الى توظيف شكل « الموال » ، كما أنه يصدر من خلال منظور مصرى/وطنى لكثير من القضايا ، التى يعبر عنها . لكن الديوان بلا شك ينبىء عن قدرة شاعر أصيل ، يواصل رحلة الشعر العامى والغناء الشعبى ، التى عبرها شعراء كبار فى العصر الحديث مثل حسين شفيق المصرى ، وبيرم التونسى ، وفؤاد حداد ، وصلاح جاهين وغيرهم .

أدب المـرأة العربيـة
بين الأمل .. و .. الفجيعة

حين نتأمل الواقع العربى فى اى قطر من اقطاره ، نجد ان نسبة المرأة فيه تبلغ نصف عدد سكانه تقريبا — ان لم تزد . وعلى المستوى الثقافى نجد ان المرأة فى مصر والشام والعراق والمغرب العربى وبعض بلاد الخليج ، قد حققت انجازات علمية ووظيفية هائلة ، كما أسهمت بعضهن أيضا فى معارك التحرير والنضال ، وقد شاركت المرأة الرجل فى كل الميادين تقريبا .. سواء فى مجال العلم او الأدب ، بل ان المرأة تقوم فى بعض البلاد العربية بدور سياسى واضح كما نجد فى مصر ، التى وصلت فيها المرأة الى الوزارة وأمانة الحزب وعضوية المجالس النيابية ، والذى لا مراء فيه أن تحرر المرأة ومساهمتها الايجابية فى تقدم الأوطان ظاهرة صحية ، تؤكد نهضة الأمة العربية ، وتدعم حركتها من أجل مستقبل افضـــــل .

بيد أن الظاهرة المحيرة فى واقعنا العربى — على المستوى الثقافى — هى ان ادب المرأة اليوم لا يتكافأ بأى حال من الأحوال مع التوسع الهائل فى تعليم المرأة .. ومع الاطراد المستمر فى عدد الأدباء ، اذا ماقيس بالنسبة المتواضعة لعدد الأديبات العربيات . واذا تأملنا الحال بالنسبة للشعر فسنجد فى الوطن العربى كله شاعرات لا يزدن على عدد اصابع اليد مثل : جميلة العلايلى — ملك عبد العزيز — نازك الملائكة — فدوى طوقان — جليلة رضا — وفاء وجدى .. ومعظم هؤلاء تقريبا ودعن الشعر منذ أن استقرت بهن الموجة كما تؤكد نازك الملائكة ، وعلى هذا فلم يبق من صوت سوى وفاء وجدى . أما بالنسبة للمسرح فلا أظن أن هناك أديبة تمارسه على مستوى الابداع الأدبى سوى نهاد جاد — التى قدمت عملين احدهما من فصل واحد — وفتحية العسال التى قدمت عملا واحدا .

وربما كانت القصة والرواية أسعد حالا ، حيث نجد فى مصر كاتبات مثل لطيفة الزيات — جاذبية صدقى — هدى جاد — سكينة فؤاد — فوزية مهران — زينب صادق — اقبال بركة ، بالاضافة الى اصوات اخرى لم تقدم سوى عمل واحد يشير بأنهن مازلن فى مرحلة الهواية . ونجد فى الشام بعض الكتابات مثل كوليت خورى وليلى بعلبكى وغادة السمان ، وسحر خليفة ، وحنان الشيخ ، وفى الخليج بعض أصوات أدبية من أشهرها ليلى العثمان وفاطمة العلى وجنة القرينى وزكية مال الله وظبية خميس ، وبعض كاتبات أيضا لم يتجاوزن مرحلة الهواية والتجريب . من هذا العرض السريع تتضح عدة أمور :

الأول : هو النسبة المتواضعة لعدد الأديبات العربيات على كافة مستويات الابداع الأدبى ، وهذا ان دل على شىء فانما يدل على أن التعليم والتغير الاجتماعى اللذين تمارسهما المرأة منذ نصف قرن لم يؤتيا ثمارهما المرجوة بالنسبة للمجال الثقافى فى مجال الابداع الأدبى .

الثانى : هو أن القصة : طويلة كانت أم قصيرة هى النوع الذى يستهوى الأدبيات كثيرا ، لذلك نجد معظم تجـــارب المرأة فى القصة أقرب الى الترجمة الذاتية .. وقد دخلت فى أكثر من حوار مع كاتباتنا راجيا منهن عدم التعصب لشخصية المرأة فى الكتابة ، ولكن الكثيرات منهن أصررن على هذا بحجة الصــدق الفنى ، وانهن اقدر على التعبير عن مشاعر الأنثى من الرجل ، ويرد على هذا بأن احسان عبد القدوس يعد اكثر جرأة وصدقا فى رواياته من هذه الناحية .

الثالث : لعل فى صعوبات النشر .. وتجاهل النقد .. بعض أسباب ، تكشف عن تعثر خطوات بعض المبتدئين : رجالا ونساء ، وقد تؤدى بالبعض الى الرضا من الغنيمة بالاياب بعد مرارة التجربة الأولى .. !!

وبعد .. فان الذى لاشك فيه هو أن ادب المرأة العربية شاحب ، ولايتناسب مع مكانتها فى المجتمع ولا مع تأثيرها ـــ الواضح والخفى ـــ فيه .. واذا كانت قد غابت عنى بعض أسماء فى أثناء العرض ، فما قصدت الى الاحصاء ، وانما أردت أن أشير الى ظاهرة ثقافية أتمنى أن تزول .. واتمنى أن تشارك المرأة العربية فى مجال الابداع الأدبى بنسبة تتلاءم والدور الكبير ، الذى تقوم به فى كل نواحى المجتمع .

الثقافة : سلعة تجارية ..
أم حاجة روحية .. ؟ !

يتضح لمن يتأمل التاريخ الحضارى للبشرية منذ فجر تاريخه ، أن الانسان قد توصل مبكرا الى أنه « لا يعيش بالخبز وحده » ، وأن احتياجاته العاطفية ومطالبه الروحية تسعى بدورها طالبة نصيبها من الغذاء الثقافى والاحتياج الفكرى ، ومن يدرس التراث الفرعونى واليونانى والعربى — كنماذج أولى فى السجل الثقافى للبشرية — سوف يشهد فى كل منها تراثا ثقافيا راقيا فى الفكر والفن والأدب ، كان يلبى احتياجات شعوبهم الوجدانية والروحية .

اكثر من هذا فان المتأمل لتاريخ المجتمع العربى فى العصور الوسطى — مع نهاية الدولة الايوبية وبداية الحكم المملوكى — فى هذه المرحلة المظلمة كادت الثقافة الرسمية والأدب الفصيح يضيعان ضياعا شبه تام وكامل ، بسبب سوء الاحوال الاجتماعية وكثرة

الأزمات الاقتصادية والاجتماعية ، التى تشيع دوما فى نهاية فترات حروب طويلة ومنهكة . ولكن عدم تشجيع الحكام والحكومة — لم يوقف الحركة المستمرة للحياة ، وانما أدى الى نوع من التعويض بالتجاوز ، لكثير مما كان له نظير سابق ، فظهرت الفنون الشعبية بأنواعها المختلفة : تمثيلا (خيال الظل — القره كوز) ، وسيرة أدبية ، تقترب من طبيعة الملحمة وتؤدى وظيفتها (سيرة الهلالية — عنترة — ذات الهمة — الظاهر بيبرس) ، الحكاية الشعبية (الف ليلة وليلة) ، كما ظهرت تنويعات باهرة فى مجال الشعر الغنائى ، حيث نشأت الموشحة والزجل والموال .

وعلى هذا فقد أصبح من المؤكد لدى علماء الانثروبولوجيا وفلاسفة الجمال أن « الانسان » فى حاجة دائمة ومتجددة الى (الثقافة) — والأدب أحد روافدها الاساسية ، وأنه اذا لم تسعف — أو تساعد بجهد حقيقى — الادارات الحكومية والقنوات الرسمية على تواصل الثقافة وتنميتها وانتشارها ، فان الشعب — الملهم والمعلم الحقيقى — يكيف طاقاته وابداعاته على أن تواصل استمرارها ، وتعمل على نشرها بشكل ما .

وحين نتجاوز الماضى والوسيط الى الحاضر والمعاصر ،

ونتأمل حال الثقافة فى مصر .. مصر العربية .. مصر « أم الدنيا » التى عبرت الهزيمة وحققت النصر العظيم فى أكتوبر ١٩٧٣ ، مصر العظيمة التى تشهد اليوم تجربة عربية رائدة فى مجال « الديمقراطية » والوصول الى الوحدة الوطنية من خلال فتح النوافذ والمنابر من أجل مزيد من الهواء الفكرى النقى ، حتى تتفتح كل قنوات الفكر الحر ، حتى يذهب الزبد جفاء ، وأما ما ينفع الناس ويطور الأحوال ، فيمكث وينمو ، حتى يسود الأرض العدل والحرية .

حين نتأمل مسار الثقافة اليوم ــ رغم كل ما ذكرت ــ نحس انها فى موضع لا تحسد عليه . ويضاعف من الأسى والحسرة على حال الثقافة عندنا ــ أن مصر تتجاوز دورها الوطنى فى التوجيه والتأثير الفكرى ، ويناط بها دور (قومى) فى الثقافة بحكم ريادتها ومسئولياتها التاريخية .

وفى تقديرى انه يعرقل مســـــار ثقافتنا اليوم ، ويحد من خصوبتها ، ويحول دون أن يصبح وجه مصر الثقافى أكثر قدرة على التعبير عن واقعه والتأثير فى حاضره ومستقبله عدة أمور .. لعل من اهمها :

اولا : شيوع روح «الشللية» فى بعض المؤسسات الثقافية ، بدعوى الخلاف (المتوهم) بين اليمين واليسار . وترتب عليه أن ظن بعض مديرى هذه المؤسسات الثقافية ــ حين تصدى للادارة والقيادة ــ أنه قد حصل على « منطقة نفوذ خاصة » لانصاره .. ويزكى هذا الحس القبلى المتخلف فى الثقافة بعض صغار «الكتبة»، لأنهم بدونه ، لا يظهرون ولا يرزقون .. وهكذا يتحول الخلاف حول الثقافة الى خلاف بين المثقفين انفسهم ، وتصبح المجادلة الفكرية ــ التى نص القرآن الكريم على أن تكون « بالتى هى أحسن » ــ حوارا عاصفا أقرب الى الهجاء والتعريض ، ويسود بناء على هذا وجهة نظر « واحدية » فى تلك المؤسسات .. مما يجعل الصورة العامة للثقافة القومية غير واضحة .. وبالتالى غير ممثلة ــ مما يتنافى مع الاطار العام للديمقراطية التى نتحرك فى ظلها .

ثانيا : سيطرة فكرة مدمرة على بعض هذه المؤسسات الثقافية وخاصة فى مجال الطباعة والنشر ــ مؤداها ان « الثقافة » سلعة تجارية ، يجب ان تحقق كسبا ماديا وربحا اقتصاديا باى سبيل ،

لذلك أصبحت « الهيئة العامة للكتاب » ــ أهم أجهزة وزارة الثقافة والنشر ــ مثلا تنشر من الكتب الثقافية « الحقيقية » اقل مما كانت تقدمه مطبعة بولاق الأميرية تحت اشراف رفاعة الطهطاوى منذ ما يزيد على قرن وربع القرن . كذلك يعز فى السياق أيضا أن تجد فى مؤسسة مثل « دار المعارف » الكثير حتى مما سبق لها ــ هى نفسها ــ أن نشرته من أعمال فى الثقافة والتراث والأدب .

ونحن لسنا ضد تحقيق الربح والمكسب .. وانما نشير الى انه ليس هناك ما قد يحول بين الكسب وبين نشر الثقافة ، كذلك فان تحقيق أى ربح فى هذه المؤسسات يجب أن يوظف من اجل التوسع فى تقديم الخدمات الثقافية . والرأى الذى لا خلاف عليه فى النهاية .. هو أننا فى صف نشر الثقافة على خط مستقيم ، حتى ولو تحملت الحكومة العبء كله ، لان الثقافة (خدمة) ضرورية تسد حاجة حقيقية فى المجتمع .. وليست سلعة تجارية البتة .

ثالثا : تحول كثير من المجلات والدوريات الى ان تكاد تكون حكرا على مجموعة بعينها من الكتاب .. بحيث اصبح لبعضها كتابها المحدودون الرسميون تقريبا .. وصارت العناية متجهة الى هوية الكاتب لا الى طبيعة المكتوب . كذلك يشجع بعض المشرفين على هذه المجلات الكتابة السطحية والثقافة الرخيصة المكررة بحجة زائفة مؤداها أن « الجمهــور يطلب ذلك » .. لهذا يبدو البون شاسعا بين مجلات ودوريات اليوم وبين تراث مصر العظيم فى هذا المجال الذى تعد مصر فيه (رائدة) ومؤصلة ، مما ترتب عليه هجرة اقلام بعض الكتاب الى الخارج أو صموت بعضها الآخر .

ولا أريد رصد مزيد من سلبيات الحركة الثقافية فى مصــر اليوم ، وبيان تأثيرها الخطر والضار على مستقبل مصر فى مجال الثقافة والفكر والأدب ، وانما أريد ــ من خلال « الملحق الأدبى »

لجريدة (الأهرام) العريقة ، الذى يعلن اليوم عودته واسهامه الثقافى المتواصل عبر قرن كامل من تاريخ نهضتنا الحديثة — أريد ان اقول :

أيها المثقفون .. تعالوا الى كلمة سواء بيننا .. نتفق فيها على « ادبيات » راقية للحوار الفكرى فى مجال الثقافة ، وعلى وضع « ميثاق » فعلى نعمل به من أجل أن يعود وجه مصر الثقافى اكثر اشراقا .. واعظم تأثيرا .. !!

أيها المثقفون .. يجب أن ندرك بوعى مغزى قول « الرسول الكريم » ان « اختلاف أمتى رحمة » ، ذلك أن تنوع وجهات النظر الفكرية ، وتعدد طرائق التأمل والبحث علامة صحة وحيوية . ان الحوار الديمقراطى قدر الاحياء والسبيل الوحيد الى النهوض والارتقاء .

أيها المثقفون .. يجب أن تتاح لكل مجتهد فرصة عادلة ومتكافئة فى التعبير عن رأيه ، مادام يصدر عن انتماء صادق لتراب الوطن ، وايمان نبيل بتراث الأمة .

أيها المثقفون .. ان اللحظة الحضارية والتحديات الخطيرة ، التى تواجه امتنا ، تتطلب مزيدا من الاخلاص والعمل من اجل تطهير الأرض وتحرير الارادة ، عن سبيل اتاحة ثقافة معاصرة متكاملة لجماهير شعبنا ، التى تحتاج الى الغذاء الثقافى والفكرى المستنير — قدر طلبها للزاد والطعام .

أيها المثقفون ..

ليكن الوطن محلا للجميع : نبنيه بالعمل ونحميه بالسلاح ، ونرقيه بالرأى الحر المتنوع .. من أجل غد أفضل لشعبنا العظيم .!

الترجمة .. والثقافة العربية ودور مصر الحضارى

لا تستطيع أمة ،مهما بلغت درجة تقدمها الحضارى أو تحررها السياسى ، أن تعيش فى عزلة عما يجرى بخطوات سريعة ومهمة فى عالم اليوم . لقد كان الانسان — ولايزال — حيوانا اجتماعيا ، يحتاج الى التعايش بالأخذ والعطاء وتبادل الخبرة والمنفعة مع غيره من البشر . ولا يقدر أى مجتمع أن يغلق ابوابه ونوافذه أمام الانجازات التكنولوجية والحضارية المعاصرة . فمن يزعم أنه قادر على أن يحيا فى حضارة اليوم دون أن يستخدم الادوات الكهربائية والبترول ومشتقاته والعقاقير الطبية .. وعلى هذا فالأمر بالنسبة لادوات «الحضارة المادية» سهل ويسير ، ولا يحتاج الى صراع أو جدل ، حيث أن الموقف محسوم بالنسبة لانسان اليوم ، فعليه ضربة لازب حتى لو كان يسكن فى الأحراش والأدغال أن يفتح الباب — على مصراعيه — لمظاهر الحضـــــارة المادية الجديدة ، التى لن يستطيع أن يهنأ بحياته ، بله أن يحياها — كما يجب — اذا لم يستخدمها .

ولكن ينبغى الا يعوقنا المظهر عن الوصول الى الجوهر ، ذلك أن هذه الأدوات الحديثة — لكى تجعل الحياة اكثر اشراقا وبهجة ، لا تجدى ما هو منوط بها من تأثيرات حضارية الا اذا استطاعت الأمم « الناقلة » لها أن تعيش « ثقافيـــا » نفس طرائق الحياة الفكرية وأنساق العلاقات الانسانية التى تتبعها البلاد المتقدمة .. وهنا نصل الى قضية مهمة مؤداها أن كثيرا من الشعوب النامية تعيش ثنائية خطرة ، حيث تمارس حياتها اليومية بأحدث منجزات الحضارة المادية وارقاها ، بينما يبقى عالمها الانسانى غارقا فى ضباب ثقافى وتناقض فكرى شديدين ، سيكون لهما — على المستوى القريب أو البعيد — آثار ضارة ومعطلة .

ونعود الى حاضرنا العربى — الذى نأمل أن نصـــله بكل انجازات الحضـــارة والثقافة العالميتين ، حتى يطور حياته الى ما هو أفضل ، وحتى يقوم بدوره فى صنع الحضارة الانسانية، التى أسهم — ولايزال — فى حركتها منذ فجر التاريخ . حين نتأمل واقعنا العربى نلمس فى « مجال الثقافة » عدة أمور لافتة :

الأول : هو أن الدراسات الانسانية فى مجال الثقافة .. قد وصلت فى كثير من المجتمعات المتقدمة الى درجة باهرة من التطور والرقى .

واذا تأملنا ما « يترجم » من اللغات المختلفة الى اللغة العربية اليوم ، لأدركنا بيسر أن ما يطرح فى سوق الثقافة عن طريق الترجمة أقل كما وكيفا ، حتى مما كان يشرف على تقديمه مفكر واحد عظيم مثل رفاعة الطهطاوى .

ان القصور فى وصل الانسان العربى بالثقافة العالمية ، قد يؤدى الى قدر من التخلف فى دراساتنا الانسانية واســـتخدامنا

لمناهج الفكر وطرق البحث وادوات التجـريب ، وعلى هذا فان الانسان العربى فى حاجة ماسة الى أن تترجم له فلسفات العصر وادبياته الثقافية ونظرياته فى الاجتماع والفلســفة ومناهج النقد والتذوق ودراسة النفس البشرية المعقدة . وتتجاوز الحاجة الى ترجمة الأنواع الأدبية المختلفة من قصة ومسرح وشعر — تتجاوز ذلك الى ضرورة نقل الفنون التشكيلية والتعبيرية المختلفة .

الثانى : ان ما يطرحه المجال الثقافى العربى لاسيما فى « الفنون الأدبية » فى حاجة حقيقية الى أن يترجم الى لغات العالم المختلفة ، لنصل العالم بنا — كما نطمح فى الوصول اليه .

والحقيقة — فيما أرى — أن انجازات بعض الفنانين والأدباء والمفكرين عندنا لا تقل البتة عن تراث أى أديب عالمى فى بعض هذه المجالات . ولكن مشكلة انتاجنا الثقافى أنه لا يترجم الى أى من اللغات العالمية . لقد كنا فى مراحل سابقة نسبيا — ننتظر حتى يقرأ بعض المستشرقين أو الباحثين الاجانب شذرات من تراثنا الثقافى ، ويعمل على نقلها والتعريف بها ، وعندئذ — فقط — نلتفت الى قيمة النص أو الى اهمية المؤلف . وأكاد أزعم — واثقا أن كتابا مثل «ألف ليلة وليلة» لم يستفد منه الفن أو الأدب العربى ، كما استفاد منه هذان المجالان فى أوروبا .

وبكل أسف نعجز عن ترجمة أى نص عربى حديث الى اللغات الأجنبية فى مرحلة تنمو فيها وتتسع اقسام اللغات الأجنبية فى كليات الآداب والألسن ، التى يجب أن يتضـــاعف دورها أمام انقراض « ظاهرة — الاستشراق » . واذا كان كثير من المجتمعات العربية قد فتح الله عليها ووسع لها سبيل الرزق ، وهيأ لها ظروف الاستقرار والنهوض ، فما احراها بأن تفكر فى وسيلة متقدمة لترجمة تراثنا

وادبنا المعاصر الى اللغات الأجنبية ، لنشارك مثل غيرنا «بدور» ، يجب أن نقوم به فى حركة العالم المعاصر .

الثالث : ان نقل ثقافة العالم الينا ونقل ثقافتنا اليه يحتاج الى تخطيط علمى « لتسويق الكتاب » . أن كثيرا من المؤسسات التى تسهم بدور فى تقديم الكتاب : نشرا أو توزيعا ، مازالت تعتمد على القطاع الخاص الذى له دور محمود ولكنه محــدود ، بينما الأمر يتطلب من كل دولة على حدة أو على الدول العربية قاطبة عن طريق « المنظمة العربية للثقافة والتربية » أن تدرك واعية ومخططة ــ أن «الثقافة حاجة روحية» ، لذلك ينبغى أن تقام سوق لنشر الكتاب العربى وتوزيعه فى الداخل والخارج مؤلفا أو مترجما . ان مصر العربية بحكم دورها التاريخى ومركزها الاســـتراتيجى عليها أن تتحمل قدرها بشجاعة ، لتعمل على نقل الثقافة العالمية وترجمة التراث القومى الى اللغات المختلفة .

* * *

ويسهم فى حل هذه القضية الثقافية ــ فيما أرى ــ عدة خطوات عملية أوجزها فيما يلى .. راجيا أن يتأملها السيد « وزير الثقافة » والسيد « وزير التعليم » ــ بحكم صلتهما الحميمة بالقضية .. محور المناقشة :

الأولى : انشاء « ادارة خاصة للترجمة » من العربية واليها ، تشرف عليها وزارتا الثقافة والتعليم متعاونتين فى مجال الاشراف الفنى والعلمى ، ولكن يجب الا تعتمــد هذه الادارة المقترحة فى ميزانيتها على هاتين الوزارتين فحسب ، بل أن عليها ان تسعى للتمويل عن طريق الدعم المستمر من كافة قطاعات المجتمع التى تغذيها .

الثانية : أن يشرف على هذه الادارة « متخصصون » وكوادر أمينة ومسؤولة فى مجالات الثقافة المختلفة ، يرســـمون خططها ويحددون برامجها ، ويشيرون الى ضرورة ما ينبغى أن ينقل الى اللغة العربية أو منها .. على أن تبرمج الخطط والمشروعات فى أوقات زمنية محددة ومحدودة .

الثالثة : أن يستعان فى تكوين هذه الادارة الخاصة بالمترجمين، الذين « يمارسون » هذه المسؤولية الآن بالفعل ، كما يجب أن « يكلف » بالعمل فيها الى أن تسد حاجتها من القوى البشـــرية الطلاب الأوائل فى أقسام اللغات الأجنبية المختلفة بكليات الآداب والألسن أو ما يناظرهما — على أن تعقد لهم دورات تدريبية راقية ومستمرة فى مجال الترجمة واللغة .

الرابعة : أن ينشأ لهذه الادارة « دورها الخاصة » بالطبع والنشر والتوزيع ، حتى لا يعطل مسارها عامل خارجى . وحين نتوجه بهذه الدعوة الى أمتنا العربية كلها ، نأمل أن تنهض مصر بدورها الرائد — دوما — فى هذا المجال . ان الآمال التى تعقد على مصر قد تكون — أحيانا — أكبر من جهدها ، ولكن المسؤولية المنوطة بها تجعلنا دائما موقنين بأنها لن تتخلى عن دورها الثقافى القيادى .

تعارضـات الحـداثة
فى الشـعر المعـاصر

تشهد الساحة العربية المعاصرة — فى مجال ابداع الشعر — تداخلات وتعارضات شتى ، حيث نرى شعراء يمثلون كل مدارس الشعر الحديث : الاحياء التقليدى ، والتجـديد الرومانسى ، والواقعى المعاصر . أكثر من هذا أننا نجد بعض شعراء يشكلون قصيدة الشعر الحر بمضامين رومانسية ، وآخرين ينظمون قصيدة عمودية بمضامين واقعية معاصرة . وذلك كله يعكس — بالضرورة — سمات خاصة لبنية المجتمع العربى ، وبالتالى للقيم الـفكرية والجمالية ، التى تؤثر فى نتاجه الثقافى ، ولهذا لم يكن من الغريب ان يمثل الشعر — فن العربية الأول — صدى واسـعا لكل تلك التعارضات الفكرية الحادة والتناقضات الفنية الواضحة .

ولكن .. اذا كانت طبيعة المجتمع العربى ، تسمح بتجاور المدارس الأدبية ، فان ذلك لا يجعلنا نسلم بان كل هذه المدارس قادرة على أن تعكس نبض الواقع ، وتصور مهام المرحلة المعاصرة . ان الرؤية الواقعية المعاصرة — وحدها — هى القادرة على التعبير عن قضايا المجتمع وأزمات الانسان ، سواء تشكلت هذه الرؤية فى قالب عمودي قديم .. أو نموذج حر جديد ، لأن القضية الحقيقية فى أدبنا المعاصر .. قضية شعر ، لا شكل . ونحن مع كل شعر يمتلك أدوات الفن ، ويستشرف آمال الانسان العربى فى الحرية والوحدة .. والعدالة والتقدم . !!

* * *

خواطـــر .. فى
ذكـرى صـاحب القنديل

تمر خلال هذا الشهر الذكرى السنوية الأولى لرحيل كاتبنا القدير يحيى حقى .. اذ من العجيب ان يولد فى أول شهور السنة (٧ يناير ١٩٠٥) ويرحل فى آخر شهورها (٩ ديسمبر ١٩٩٢) . وقد أسهم فى كل أنواع القول المنثور من : قصة قصيرة .. ورواية .. ونقـــد .. ومقـــال .. وســـيرة ذاتية .. وترجمـــة عن الفرنسية والانجليزية ، بيد أن النوع المتميز فى كل ما ابدع هو فن القصة القصيرة ، ولا نبالغ اذا قلنا ان رواياته — فى حقيقتها — قصص قصيرة ، وهذا ينطبق على : البوســـطجى — قنديل أم هاشم — صح النوم ، وهذا يعنى انه كان « صاحب طريقة » خاصة فى الكتابة — طريقة صوفية عملية خالية من « الحفلطة والحزلقة» ، لأنه — فيما يبدو لى — كانواحدا من الأدباء الذينيؤمنون بأن القصة يجب أن تترك « وحدة انطباع » ، لذلك لم يهتم بتفاصيل التكنيك المألوفة .. وانما تذف بها عرض الحائط ، فهو واحد من

أعضاء «المدرسة الحديثة» فى القصة ، التى كانت تدعو الى ايجاد « ادب مصرى عصرى » .. كما أنه هو نفسه كان يدعو « لأن يكون لنا فى الأدب . أسلوب أسميه بالأسلوب العلمى ، يعتمد على تحديد المعانى ، وبالتالى اختيار الفاظ محددة لها ، بل اقول الفاظ حتمية ، بحيث لا يكون المكان صالحا الا للفظ واحد .. » .

ومعنى هذا أن يحيى حقى كان يؤمن بأن تجديد الفكر ، بل ان تجديد الحياة نفسها ، ينطلق أساسا من منظور جديد للغة ووظيفتها فى المجالات كافة ، وهو يدعم رأيه هنا بعبارة مأثورة قالها كونفوشيوس ، عندما ساءت الأحوال الاجتماعية فى الصين القديمة وانهارت الأخلاق ، ورأى أن العلاج هو : **« وضع الألفاظ فى موضعها ، حين لا توضع الألفاظ فى موضعها تضطرب الأذهان وتفسد المعاملات ، وحين تفسد المعاملات ، لا تدرس الموسيقى ولا تؤدى الشعائر الدينية ، وحين لا تدرس الموسيقى ولا تؤدى الشعائر الدينية ، تفسد النسبة بين العقوبة والألم ، ولا يدرى الشعب على أى القدمين يرقص ، ولا ماذا يفعل بأصابعه العشرة .. !! »**

وكما شغل يحيى حقى اديبا وناقدا بالأسلوب اللغوى على مستوى الأداة ، فقد شغف — على مستوى المضمون — أيضا بأن يصور عبير الاحياء الشعبية فى القاهرة والصعيد ، لذا فان ادبه القصصى ذو نكهة مصرية عالية التميز ، تصور شخصيات تبدو هامشية ، لأنهم شخصيات « على باب الله » ، لكن فيهم « عطر الأحباب » ، لذلك تظل « قنديل أم هاشم » قمة ما كتب ، لأنها تعكس صفاء فنه ونقاء مصريته .. وفى ذلك فليتنافس الأدباء الحقيقيون .. !!

ضمير الأديب ..
مقص الرقيب

كثر الحديث فى الآونة الأخيرة عن دعاوى مرتفعة الصوت تنادى بمصادرة بعض الكتب الأدبية والفكرية واخضاع بعض المسلسلات التليفزيونين لرقابة بعض المؤسسات الدينية .

وهذه الصيحات العصابية كانت تصدر من قبل كل حين من الدهر ، لكنها اليوم أصبحت تمثل ظاهرة مطردة ، حيث نجد بعض من هب او دب ، ينادى بمصادرة عمل ما ، لأن فيه صورة أو عبارة — قد تبدو من وجهة نظر ضيقة الأفق — خارجة عن المألوف معنى أو مبنى . وفاتهم أن عملية الابداع — فى جوهرها — خروج عن سياق المألوف وتجاوز للمعروف .

ان المفكر أو الفنان أو الأديب بطل — صاحب بطولة من نوع خاص ، وهذه البطولة لا تتحقق الا بحرية الابداع .

وإذا لم نسمح للفكر بأن يتحرر وللخيال بأن ينطلق ، فمن أين يأتى التنوير والتطوير والتغيير .. ؟

ان الفكر يدفع بالفكر ، والفن يقوم بالنقد، لأن لكل مجال معرفى جهة تقويمية ذات طبيعة خاصة ، تتسق مع هويته الثقافية . اننا يجب الا نزج بمؤسسات ذات هيبة وقداسة فى كل صغيرة وكبيرة ، فالرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) نفسه يقول :

«اذا ولى الأمر غير اهله ، فانتظر الساعة» ، فلم اذن لا نبعد المجالس الدينية ورجالها عن أمور لا علاقة لها بها ، مثل اجازة رواية أو قصيدة أو كتاب او عمل درامى ، لأن الرقيب الأوحد على المفكر أو الفنان أو الأديب هو ضميره الحى ، الذى يشكل بوحى منه عالما غير معطى ، وفكرا غير مسبق ، وافقا لم يكتشف ، من أجل غد أفضل لغيره من البشر .

ان الفتنة قادمة كقطع الليل المظلم ، اذا لم نضع كل أمر فى نصابه ، ونعطى لكل مجال استقلاله . وهذه القضية قضية خطيرة ؛ لأنها تحدث فى مصر .. مصر بلد المعرفة والحضارة والتاريخ والثقافة ، مصر التنوير والتحرير .. وكلنا — بلا شك — يدرك خطورة الدور المصرى فى مجال الثقافة ، فهى قائدة ركب وزعيمة فريق من بلاد العالم العربى والعالم الثالث .

ومما يدعو الى الأسى والأسف أن ما يحدث اليوم من خصومة بين الأديب والرقيب أمر طارىء فى مسيرة الثقافة المصرية طوال عصور التاريخ ، اذ لم يحدث هذا الصدام الفكرى منذ شكاوى الفلاح الفصيح .. وحتى عهد قريب جدا .

لكن ظلال الارهاب المسلح والتزمت الفكرى ، هى التى أفرزت تلك الظاهرة الغريبة .. ظاهرة فرض الرقابة — بالارهاب — على الفكر والفن .

ومن عجب أن بعض الذين يطالبون بفرض هذه الرقابة ، يتمسحون فى عباءة الدين ، ويتوهمون انهم وحدهم أصحاب الحق فى الفتوى ، وفاتهم أن الرسول الكريم نفسه استمع الى قصيدة كعب بن زهير :

بانت ســـــعاد فقلبى اليوم متبــول

متيم اثرها لم يفـــد مكبـــول

لقد القى كعب الكافر الذى تهجم على الرسول والمسلمين قصيدته فى المسجد . وقد أعجب بها الرسول وعفا عنه بعد ان كان قد أهدر دمه .. ولم يحل دون تذوقه لها واعجابه بها أنها تبدأ بالغزل .

ترى هل يجيز هؤلاء الغاضبون — لغير ما سبب ، والرافضون دون ما حق .. أو وعى — أن ينشد الشعر اليوم فى المساجد .. وأن يستمع اليه أهل الفتوى ، الذين يريد أصحاب الارهاب العقائدى أن يستعدوهم — فكريا — على اخوانهم — ويشعلوها فتنة .. قد تسد طريق التقدم ، وتعشى ضوء الفكر ، وتخنق صوت الفن ، وتفرق الشمل .. وتسود الحياة .

ان حب مصر .. والايمان برسالة الثقافة ، يفرضان علينا جميعا أن ندع كل الزهور تتفتح فى مناخ ديمقراطى حر ، وان نترك كل مفكر أو فنان يطلق لخياله العنان ، ويحقق لواقعه الحـــرية والمحبة والأمان . واذا لم نوقف هذه العصابة المتزمتة فان اشجار الشوك والحنظل سوف تأتى على الأخضر واليابس .

وهذا ما لا نتمناه جميعا لمصر وللثقافة وللمستقبل .. !!

لكل شيء ..
اذا ما تم نقصـان

هذه الحياة غريبة عجيبة .. واعجب ما فيها ، هو قانونها الجبرى .. وعهدها الذى لا يتبدل ولا يتغير ، وهذا القـــانون الجبرى، تخضعله كل الأحياء والأشياء، فكل امر فى هذهالحياة يبدأ صغيرا ، يكاد لايرى بالعين المجردة ، أو يدرك بالحواس المعروفة ، لكنه يظل يستجيب لارادة البقاء ورغبة الحياة ، فينمو شيئا فشيئا الى ان يستوى عوده ، ويشب عن الطوق ، ويكبر حتى يصـــــير ملء السمع والبصر ، ويشغل الدنيا ويحرك الناس ، وبعد أن تصل الكائنات والموجودات الى اقصى تطور ونضج .. تبدأ فى الهبوط التدريجى والانحراف المعيارى ، الذى يتناسب ــ عكسيا ــ مع درجة النمو والتطور .. ويظل هكذا شيئا فشيئا الى أن ينتهى كما بدا ضعيفا بلا حراك وضئيلا لا قدرة له ، وصغيرا تكاد لا تراه العين ، أو تدركه الحواس .. !!

هذا هو قانون البقاء والفناء ، الذى ينسحب على الموجودات كلها من انسان وحيوان وطير ونبات . تلك سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا أو تحويلا . وقد أوجزها سبحانه وتعالى فى قوله الحكيم :

« ومن نعمره ، ننكسه فى الخلق ، افلا يعقلون ؟! . »

والعاقل من أدرك حكمة هذا القانون السرمدى ، وعرف حقيقة دورة حياته ، واستجاب لما تتطلب من شروط فى العمل والحركة . والويل لمن يصعر خديه للزمن ، ولا يوقر سنه ، ولا يحترم شيخوخته .. !!

وحول قضية (الصراع) الدائر والدائم بين الانسان والزمن تشكلت أكثر من تجربة فنية ، ومن ذلك على سبيل المثال **مسرحية « اوديب » للكاتب الاغريقى « سوفوكليس »** ، فقد كان « اللغز » المطلوب حله من أوديب ، حتى يحكم المملكة ويتزوج الملكة ، هو ..

« من الكائن الذى يسير فى الصباح على أربعة ، وفى الظهر على اثنين ، وفى المساء على ثلاثة ؟! »

وكانت الاجابة هى : « الانسان » .. الذى يحبو فى الصغر على يديه ورجليه .. وبعد النضج يمشى على قدميه .. وعند الهرم والشيخوخة ، يحمل العصا ويتوكأ عليها .. فكأنه بالتالى يمشى على ثلاثة ارجل .. !!

ومسرحية الكاتب الكبير **توفيق الحكيم « اهل الكهف »** تدور — ايضا — حول هذه القضية — قضية صراع الانسان مع الزمان — وخلاصة رؤية الحكيم أن الانسان يستطيع ان يهزم — أو ينتصر

على ـ اشياء كثيرة فى هذه الحياة الدنيا إلا الزمن ، فانه يستحيل قهره ، ويعجز البشر اجمعين عن الانتصار عليه ، فبريسكا ـ بطلة المسرحية ـ حاولت ان تبادل يمليخا ـ بطل المسرحية الأول ـ الحب، لكنها أحست أن الزمن يقف (حائلا) دون اللقاء والتواصل، لذلك ينسحب يمليخا متوجها نحو الكهف بعد أن صرعه الزمن .. ولكن بريسكا قررث أن تهزم الزمن بـ « الحب » ، فمضت على أثره حتى تلحق به فى الكهف ، وطلبت من معلمها فى آخر مشهد من المسرحبة أن يقول عنها : « انها امرأة أحبت .. !! » أو بمعنى آخر .. امرأة تحاول أن تهزم الزمن بالحب .. وهذه فلسفة مثالية شـــعرية ، لان الزمن ـ فى الحقيقة والواقع ـ قادر وقاهر وغلاب !! .

وحول هذه القضية أيضا أعجبت منذ وقت مبكر بقصـــيدة للشاعر الأندلسى « أبى البقاء صالح بن شريف الرندى » .. التى يقول فى مطلعها :

لكل شىء اذا ما تم نقصـــان
فلا يغـــر بطيب العيش انســان

هى الأمور كما شـــاهدتها دول
من ســـره زمن ســـاءته ازمان

وهذه الدار لا تبقى على احـــد
ولا يدوم على حال لهـــا شـان

والقصيدة تعد من عيون الشعر العربى ، فهى تعبر عن حرقة صادقة لما حل ببلاد الأندلس من كوارث ومذابح فى اثناء التحول من الحكم العربى الاسلامى .. الى الحكم الغربى المسيحى فى القرنين

التاسع عشر الهجريين . والشاعر يبكي في هذه القصيدة (تحول الزمن) الى صالح الغرب ، من هنا يحاول ان يبعث العزائم ، ويحرك اهل الاسلام لنصرة الدين والعروبة .. وبعد أن يعدد بعض صور المآسي، التى كانت تتم على يد الفرنجة يختم القصيدة قائلا :

لمثـــل هذا يذوب القلب من كمد
ان كان في القلب اســـلام وايمان

تلك حال الدنيا ، وهذه سنة الكون ، والأيام دول : يوم لك ويوم عليك .. وساعة مرح ، وساعة حزن .. ولحظة امل ، ولحظة الم .. فلا يغر بطيب العيش انسان .. !!

* * *

أعمال أدبية اخرى للمؤلف

١ ـ عمار يامصر
(مجموعة) ١٩٨٠ ـ ١٩٩١ .

٢ ـ الدموع لا تمسح الأحزان
(مجموعة) ١٩٨٢ ـ ١٩٩١ .

٣ ـ حكاية الليل والطريق
(مجموعة) ١٩٨٥ ـ ١٩٩١ ـ ١٩٩٢ .

٤ ـ دائرة اللهب
(مجموعة) ١٩٩٠ ـ ١٩٩٣

٥ ـ العشــــق والعطش
(مجموعة) ١٩٩٣

٦ ـ الأفق البعيــــد
(رواية) ١٩٨٤ ـ ١٩٩١

٧ ـ الممكن والمستحيل
(رواية) ١٩٨٧ ـ ١٩٩٢

٨ ـ الكهف السحرى
(رواية) ١٩٩٤

٩ ـ الليـــالى
(سيرة ذاتية) جـ ١ ـ ١٩٩٠ ـ ١٩٩٢ .

١٠ـ الشمس تشرق فى غرناطة
(رواية) .. تحت الطبع

* * *

دراســـات نقـــدية

١ ـ شعر شوقى الغنائى والمسرحى
٢ ـ شعر ناجى الموقف والأداة
٣ ـ ديوان رفاعة الطهطاوى ـ جمع ودراسة
٤ ـ الشعر والشعراء المجهولون فى القرن التاسع عشر
٥ ـ جماليات القصيدة المعاصرة
٦ ـ صورة المرأة فى الرواية المعاصرة
٧ ـ دراسات فى نقد الرواية
٨ ـ شوقى ضيف ـ سيرة وتحية
٩ ـ الرواية السياسية (تحت الطبع)

* * *

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

رقم الايداع ١٩٩٥/٢٨٨١

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 4306 — 7

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب